

الذين في قلوبهم مرض في نظر المفسرين

تأليف:

عبدالباقي قرنة الجزائري



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



**الذين في قلوبهم مرض
في
نظر المفسرين**

**تأليف
عبد الباقي قرنة الجزائري**



العنوان: قم المقدسة - شارع معلم: ساحة روح الله - تليفون: ٧٧٤٤٢١٢ - تليفاكس: ٧٧٤١٦٢١

* اسم الكتاب: الذين في قلوبهم مرض (في نظر المفسرين)

* المؤلف: عبد الباقي قرنة الجزائري

* المطبعة: شريعت

* الطبعة: الأولى

* عدد المطبوع: ١٢٠٠ مجلد

* تاريخ النشر: ١٣٨٥ هـ. ش - ١٤٢٧ هـ. ق - ٢٠٠٦ م

* ISBN: 964-535-009-3

* شابك: ٩٦٤-٥٣٥-٠٠٩-٣

* تصميم الغلاف: حسين صمدي

المقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمد

وآله الطيّبين الطّاهرين؛

هذا بحث تتبعت فيه أقوال المفسّرين بخصوص طائفة الذين في قلوبهم مرض، محاولاً التّدقيق في معرفة ما بنوا عليه تفسيرهم، وفهم ما استندوا إليه في تعابيرهم. وقد حرصت في الأثناء ألاّ أتجاوز الآية إلا فيما تقتضيه الضّرورة، وما يفرضه نسق المفسّر ونفسه من استطراد والتّفات، وتقديم وتأخير، إذ لا ينبغي لي أن أبتر من حديثه ما قد يكون في نظره عمدة أو غاية، وللناس في طرق الكلام فنون. وقد يجدر بي إعلام القارئ الكريم أنّ الآية شغلت فكري سنين طويلة، ولم أكن أتجرأ على ذكر خواطري فيها، ولا وجدت من يرغبني في الخوض في معانيها، إلى أن سمعت حديثاً من بعض الفضلاء يوهم بتحوّل جيل الصّحابة جميعاً من رجال جازت عليهم عبادة الأصنام إلى مقام قاب قوسين أو أدنى من الملائكة الكرام؛ عندها عقدت العزم على البحث في الموضوع من باب التّدبر الذي أمرنا به، ونُهِينا عن إغفاله. وقد فوجئت أثناء بعض المطارحات والمناقشات أنّ في دائرة أتباع

أهل البيت عليهم السلام من يميل إلى تفاسير المعدّلين والمصوّبين مع معارضته القول بعدالة الصحابة أجمعين، وهذا إضافةً إلى ما فيه من إشكال يستدعي الإيضاح، شجّعني على الاستمرار في البحث قدر طاقتي، عسى الله أن يقيّض فيما بعد من يشبع المسألة بحثاً وتنقياً على مستوى أعلى وأرقى وأعمق، فأكون قد ساهمت بالتمهيد، وأشرت ولو من بعيد؛ وأنا مع ذلك أرجو أن يسدّد الله تعالى خطاي ويأخذ بيدي كي لا أتجاوز الحدّ، ويثبّتي على صدق النّيّة وتصحيح القصد، إنّهُ من يتّق ويصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين.

المدخل

كلام في تدبر القرآن الكريم

و

ما جرى بين الصحابة

كلام في التدبّر

تدبّر القرآن الكريم مأمورٌ به من قِبَلِ المولى سبحانه وتعالى، وفيه فوائدٌ عظيمةٌ، وأسرارٌ جليّةٌ، وهو باعثٌ على التأمّل والتفكير والانفتاح على عوالم الأنفس والآفاق. وقد رُوِيَ عن النَّبِيِّ ﷺ قوله: "تفكّر ساعة خير من عبادة سنة"^(١). والأدلة في ذلك متوفرة متظافرة؛ قال النووي في التّبيان "في فصل عقده للتدبّر: "والدلائل عليه [أي التدبّر] أكثر من أن تحصر وأشهر وأظهر من أن تذكر ﴿أفلا يتدبّرون القرآن﴾، وقال تعالى ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾. والأحاديث فيه كثيرة وأقاويل السلف فيه مشهورة"^(٢).

نعم، قال الله تعالى بخصوص سهولة التدبّر في كتابه الكريم ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾، فالقرآن سهلٌ لمن أراد ممارسة التفكير والتذكّر والتدبّر، وهذا بشهادة من أنزله. وليس التدبّر من أقسام التفسير بالمعنى

١ - الحديث ورد بألفاظ متعدّدة قال الرازي في التفسير الكبير ج ٢ ص ١٧٣ قال عليه الصلاة والسلام تفكّر ساعة خير من عبادة ستين سنة، وفي التفسير الكبير أيضاً ج ٢٢ ص ٣٩ قال عليه السلام تفكّر ساعة خير من عبادة سنة. وفي الدرّ المنثور للسيوطي ج ٢ ص ٤١٠: أخرج الدليمي من وجه آخر مرفوعاً عن أنس تفكّر ساعة في اختلاف الليل والنهار خير من عبادة ثمانين سنة. وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة. وفي تفسير القرطبي ج ٤ ص ٣١٤: روي عنه عليه السلام أنّه قال: تفكّر ساعة خير من عبادة سنة. وقال الألويسي في روح المعاني ج ١٢ ص ١١: وفي بعض الآثار تفكّر ساعة يعدل عبادة سبعين سنة. وفي مرقاة المفاتيح ج ١ ص ٣٤٢: كما ورد تفكّر ساعة خير من عبادة سنة أو ستين سنة.

العلمي الدقيق، لأنه لا يعدو عملية تجري بين العبد وضميره، فهو عملية وجدانية يسمو فيها الفكر بحثاً عن الأمور المتعلقة بمصير الإنسان؛ قال القرطبي في تفسيره: "قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا﴾ حث على تأمل مواضع القرآن ويبيّن أنه لا عذر في ترك التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه، ولرايتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدّعة، أي متشققة من خشية الله والخاشع الدليل. والمتصدّع المتشقق. وقيل ﴿خاشعاً﴾ الله بما كلفه من طاعته. ﴿متصدّعاً﴾ من خشية الله أن يعصيه فيعاقبه. وقيل: هو على وجه المثل للكفار^(١). وقال أيضاً: "ثم عاب المنافقين بالإعراض عن التدبر في القرآن والتفكر فيه وفي معانيه. تدبرت الشيء فكّرت في عاقبته. وفي الحديث (لا تدابروا) أي لا يولي بعضكم بعضاً دبره. وأدبر القوم مضى أمرهم إلى آخره. والتدبر أن يدبر الإنسان أمره كأنه ينظر إلى ماتصير إليه عاقبته. ودلت هذه الآية وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ على وجوب التدبر في القرآن ليعرف معناه. فكان في هذا ردُّ على فساد قول من قال: لا يؤخذ من تفسيره إلا ما ثبت عن النبي ﷺ، ومنع أن يتأول على ما يسوغه لسان العرب. وفيه دليل على الأمر بالنظر والاستدلال وإبطال التقليد وفيه دليل على إثبات القياس"^(٢). قلت: وعلى هذا أكثر العلماء، وفي مسألة الدلالة على

١- تفسير القرطبي، ج ١٨ ص ٤٤.

٢- نفس المصدر، ج ٥ ص ٢٩٠.

القياس خلاف^(١). وفي الحقيقة يكاد أمر التدبّر يكون بديهيّاً، فإنّه لا يُعقل أن يذمّ الله تعالى قوماً لتركهم شيئاً ثمّ يحول بينهم وبينه بالخطر، لما في ذلك من التّغريب، تعالى الله عمّا يصف الجاهلون.

لكنّ عمليّة التدبّر إذا واجهت مبادئ وأصولاً اعتقاديّة متضاربة لا تلبث أن تفقد وضوح الرّؤية وسهولة الفهم، وتحوّل إلى صراع داخليّ عنيف قد ينعكس على سلوك صاحبه، ويكون سبباً في ضياعه بدل أن يكون سبباً في هدايته ونبّاته. وعليه يغدو التدبّر نافعا إذا لم تسبقه أحكام وآراء ونظريّات مؤثّرة، توجّهه وتحتكّم في نتائجه؛ أمّا في ظلّ وجودها فلا يكون التدبّر هادفاً متوازناً، ولا تكون النتيجة سوى بروز كوّامن آثار تلك النظريّات وإفرازاتها. ويبدو لي - من منظور تربويّ - أنّ تجنّب ذلك التّأثير الكامن يستلزم عمليّة تربويّة في مرحلة مناسبة من العمر، كيما يتحقّق الاستقلال الفكريّ، وهو ما يضمن التدبّر الصّحيح في ظلّ الفهم الذي يتبنّاه المتدبّر ويراه صحيحاً؛ فإنّ كثيراً من النّاس يعتقدون أنّهم أحرار فكريّاً وليسوا كذلك، لأنّهم لا يستطيعون الدّفاع عن متبنّياتهم إلّا على جهة التّقليد؛ ومعناه أنّ تقريراتهم وتبريراتهم لا تعدو محفوظات توضع في قوالب وخانات معيّنة، لتملأ فراغاً فكريّاً يرفض التّجديد..

١ - القياس (بالمعنى الذي يقصده القرطبيّ ومدرسته) باطل في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، والقول في ذلك مبسوط في كتب الفقه والأصول.

وطالما حدثنا التاريخُ عن أقوامٍ عبدوا الله تعالى من دون تفكّر فضّلوا وأضلّوا، كما حدثنا عن أقوامٍ استمعوا القول واتبعوا أحسنه فنالوا خير الدنيا وفوز الآخرة. وقد ضمن الله تعالى حداً أدنى من القرآن قابلاً للتدبّر والاستفادة من طرف كلّ من يفهم اللّغة العربيّة التي نزل بها، ولا يبعد أن يكون ذلك متيسّراً في مترجمه أيضاً إذا جرت الترجمة بنفّس أمين. وقبل الدّخول في ما وضع له الكتاب لأبأس بالتذكير أنّ مباني المفسّرين الاعتقاديّة وانتفاءاتهم المذهبيّة كانت حاضرة ناطقة في تعابيرهم، جليّة التأثير لاتخفى على من أمعن النّظر وأعمل الفكر. ولا شكّ أنّ الموضوعيّة والانتفاء المذهبيّ لا يجتمعان إلّا إذا كان المذهب مبنياً على الحقّ ماشياً مع القرآن دائراً معه حيث دار، وكان الباحث باذلاً وسعه في ملازمة الحقّ ملازمة الظّل لشخصه. غير أنّه من الصّعب الفصل بين ثقافة المفسّر وبين رؤيته التفسيرية، إذ لا يمكن أن يكون هو هو وغيره في نفس الوقت، وهذا أمر مشهود بالوجدان، لكن مع ذلك لا يحول شيء دون توخّي الموضوعية والإنصاف قدر المستطاع، بدليل قوله تعالى ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ وقوله تعالى ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ٓأَلَّا تَعْدِلُوا ۖ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، فلو كان العدل ممتنعاً لما كلّف به سبحانه وتعالى، لقبّح التّكليف بغير المقدور ونفور الفطرة منه. كما أنّ في قوله ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ إشارة إلى القوّة المعنويّة التي أودعها الله تعالى في ضمير الإنسان، فإنّه يصعب عليه مخادعة نفسه ومغالطتها دون الانسلاخ من الحقّ والانخراط في الباطل. والذي تأكّد لديّ أثناء البحث، هو أنّ معتقّد الإنسان يوجّه تفكيره وفهمه بدرجة كبيرة، وقد يساعد على ذلك كثرة اللّجوء

إلى التأويل، وما يشاع في أيامنا من تعدّد القراءات والرؤى؛ وأضرب ههنا مثالا لذلك من واقع المدارس الفكرية المتقابلة: فالشيعي - مثلاً - لأنه معتقد بعصمة أهل البيت عليهم السلام يفكر في ضوء العصمة ويهتدي بمعالمها، فيستفيد منها أثناء البحث والتفكير. لكنه إذا طوّل بإثبات العصمة يتحوّل إلى عقلانيّ محض، والعقلانيّ هنا بمعنى من يستعمل المسلّمات العقلية بطريقة صحيحة لإثبات المطلوب. فإذا ثبتت العصمة بالدليل العقليّ جاءت الأدلة الثقلية تؤيدها وتثبت قلب المعتقدها. فالاعتقاد بعصمة الأئمة ههنا وإن كان له الأثر البالغ في توجيه فكر من يتبنّاه، لم يمنعه من افتراض العكس وإثبات المطلوب.

هذا النوع من الاستدلال لا يُعمل به لدى جميع مدارس أهل القبلة، وإن كان يفترض فيهم ذلك. فالذين يؤمنون بعدالة جميع الصحابة لا يستطيعون إثبات ذلك عقلاً ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وأمّا من جهة النقل فالحديث ذو شجون. وحتى لا يكون الكلام رجماً بالغيب هذا مثال لما جاء بخصوص ذلك في كتب التفسير: قال الرازيّ في التفسير الكبير: وقوله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي وعد ليغيظ بهم الكفار يقال رغماً لأنفك أنعم عليه، وقوله تعالى ﴿مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ لبيان الجنس لا للتبعض، ويُحتمل أن يُقال هو للتبعض ومعناه ليغيظ الكفار والذين آمنوا من الكفار لهم

الأجر العظيم، والعظيم والمغفرة قد تقدّم مرارا والله تعالى أعلم^(١). وقال الزمخشري في تفسيره (الكشاف): قوله ليغيظ بهم الكفار تعليل لما قلت لما دلّ عليه تشبيههم بالزرع من نوائهم وترقيهم في الزيادة والقوة، ويجوز أن يعلّل به وعد الله الذين آمنوا لأنّ الكفار إذا سمعوا بها أعدّ لهم في الآخرة مع ما يعزّهم به في الدّنيا غاظهم ذلك ومعنى منهم البيان كقوله تعالى فاجتنبوا الرّجس من الأوثان^(٢).

وقال أبو السعود: "في تفسير قوله تعالى ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض...﴾ والمراد بالذين آمنوا كلّ من اتّصف بالإيمان بعد الكفر على الإطلاق من أيّ طائفة كان وفي أيّ وقت كان، لا من آمن من طائفة المنافقين فقط، ولا من آمن بعد نزول الآية الكريمة فحسب، ضرورة عموم الوعد الكريم للكلّ كافّة^(٣)!]. فالخطاب في منكم لعامة الكفرة لا للمنافقين خاصّة و(من) تبعيضيّة وعملوا الصّالحات عطف على آمنوا داخل معه في حيّز الصّلة وبه يتمّ تفسير الطّاعة التي أمر بها ورتّب عليها ما نظم في سلك الوعد الكريم كما أشير إليه. وتوسيط الظرف بين

١ - التفسير الكبير - الرازي، ج ٢٨ ص ٩٤.

٢ - الكشاف - الزمخشري، ج ٤ ص ٣٥٠.

٣ - هذا وأمثاله مما يتعارض مع العدل الإلهي إن كان يريد بعموم الوعد ما يصحّح به عدالة جميع الصّحابة، فإنّه لا بد من العمل الصّالح مع الإيمان؛ وقد ذكر القرآن الكريم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا...﴾ (النساء ١٣٧) فدلّ هذا على أنّ الإيمان قد يعقبه كفر، فلا بدّ من الإيمان والعمل الصّالح والثبات عليهما إلى أن يخرج المكلف من الدّنيا. وقد اعتمدت المرجعة على تعابير مشابهة في دعوى عقائدهم، ولا يبعد أن يكون لكعب الأحبار ومن على شاكلته يد في ذلك.

المعطوفين لإظهار أصالة الإيمان وعراقته في استتباع الآثار والأحكام، وللإيدان بكونه أول ما يطلب منهم وأهم ما يجب عليهم؛ وأما تأخيرها عنهما في قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً فلاّن (من) هناك بيانية^(١)، والضمير الذين معه ﷺ من خلّص المؤمنين، ولا ريب في أنّهم جامعون بين الإيمان والأعمال الصالحة مثابرون عليهما[!]، فلا بدّ من ورود بيانهم بعد ذكر نعوّتهم الجليلة بكمالها. هذا ومن جعل الخطاب للنبي ﷺ وللأمة عموماً على أن من تبعية أو له ﷺ ولن معه من المؤمنين خصوصاً على أنّها بيانية فقد نأى عما يقتضيه سياق النظم الكريم وسياقه بمنازل، وأبعد عما يليق بشأنه ﷺ بمراحل^(٢). وفي تفسير الجلالين: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ﴾ الصّحابة ومن لبيان الجنس لا للتبعض، لأنّهم كلّهم بالصفة المذكورة^(٣). مغفرةً وأجراً عظيماً الجنّة وهما لمن بعدهم أيضاً^(٤). لكن السمعاني يقول: "وقوله ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا

١ - للتذكير قال ابن عقيل في شرح الألفية [تحج] من " للتبعض، وبيان الجنس، ولابتداء الغاية: في غير الزّمان كثيراً، وفي الزّمان قليلاً، وزائدة. فمثالها للتبعض قولك: " أخذت من الدّراهم " ومنه قوله تعالى: (ومن النّاس من يقول آمناً بالله). ومثالها لبيان الجنس قوله تعالى: (فاجتنبوا الرّجس من الأوثان). ومثالها لابتداء الغاية في المكان قوله تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى). ومثالها لابتداء الغاية في الزّمان قوله تعالى: (لمسجد أسس على التقوى من أوّل يوم أحقّ أن تقوم فيه...[شرح ابن عقيل - ج ٢ ص ١٥.

٢ - تفسير أبي السعود، ج ٦ ص ١٩٠.

٣ - هذا السيوطي على جلالة قدره يستدلّ بما لم يثبت لا عقلاً ولا نقلاً.

٤ - تفسير الجلالين، ج ١ ص ٦٨٤.

الصّالحات منهم مَغْفرة وأَجرا عَظيماً ﴿ اختلَفوا في قولِه منهم فقال قوم من هاهنا للتَّجنيس لا للتَّبعض، قال الزَّجاج هو تَخْلِص للجنس وليس المراد بعضهم لأنَّهم كلَّهم مؤمنون ولهم المَغْفرة والأجر العَظيم. وعن ابن عروَةَ قال: كنّا عند مالِك بن أنس فذكروا رجلاً يَتَبَعُ أصحاب رسول الله فقال مالِك: من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب رسول الله فقد أصابته هذه الآية وهو قوله ليغيظ بهم الكفّار. والقول الثّاني أنّ معنى قوله منهم أي من ثبت منهم على الإيمان والعمل الصّالح فله المَغْفرة والأجر العَظيم، أورده البّحّاس في تفسيره. وقال الطّبريّ: وقوله وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصّالحات منهم مَغْفرة وأَجرا عَظيماً يقول تعالى ذكره وعد الله الذين صدّقوا الله ورسوله وعملوا الصّالحات يقول وعملوا بما أمرهم الله به من فرائضه التي أوجبها عليهم، وقوله منهم يعني من الشّطء الذي أخرجهم الزرع وهم الدّاخلون في الإسلام بعد الزّرع الذي وصف ربّنا تبارك وتعالى صفته، والهاء والميم في قوله منهم عائدة على معنى الشّطء لا على لفظه، ولذلك جمع فقيّل منهم ولم يقل منه، وإنّا جمع الشّطء لأنّه أريد به من يدخل في دين محمّد إلى يوم القيامة بعد الجماعة الذين وصف الله صفتهم بقوله والذين معه أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً^(١).

ولأنّ عدالة جميع الصّحابة معتقد متحكّم في تفكير أصحابه فقد انجرّ كثير من النّحاة أيضاً وراء (البَيانيّة) بدل (التَّبعضيّة)، فهذا ابن هشام الذي

١ - تفسير السمعاني، ج ٥ ص ٢١٠.

يقول عنه ابن خلدون "أنحى من سيبويه" يورد كلام ابن الأنباري فيقول: وفي كتاب المصاحف لابن الأنباري أنّ بعض الزنادقة تمسك بقوله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً﴾ في الطعن على بعض الصحابة، والحق أنّ من فيها للتبيين ولا للتبعيض، أي الذين آمنوا هم هؤلاء، ومثله الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم، وكلّهم محسن ومُتَّقٍ [!] إن لم ينتهوا عما يقولون ليمسّن الذين كفروا منهم عذاب أليم فالمقول فيهم ذلك كلّهم كفّار^(١).

غير أنّ ابن الأنباري وابن هشام يقفان مكتوفي الأيدي أمام الحديث الذي رواه البخاري: "حدّثنا أحمد بن صالح حدّثنا ابن وهب قال أخبرني يونس عن ابن شهاب عن ابن المسيّب أنّه كان يحدث عن أصحاب النبي ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: يرد عليّ الحوض رجال من أصحابي فيحلّون عنه فأقول يا رب أصحابي فيقول إنّك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنّهم ارتدّوا على أدبارهم القهقري. وقال شعيب عن الزهريّ كان أبو هريرة يحدث عن النبي ﷺ فيجلون، وقال عقيل فيحلّون.."^(٢). فهذا الحديث صريح في أنّهم ارتدّوا على أدبارهم، وعبارة (ارتدّوا) هي التي استعملها النبي ﷺ، وهي خطيرة في المقام. وفي الحديث قول النبي ﷺ (رجال من أصحابي)، فهم من

١ - مغني اللبيب ابن هشام، ج ١ ص ٤٢١.

٢ - صحيح البخاري، ج ٥ ص ٢٤٠٧ الحديث رقم ٦٢١٤.

أصحابه، وعبارة (الأصحاب) لا تُطلق على كل أتباع النبي ﷺ، وإنما تُطلق على من كانوا معه في حياته. فإذا كان المتمسك بالآية للطعن في بعض الصحابة زنديقاً، فكيف يصنع ابن الأنباري مع رسول الله ﷺ وهو يذكر أنهم ارتدوا على أدبارهم القهقري؟!

وفي صحيح البخاري أيضاً: "...ثم إذا زُمرَةٌ حتّى إذا عرفتهم خرج رجلٌ من بيني وبينهم فقال هلمّ. قلتُ أين؟ قال إلى النار والله. قلت ما شأنهم؟ قال إنهم ارتدّوا بعدك على أدبارهم القهقري؛ فلا أراه يخلص منهم إلّا مثل همل النعم"^(١).

قال ابن حجر في فتح الباري: "وفي حديث أبي سعيد في باب صفة النار أيضاً فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول سحقاً سحقاً لمن غير بعدي. وزاد في رواية عطاء بن يسار فلا أراه يخلص منهم إلّا مثل همل النعم. ولأحمد والطبراني من حديث أبي بكرة رفعه ليردّ عليّ الخوض رجال ممّن صحبني ورآني وسنده حسن. وللطبراني من حديث أبي الدرداء نحوه وزاد فقلت يا رسول الله أدع الله أن لا يجعلني منهم قال لست منهم، وسنده حسن"^(٢). فالقول بعدالة جميع الصحابة ونجاتهم بعد الاطلاع على هذه الأحاديث وأمثالها لا يكون إلّا من عمى البصيرة، أو العناد الذي لا علاج له.

١ - صحيح البخاري، ج ٧ ص ٢٠٩.

٢ - فتح الباري، ابن حجر، ج ١١ ص ٣٣٣.

بخصوص ما جرى بين الصحابة

روي الطبراني في المعجم الكبير: عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه قال: كَانَ بين عَمَّارِ بنِ يَاسِرٍ وودِيعَةَ بنِ ثَابِتٍ كَلامٌ فَقَالَ وديعة لعمَّار: إِنَّمَا أَنْتَ عَبْدُ أَبِي حَذِيفَةَ بنِ المِغِيرَةَ مَا أَعْتَقَكَ بَعْدَ! قَالَ عَمَّار: كَمْ كَانَ أَصْحَابُ الْعُقْبَةِ؟ فَقَالَ: اللَّهُ أَعْلَمُ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ عِلْمِكَ. فَسَكَتَ وَدِيعَةُ، فَقَالَ مِنْ حَضْرَةِ: أَخْبِرْهُ عَمَّا سَأَلْتُكَ. وَإِنَّمَا أَرَادَ عَمَّارُ أَنْ يُخْبِرَهُ أَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ[!!] فَقَالَ: كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّهُمْ أَرْبَعَةُ عَشَرَ رَجُلًا! فَقَالَ عَمَّار: فَإِنْ كُنْتَ فِيهِمْ فَأَتَهُمْ خَمْسَةَ عَشَرَ. فَقَالَ وَدِيعَةُ: مَهْلًا يَا أَبَا الْيَقْظَانَ، أَشَدُّكَ اللَّهُ أَنْ تَفْضَحْنِي. فَقَالَ عَمَّار: وَاللَّهِ مَا سَمَّيْتُ أَحَدًا وَلَا أَسْمِيَهُ أَبَدًا، وَلَكِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ الْخَمْسَةَ عَشَرَ رَجُلًا اثْنَا عَشَرَ مِنْهُمْ حَرَبَ اللَّهُ وَلِرَسُولِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ" (١).

وإنما ذكرت هذا الحديث في البداية ليكون القارئ على علم بما كان بين الصحابة من خلاف وتكتّم يصل أحيانا إلى الاتهام في الدين، كما هو واضح من كلام عَمَّارِ بنِ يَاسِرٍ رضي الله تعالى عنهما، فإنه يقول عن أصحابِ العقبة إنهم حَرَبَ اللَّهُ وَلِرَسُولِهِ فِي الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ. وشهادة عَمَّارِ بنِ يَاسِرٍ لَا تَرَدُّ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ شَهِدَ لَهُ بِالْإِيمَانِ، وَأَنَّهُ "مَلَأَ إِيْمَانًا مِنْ رَأْسِهِ إِلَى آخِصِ قَدَمِهِ". وليس من شأن عَمَّارِ بنِ يَاسِرٍ أَنْ يَتَّهَمَ الْأَبْرِيَاءَ وَلَا أَنْ يَتَحَرَّشَ بِالْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، وَهُوَ الَّذِي لَقِيَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيَ، وَلَمْ يَزَلْ يُجَاهِدُ نَفْسَهُ لِلثَّبَاتِ عَلَى النَّهْجِ الْقَوِيمِ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، حَتَّى لَقِيَ اللَّهَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا قَدْ بَاءَتْ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَةُ بِقَتْلِهِ، وَانْتَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ بِمَوَاقِفِهِ الْمَشْهُودَةِ؛ خُصُوصًا أَنَّهُ كَانَ وَلَا

يزال وَسَيَبْقَى العلامة الفاصلةَ بَيْنَ الفَتَيْنِ: الباغية والمهتدية. والعجيبُ في الحديث المذكور هو ذلك التَّحَوُّلُ السَّريعُ في سلوك وديعة مع عمار بن ياسر رضي الله عنهما، فَإِنَّ الرَّجُلَ بعد أن كان يحترق عَمَّارًا ويقول له بكلّ وضوح إِنَّمَا أنت عبد أبي حذيفة، إِذَا به فجأةً يَكْتَنِيهِ ويقول: يَا أَبَا اليَقْظَانِ وينشده الله تعالى!!

هذه إِذَا شهادة من عَمَّار بن ياسر على اثني عشر رجلاً من الصَّحابة أَتَمَّهم حرب لله ورسوله في الحياة الدُّنيا ويوم يقوم الأَشْهاد. ولم يُذكر هؤلاء الأربعة عشر رجلاً بِأَسْمَائِهِمْ في تراجم الرِّجال، وهذا معناه أَنَّ الشُّبهة تبقى قائمة: لدينا اثنا عشر رجلاً من الصَّحابة حرب لله ورسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأَشْهاد. وقوله "ويوم يقوم الأَشْهاد" يعني أَتَمَّهم من أَصحاب الخاتمة السَّيِّئة. وهذا وحده قَادِحٌ في ما يقال عن عدالة جميع الصَّحابة، فَإِنَّ الاثني عشر رجلاً المذكورين جزء من هذا الجميع، وهم حرب له ورسوله، والعدالة تتنافى مع محاربة الله ورسوله، والسَّالبة الجزئية تنقض الموجبة الكلِّية، فلا يبقى لعدالة جميع الصَّحابة معنى عند أولي الألباب.

قال ابن أبي الحديد: "ذكر شيخنا أبو جعفر الإسكافي رحمه الله تعالى - وكان من المتحقِّقين بموالاته عليٍّ عليه السلام، والمبالغين في تفضيله، وإن كان القول بالتَّفضيل عامًّا شائعاً في البغداديين من أَصحابنا كافة، إِلَّا أَنَّ أَبَا جَعْفَرٍ أَشَدَّهُمْ في ذلك قولاً، وأخلصهم فيه اعتقاداً - أَنَّ معاوية وضع قوماً من الصَّحابة وقوماً من التَّابعين على رواية أخبار قبيحة في عليٍّ عليه السلام، تقتضي الطَّعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله، فاختلقوا ما أَرْضاه، منهم أَبُوهُرَيْرَةَ وعَمْرُو بن العاص والمغيرة بن شعبة، ومن التَّابعين

عروة بن الزبير^(١). وهذا معناه أنَّ تيقن الجماعة أنَّ علياً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله لم يردعهم عن اختلاق الأحاديث للقدح فيه إرضاء لحاكم من بني أمية^(٢)، وبما أنَّ من كذب على النبي ﷺ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، وهؤلاء المذكورون يكذبون عليه متعمدين إرضاء لحاكم من بني أمية، فإنه لا يسعنا إلا أن نشكك في سيرتهم وخاتمهم.

إذا علم هذا وأمثاله، فلا شك أن يتعرض تفسير القرآن الكريم للتلاعب حينما يكون على رأس الدولة الإسلامية متلاعبون بالدين مجاهرون بذلك يقربون المنحرفين ويستخفون بالمؤمنين. ولاريب أن يستغل المغرضون وأصحاب الغايات الفرص السانحة لتحصيل مآربهم على حساب الدين. قال ابن أبي الحديد: "قال أبو جعفر: وقد روي أن معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم حتى يروي أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْجِبُكُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ. وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾، وأن الآية الثانية نزلت في ابن ملجم، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾، فلم يقبل، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل، فبذل له ثلاثمائة ألف فلم يقبل، فبذل له أربعمائة ألف فقبل

١ - شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج ٤ ص ٦٣.

٢ - ومع ذلك لم يُذكر هؤلاء في الرِّسَالَةِ، لأنَّ منهم من رأى رسول الله ومنهم من جدّه أبو بكر!

وروى ذلك ^(١).

ولأن الاعتقاد بعدالة جميع الصحابة له تأثيره في الفهم والتأويل، فإنه - بلا ريب - يؤثر على الكاتب والقارئ جميعاً، خصوصاً حينما يكون الكاتب مفسراً للقرآن الكريم، يبين للناس ماذا أراد الله بقوله كذا في سورة كذا. لكن ذلك الاعتقاد يصطدم بآيات قرآنية كثيرة، ولا يصح الجمع بين النظريتين، نظرية عدالة جميع الصحابة والحكم بنجاتهم جميعاً، ونظرية كونهم من المسلمين لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، وإن حظوا دون غيرهم برؤية رسول الله ﷺ والقرب منه وسماع صوته والحديث معه. ومما يصطدم به الاعتقاد بعدالة جميع الصحابة، ما أجمع عليه المفسرون من أن قوله تعالى في سورة الحجرات ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا...﴾ آية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، فيكون الصحابيُّ الأمويُّ الوليد بن عقبة بن أبي معيط فاسقاً بدليل الآية، والقرآن الكريم أخبر في سورة التوبة أن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾. فكيف يخبر المولى سبحانه وتعالى عباده أنه لا يرضى عن القوم الفاسقين ثم يشير إلى أحدهم ويصفه بالفسق، ثم يطالب المصدقين بكتابه الكريم أن يعتقدوا بعدالة الفاسق ويطرؤوا عنه ويعتقدوا بنجاته من العقاب وخلوده في النعيم؟!!

١ - شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج ٤ ص ٧٣.

الفصل الأول

- القلب والقلوب في القرآن الكريم
- كلام في المرض

ال (قَلْب) وال (قُلُوب) في القرآن الكريم

ال (قَلْب) وال (قُلُوب) جاءت في القرآن على النحو التالي:

(قُلُوبِهِمْ): ٦٥ مرة و (قُلُوبِكُمْ): ١٤ مرة و (قُلُوبِنَا): ٦ مرّات و (قَلْبِكَ):
(٢) مرّتين و (قَلْبِهِ) ٥ مرّات و (قَلْبِي): مرة واحدة و (قُلُوب): ١٥ مرة
و (الْقَلْب): مرة واحدة و (الْقُلُوب): ٦ مرّات و (قَلِيلين): مرة واحدة و (بِقَلْب) (٢)
مرّتين و (قَلْبِهَا) مرة واحدة و (قُلُوبُكُمَا) مرة واحدة.

وكلمة قُلُوب وردت (بصيغة الجمع) مُعَرَّفَةً، وَمُتَوَنِّةً (نَكِرَةً)، ومُضَافَةً؛
وفي كلّ ذلك كانت محلاًّ لأُمُورٍ معنويّةٍ بعضُها في غايةِ الحُسْنِ وبعضُها الآخرُ
في غايةِ السُّوءِ. وَبِتَتَبُعِ السِّيَاقِ يَتَبَيَّنُ أَنَّهَا تَكَادُ تَتَّفَقُ عَلَى الإِشَارَةِ إِلَى النِّيَّاتِ
الباعثة على العملِ أياً كان نوعُهُ. والآيات كما يلي:

- حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ [البقرة ٧].

- فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ
[البقرة ١٠].

- وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا
فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [البقرة ٦٣].

- وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا
قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ
إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [البقرة ٩٣].

- وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ [البقرة ١١٨].

- هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ [آل عمران ٧].

- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّبُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [آل عمران ١٥٦].

- وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَاقَضُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَا هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ [آل عمران ١٦٧].

- أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا [النساء ٦٧].

- فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [المائدة ١٣].

- يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ

آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُخَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ [المائدة ٤١].

- فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ [المائدة ٥٢].

- وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ [الأنعام ٢٥].

- فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. [الأنعام ٤٣].

- أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ [الأعراف ١٠٠].

- إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. [الأنفال ٢].

- إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاءٌ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [الأنفال ٤٩].

- وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [الأنفال ٦٣].

- كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ [التوبة ٨].

- وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [التوبة ١٥].

- إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ. [التوبة ٤٥].

- إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [التوبة ٦٠].

- يَخَذِرُ الْمُنَافِقُونَ أَنَّ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوْا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ [التوبة ٦٤].

- فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ [التوبة ٧٧].

- رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ [التوبة ٨٧].

- لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [التوبة ١١٠].

- وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ [التوبة ١٢٥].

- وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ [التوبة ١٢٧].

- وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس ٨٨].

- الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ [الرعد ٢٨].

- إِيَّاكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ [النحل ٢٢].

- أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ [النحل ١٠٨].

- وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَخَدَّهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا [الإسراء ٤٦].

- وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِنَّهَا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا [الكهف ١٤].

- وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا

عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةٌ أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا [الكهف ٥٧].

- لَاهِيَةً قُلُوبِهِمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ. [الأنبياء ٣].

- الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ [الحج ٣٥].

- لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ. [الحج ٥٣].

- وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [الحج ٥٤].

- بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ. [المؤمنون ٦٣].

- أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ اذْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. [النور ٥٠].

- وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا [الأحزاب ١٢].

- وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا [الأحزاب ٢٦].

- لِّئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ

بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا [الأحزاب ٦٠].

- وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ [سبا ٢٣].

- أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ [الزمر ٢٢].

- وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ [محمد ١٦].

- وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ هُم [محمد ٢٠].

- أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ [محمد ٢٩].
- سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا. [الفتح ١١].

- لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا [الفتح ١٨].

- إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ

رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا [الفتح ٢٦].

- إِنَّ الَّذِينَ يَعْصُونَ أَوْصَاةَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ [الحجرات ٣].

- أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ [الحديد ١٦].

- لَا تَحْجِدْ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [المجادلة ٢٢].

- هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّغْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ [الحشر ٢].

- وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَتُذَوْنَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [الصف ٥].

- ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ [المنافقون ٣].

- وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَزْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ [المدثر ٣١].

- كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [المطففين ١٤].
- ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِن مِّنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِن مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِن مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ [البقرة ٧٤].
- لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ [البقرة ٢٢٥].

- وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [آل عمران ١٠٣].

- وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ [آل عمران ١٢٦].

- ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ

أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [آل عمران ١٥].

- قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ [الأنعام ٤٦].
- وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. [الأنفال ١٠].

- إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ. [الأنفال ١١].

- يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [الأنفال ٧٠].
- ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [الأحزاب ٥].

- تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ

يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا [الأحزاب ٥١].
 - بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنَ السَّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا. [الفتح ١٢].
 - وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ. [الحجرات ٧].
 - قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. [الحجرات ١٤].
 - وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ [البقرة ٨٨].
 - رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ. [آل عمران ٨].
 - فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا [النساء ١٥٥].
 - قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ [المائدة ١١٣].
 - وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ [فصلت ٥].

- وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ. [الحشر ١٠].

- الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ [الرعد ٢٨].

- ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ [الحج ٣٢].
- أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ. [الحج ٤٦].
- رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ. [النور ٣٧].

- إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا [الأحزاب ١٠].

- وَأَنْذَرُهم يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ [غافر ١٨].

- إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ [التحریم ٤].

ووردت على صيغة المفرد:

- فِيمَا رَحِمَهُ مَنَّ اللَّهُ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ

فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ [آل عمران ١٥٩].

- الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ [غافر ٣٥].

- إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ [ق ٣٧].

تِلْكَ كَانَتِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةُ الَّتِي تَحَدَّثُ عَنِ الْقُلُوبِ فِي أَحْوَالٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَاخْتَلَفَ السِّيَاقُ بِاخْتِلَافِ الْمَوَاضِعِ وَالْمُنَاسَبَاتِ. وَيُمْكِنُ لِأَوَّلِ وَهَلَةِ مِلَاحَظَةٍ كَوْنُهَا جَمِيعاً تَتَحَدَّثُ عَنِ الْأَمْرَاضِ الْمَعْنَوِيَّةِ، بَلْ يَصْعَبُ إِثْبَاتُ أَنَّ وَاحِدَةً مِنْهَا تَعَرَّضَ لِمَرَضٍ عُضْوِيٍّ مِنْ أَمْرَاضِ الْقَلْبِ الْمَعْرُوفَةِ فِي مَجَالِ الطَّبِّ؛ وَالَّذِي اسْتَعْمَلَ مِنْهَا عَلَى طَرِيقِ التَّمْثِيلِ، جَاءَ بِأَسْلُوبٍ مَعْهُودٍ لَدَى الْعَرَبِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾، فَإِنَّهَا تَعَبَّرُ عَنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ وَالْهَلَعِ. قَالَ الرَّاعِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ: "يَعَبَّرُ بِالْقَلْبِ عَنِ الْمَعَانِي الَّتِي تَخْتَصُّ بِهِ مِنَ الرُّوحِ وَالْعِلْمِ وَالشَّجَاعَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ أَيُّ الْأَرْوَاحِ. وَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أَيُّ عِلْمٍ وَفَهْمٍ"^(١).

١ - مفردات غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص ٤١١.

يمكننا من خلال تتبع الآيات وسياقاتها سردُ الأمور المعنوية التي تضمنتها سلبيةً كانت أو إيجابيةً، وتكون القلوبُ كالتالي:

ذات المعاني الإيجابية: قلوبٌ مؤلَّفٌ بينها - قلوبٌ مؤمنةٌ فيها غيظٌ على الكفار - قلوبٌ مُحِبَّةٌ - قلوبٌ امتحنها الله للتقوى - قلوبٌ يعترِها الوجَلُ لِذكر الله تعالى - قلوبٌ ربطَ الله عليها - قلوبٌ كَتَبَ الله فيها الإيمان - قلوبٌ مطمئنةٌ بِذكر الله تعالى - قلوبٌ تقيَّةٌ تُعظِّمُ شعائر الله - قلوبٌ زينَ الله فيها الإيمان - قلوبٌ محصَّ الله ما فيها - قلوبٌ متألَّفةٌ .

ذات المعاني السلبية: قلوبٌ مختومٌ عليها - قلوبٌ فيها مرض - قلوبٌ تشابهت (في الضلال) - قلوبٌ فيها زيغٌ - قلوبٌ أُشربت العجل - قلوبٌ فيها حسرةٌ - قلوبٌ خاليةٌ ممَّا تقوله ألسنةُ أصحابها - قلوبٌ يعلم الله ما فيها من السوء - قلوبٌ قاسيةٌ - قلوبٌ لم تؤمن - قلوبٌ عليها أكنةٌ - قلوبٌ لم يُرد الله أن يطهرها - قلوبٌ مطبوعٌ عليها - قلوبٌ تأبى إرضاء المؤمنين - قلوبٌ ارتابت - قلوبٌ لاهيةٌ - قلوبٌ قذفَ الله فيها الرعبَ - قلوبٌ فيها الحمية حمية الجاهلية - قلوبٌ لم تخشع - قلوبٌ في غمرة - قلوبٌ أزاغها الله لما زاغ أهلها - قلوبٌ غلفٌ - قلوبٌ فيها غلٌ - قلوبٌ في أكنةٍ - قلوبٌ أصابها العمى - قلوبٌ لا يعقل بها أهلها - قلوبٌ لما يدخل الإيمان فيها - قلوبٌ متكبرةٌ - قلوبٌ صغتُ .

وهكذا يكون عددُ مواردِ القلوبِ ذاتِ الصفاتِ السلبيةِ: ٢٩، ومواردِ القلوبِ ذاتِ الصفاتِ الإيجابيةِ: ١٢ على فرضِ أن القلوبَ التي محصَّ الله ما فيها والقلوبَ المتألَّفة من القسم الإيجابي.

وأما عبارة "أفئدة" التي تعني القلوب أيضاً فقد وردت كما يلي:
- وَلِتَصْغِيَ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَوْهُ وَليَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُّقْتَرِفُونَ [الأنعام ١١٣].

- رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ [إبراهيم ٣٧].

- وَفُتِلَبَ أَفْئِدَتُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [الأنعام ١١٠].

- وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيهَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [الأحقاف ٢٦].

- نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ . الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ . [الهزرة ٦، ٧].

تلكم هي القلوب التي كانت تُحيطُ برسول الله ﷺ ! فيها من كل الأصناف، ومن بينها صنفُ اسمه "القلوبُ المريضة" وأصحابها (في قلوبهم مرض). هؤلاء موجودون حول رسول الله منذ بداية الدعوة، منذ نزول سورة المدثر، ويُخبر عنهم القرآن الكريم عند الرجوع من غزوة تبوك، أي في أواخر حياة النبي ﷺ، أن المرض لا يزال في قلوبهم، ولا يكون هذا إلا لأحد سببين: إما لأنهم لم يحاولوا العلاج، وإما لأنه لا ينفع معهم علاج. وأما الذين يدينون

بعدالة جميع الصحابة فيظهر من كلامهم أن كل تلك القلوب قد استقام أصحابها قبل خروجهم من الدنيا، وغمرهم الطهر والإخلاص، ولا يعدو مآلهم الخلود في التعميم؛ هذا مع أن القرآن الكريم يهتف ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾، أي ماتوا على الكفر. ومصير مَنْ يَمُوت على الكفر معلوم!

كيف لنا أن نُشَخِّصَ أصحاب القلوب المريضة ونُمَيِّزَهُم من غيرهم إذا لم نَنقُبْ في ما وقع أيام الرسول ﷺ وبعد وفاته؟ ثم أيعقل أن يكون مثل هؤلاء موجودين حول رسول الله ﷺ ولا يحذَرُ منهم ولا يشير إليهم بأعمالهم على الأقل؟ وكيف يُجمل ذلك مع ما فيه من الخطر على الإسلام والمسلمين، وهو الذي وصفه القرآن الكريم بقوله ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾؟! أليكون حريصاً عليهم رؤوفاً بهم ثم لا يُحذَرُهم من أعداء الداخل ولو بالإشارة؟

لا بد أن أحاديث النبي ﷺ تحتوي على شيء من ذلك، وربما كان فيه ما يُفسِّرُ النّهْيَ عن كِتَابَةِ ورواية الحديث الشريف، فإن أحاديث بلغتنا رغم الرقابة المُشدِّدة تُشيرُ إلى أقوامٍ بأسمائهم وأسماء آبائهم، وأحاديث أخرى بلغتنا تشيرُ إلى أقوامٍ من خلال أعمالهم. وقد حدثت أحداثٌ ووقائعٌ تاريخيةٌ أدن الله تعالى أن تقع رغم ما فيها من الجرأة عليه سبحانه وتعالى والظلم والتجاوز والاستخفاف بحقوق العباد، وكان النبي ﷺ في حياته قد أشار إلى وقوعها بعده، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، ومن أبصر فلنفسه، ومن

عميَ فعلِها. لكنّ بعض المفسّرين - بل أكثرهم - يَسْطُون المسألة ويقدمون الذين في قُلُوبِهِمْ مرضٌ تقدّياً ساذجاً، هو إلى التّلقين أقرب منه إلى البحث العلمي والاستدلال المتين؛ ومن ذلك ما أورده صاحب أضواء البيان في تفسير القرآن حيث يقول: "واعلم أنّ مرض القلب في القرآن يطلق على نوعين أحدهما: مرض بالنّفاق والشكّ والكفر، ومنه قوله تعالى في المنافقين ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ وقوله هنا ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي كفر وشك. والثاني منها إطلاق مرض القلب على ميله للفاحشة والزّنى، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي ميل إلى الزّنى ونحوه، والعرب تسمي انطواء القلب على الأمور الخبيثة مرضاً، وذلك معروف في لغتهم ومنه قول الأعشى: حافظٌ للفرجِ راضٍ بالتّقى لَيْسَ مِمَّنْ قَلْبُهُ فِيهِ مَرَضٌ^(١).

وحينّ نلتفتُ صوب الأيام الأولى التي تلت وفاة النبي ﷺ، تُصادفُ أحداثاً غير متوّقعٍ صُدورها من طَرَفِ أناسٍ آمنوا بالله ورسوله، اللهمّ إلا أن يكونَ ذلك شيئاً افترّيَ عليهم، وهو ما يتعذّرُ إثباته، لأنّ تلك الأحداث موثّقةٌ من طَرَفِ المؤرّخين وإن اختلفوا في العبارة. فهؤلاء الذين بايعوا رسولَ الله على أن يحمّوه وأهل بيته ممّا يحمّون منه أنفسهم وأهليهم إذا بهم يهجمون على بيتِ كان أحبّ البيوت إليه، والمسلمون أتباعُ النبي ﷺ الذين أدّى قسمٌ كبيرٌ منهم

١ - أضواء البيان في تفسير القرآن - الشنقيطي، ج ٥ ص ٥٣٤.

تلك البيعةَ يتفرّجون ولا يفعلون شيئاً، كأنّ الأمر لا يعينهم! هؤلاء المسلمون يروون حديث "ومن أصبح لا يهتمّ بالمسلمين فليس منهم" ^(١)، وكم صرخت فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وكم نادى عليّ أخوه، ولكن ما من مجيب. ثرى كلّفت الأجيالُ ووضَعَ عنهم؟ هل كانت الجماعةُ التي هجمت على بيت فاطمة عليها السلام تُقدِّم على شيءٍ من ذلك في حياة النبي ﷺ ^(٢)؟ والذي تولى كبره منهم يقول: "من كان يعبدُ محمداً فإنَّ محمداً قد مات، ومن كان يعبدُ الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت"، فما باله يتصرّف مع آل رسول الله بعد وفاته بغير ما كان يفعلُه في حياته ﷺ؟ أليس هو الذي سأل وهو يُشيرُ إلى بيت فاطمة عليها السلام رسول الله ﷺ حينَ نزولِ قوله تعالى ﴿فِي يَبُوتِ أذنَ الله أن تُرفعَ... الآية﴾: يا رسول الله وهذا البيتُ منها؟ فأجابَه ﷺ: نعم، ومن أفاضلِها!! فبأيِّ حقٍّ استحلَّ الهجومَ عليه؟ أيكونُ أعلمُ بكتابِ الله ممَّن أذهب

١ - الحديث في المستدرك على الصحيحين، ج ٤ ص ٣٥٢، وحلية الأولياء، ج ٣ ص ٤٨، والتفسير الكبير للرازي ج ٢٢ ص ٩١، والدر المنثور للسيوطي، ج ٤ ص ١٩٢، وج ٤ ص ٣٥٦، والمعجم الأوسط للطبراني، ج ١ ص ١٥١، وج ٧ ص ٢٧٠، والمعجم الصغير (الروض الداني) ج ٢ ص ١٣١، وجمع الزوائد، ج ١ ص ٨٧، وج ١٠ ص ٢٤٨، وفيض القدير، ج ٦ ص ٦٧، والتيسير بشرح الجامع الصغير، ج ٢ ص ٣٩٩، وتكملة الإكمال، ج ١ ص ٤٩٥، والكشف الحثيث، ج ١ ص ٦٣ وتاريخ مدينة دمشق، ج ٢١ ص ٢٠٧، وأسنن الطالب، ج ١ ص ٢٨٨، والمقاصد الحسنة، ج ١ ص ٦٧٠، وكشف الخفاء، ج ٢ ص ٢٩٧، وشُعَب الإيمان، ج ٧ ص ٣٦١، والترغيب والترهيب، ج ٢ ص ٣٤٢ وج ٢ ص ٣٦٢، وجامع العلوم والحكم، ج ١ ص ٧٧.

٢ بغض النظر عن السبب الباعث على ذلك الهجوم نفسه، فإنه كان لأجل خلافة النبي صلى الله عليه وآله في منصب القيادة ولا يُتصوّر هذا في حياته، إذ لا يجتمع الخليفة الفعلي والمخلف، وإنّا المقصود الهجوم نفسه أيّاً كان السبب.

اللهُ عنهم الرّجسَ وطهّرهم تطهيراً؟ وحتّى لو فرضنا أبعدَ ما يُفترضُ في القضية فإنّ معالجتها بتلك الطريقة العنيفة المخالفة لقوله تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ تُسقطُ كلّ الاعتبارات، وتضعُ أصحاب الهجوم أمراً ومنقذاً موضعَ تهمةٍ يصعبُ دفعها بنزاهة وموضوعية وفق ما تقتضيه المعايير القرآنية التي لا تعرف المحاباة.

قال الراغب الأصفهاني في مادة (مرض):

"مرض: المرضُ الخُرُوجُ عن الاعتدالِ الخاصِّ بالإنسانِ وذلك ضربانِ الأول مرضٌ جسميٌّ، وهو المذكورُ في قوله ﴿ولا على المريض حرجٌ﴾، ﴿ولا على المرضي﴾ والثاني عبارة عن الرذائلِ كالجهلِ والجبنِ والبخلِ والتفاق وغيرها من الرذائلِ الخلقيةِ نحو قوله: ﴿في قلوبهم مرضٌ فزادهم اللهُ مرضاً - أفي قلوبهم مرضٌ أم ارتابوا - فأما الذين قلوبهم مرضٌ فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ وذلك نحو قوله ﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾. ويُشبه التفاق والكفر ونحوهما من الرذائلِ بالمرضِ إمّا لكونها مانعةً عن إدراكِ الفضائلِ كالمرضِ المانعِ للبدنِ عن التصرفِ الكاملِ، وإمّا لكونها مانعةً عن تحصيلِ الحياةِ الأخرويةِ المذكورةِ في قوله ﴿وإن الدار الآخرةَ لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾، وإمّا لميلِ النفسِ بها إلى الاعتقاداتِ الرديئةِ ميلَ البدنِ المريضِ إلى الأشياءِ المضرةِ. ولكونِ هذه الأشياءِ متصورةً بصورةِ المرضِ قيلَ ذوي صدرِ فلانٍ ونغلِ قلبه. وقال عليه الصلاة والسلام: "وأَيُّ داءٍ أدوأ من البخلِ" ؟، ويقال شمسٌ مريضةٌ إذا لم تكن مضيئةً لعارضٍ عرض لها، وأمراضُ فلانٍ في قوله إذا عرض، والتمريضُ القيامُ على المريضِ وتحقيقه إزالةَ المرضِ عن المريضِ كاللّقْذِيَّةِ في إزالةِ القَذَى عن العينِ"^(١).

وقال الرازي في تفسيره: "وأقول: الأمراضُ منها روحانيّةٌ، ومنها جسمانيّةٌ،

والدليل عليه أنه تعالى سَمَى الكُفْرَ مرضاً فقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾^(١)! وقد استوفى السيد مصطفى الحُميني - رحمه الله - البحث في مناقشة العبارة في كتابه تفسير القرآن حيث يقول: " المسألة الأولى حَوْلَ كلمة "مرض": المَرَضُ - محرَّكةٌ - إِظْلَامُ الطَّبيعَةِ واضطرابُها بعدَ صفائِها واعتدالِها، كما في (الْعُباب)، وهو قولُ ابنِ الأَعرابيِّ. وعن ابنِ دَرِيدٍ: المَرَضُ السَّقَمُ، وهو نَقِيضُ الصَّحَّةِ، يَكُونُ لِلإِنسَانِ والبَعرِ، وهو اسمٌ لِلجنسِ. وقالَ سيبويه: المَرَضُ مِنَ المَصادِرِ المَجعُولَةِ كالتَّشغِلِ والعَقْلِ. وقيلَ: المَرَضُ - بالفتحِ - لِلقلبِ خاصَّةً. وعنِ الأَصمعيِّ إِسحاقُ أَنَّهُ قالَ: قرأتُ على أبي عمرو بنِ العَلاءِ: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، فقالَ لي: مَرَضٌ يا غُلامُ. وقالَ أبو إِسحاقَ: المَرَضُ والسَّقَمُ في البَدَنِ والدَّيْنِ جَمِيعاً، كما يَقَالُ: الصَّحَّةُ في الدَّيْنِ والبَدَنِ جَمِيعاً. وفي القاموس: وبالتَّحريكِ أَوْ كِلَاهُمَا الشَّكُّ والنِّفاقُ وضعفُ اليَقينِ. وقالَ ابنُ الأَعرابيِّ: أَصلُ المَرَضِ النِّقْصُ يَقَالُ بَدَنٌ مَرِيضٌ، أَيُّ ناقِصُ القوَّةِ، وقلبٌ مَرِيضٌ، أَيُّ ناقِصُ الدَّيْنِ. وفي "الأَقرب" المَرَضُ فسادُ المِزاجِ، وقالَ ابنُ فارِسٍ: المَرَضُ كُلُّ ما خَرَجَ بِالإِنسانِ عَن حَدِّ الصَّحَّةِ، مِنْ عِلَّةٍ وَنِفاقٍ وَشَكٍّ وَفُتُورٍ وَظُلْمَةٍ وَنُقْصانٍ وَتَقْصيرٍ في أَمْرٍ، جَمْعُهُ: أَمراضٌ. انتهى ما في كُتُبِ اللِّغَةِ. والذي هُوَ المُهِمُّ في النِّظَرِ، أَنَّ هَذِهِ المادَّةَ مَخْصُوصَةٌ بِالأَعراضِ الظَّاهِرِيَّةِ والجَسَمِيَّةِ، فيكونُ

استعمالها في الانحرافات الروحية من المجاز والتوسع، بعد وضوح بطلان عكسه، ولا يحتمله أحد، أم يُعْم جميع الانحرافات والأسقام. ومن التدبّر في موارد استعمالها في الكتاب لا يظهر شيء، لأنها في جميعها مصحوبة بالقربة، وهي قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وأمثاله. ومن المحتمل كون الانحرافات الروحية مستلزمة لبعض التحرفات القلبية الجسميّة، فيكون في قلوبهم الصنوبريّة مرض ظاهر من الأخلاط والأثقال بحسب الواقع ونفس الأمر. وإن أُريد من هذا دعوى انحرافاتهم الروحية فلا يلزم مجاز في المفرد. والإنصاف أن في عرفنا هذا يكثر استعماله في مطلق الأسقام والآلام المعنوية والجسميّة، إلا أن عند السؤال عن مفهوم هذه المادة بلا اقترانها بالقرائن الخاصّة، يتبادر الجواب إلى أنه الانحراف الجسماني. ويحتاج إثبات الأعميّة إلى مؤونة غير معلومة جدّاً، وقد اضطربت كلمات اللغويين في هذه المسألة كما عرفت، ومع ذلك يكون الأقرب إلى عبائيرهم الاختصاص، وهو المساعد للاعتبار، لأن في بدو حدوث اللغات، لم يكن توجه من أهل الاستعمال إلى هذه التوسعة، ثم بعد ذلك يُستعمل للمناسبات والأغراض. وهذا أصل أصيل في فهم الحقائق من المجاز^(١).

وعقد ابن القيم في شفاء العليل فصلاً في ذلك فقال: "وأما المرض فقال تعالى ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً﴾ وقال ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ وقال ﴿وَلَا يَرْتَابُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ

١ - تفسير القرآن - السيد مصطفى الخميني ج ٣ ص ٣٣٥ - ٣٣٧.

الذين في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ والكافرونَ ماذا أَرَادَ اللهُ بهذا مثلاً؟. ومرض القلب خروج عن صحته واعتداله فإنَّ صحته أن يكون عارفاً بالحق، محباً له، مؤثراً له على غيره. فمرضه إمّا بالشك فيه، وإمّا بإيثار غيره عليه. فمرض المنافقين مرضُ شكٍّ وريب. ومرض العصاة مرضُ غيٍّ وشهوة. وقد سَمَّى اللهُ سبحانه كلاًّ منهما مَرَضاً. قال ابن الأنباري أصل المرض في اللغة الفساد. مرض فلان فسد جسمه وتغيّرت حاله. ومرضت بالمرض تغيّرت وفسدت. قالت ليلي الأخيلية:

إذا هبط الحجاج أرضاً مريضةً تتبّع أقصى دائها فشفاها

وقال آخر:

ألم تر أن الأرض أضحت مريضةً لفقد حُسْنِ والبلاد اقشعرت

قال: والمرض يدور على أربعة أشياء فساد وضعف ونقصان وظلمة، ومنه مرض الرجل في الأمر إذا ضعف فيه ولم يبالغ. وعين مريضة النظر أي فاترة ضعيفة. وريح مريضة إذا هبّ هبوبها كما قال:

راحت لأربعلك الرياح مريضةً

أي ليّنة ضعيفة حتى لا يعفى أثرها.

وقال ابن الأعرابي: أصل المرض النقصان، ومنه بدن مريض أي ناقص القوة، وقلب مريض ناقص الدين، ومرض في حاجتي إذا نقصت حركته. وقال الأزهري عن المنذري عن بعض أصحابه: المرض إظلام الطبيعة واضطرابها بعد صفائها. قال: والمرض الظلمة. وأنشد:

وليلة مرضت من كل ناحية فما يضيء لها شمس ولا قمر

هذا أصله في اللّغة. ثمّ الشكّ والجهل والحيرة والضلال وإرادة الغي وشهوة الفجور في القلب تعود إلى هذه الأمور الأربعة، فيتعاطى العبد أسباب المرض حتى يمرض فيعاقبه الله بزيادة المرض لإيثاره أسبابه وتعاطيه لها^(١).

وقال في شفاء العليل أيضاً: "وقد ذكر سبحانه أنواع القلوب في قوله ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد. وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربهم فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم﴾. فذكر القلب المريض، وهو الضعيف المنحل الذي لا تثبت فيه صورة الحق، والقلب القاسي اليابس الذي لا يقبلها ولا تنطبع فيه، فهذان القلبان شقيان معدّبان. ثمّ ذكر القلب المخبت المطمئنّ إليه وهو الذي يتنفع بالقرآن ويزكّو به"^(٢).

مرضى القلوب في سورة المدثر

ذهب الطبراني في كتاب الأوائل^(٣) إلى أنّ سورة المدثر أول ما نزل من القرآن، قال (في فصل أول ما نزل من القرآن): "حدثنا حفص بن عمر بن الصّباح حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا حرب بن شدّاد عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة قال سألت جابر بن عبد الله أي القرآن أنزل أول؟ فقال يا أيها المدثر.

١ - شفاء العليل، ابن القيم، ج ١ ص ٩٨.

٢ - شفاء العليل، ابن القيم، ج ١ ص ١٠٦.

٣ - الأوائل للطبراني، دأموسسة الرسالة/ دار الفرقان - بيروت - ١٤٠٣، الطبعة: الأولى.

رجاله رجال الصّحيح خلا شيخ الطّبرانيّ، قال الحاكم: حدّث بغير حديث لم يتابع عليه ووثّقه ابن حبان^(١).

والذي لا اختلاف فيه أنّ السّورة مكّيّة^(٢)، وأنها من أوائل السّور نزولاً؛ لكنّ حيرت المفسّرين والمتخصّصين في علوم القرآن آية منها هي قوله تعالى ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون... الآية﴾، فإنّ التّخبط الذي وقع منهم فيها لم يقع في غيرها، لأنّ تفسيرها على نفس المنوال كما في تفسير باقي الآيات يفتح باباً خطيراً يمكن أن ينسف قضية عدالة الصّحابة من أساسها. لذلك تراهم يقولون الشّيء ونقيضه، ويلتمسون الدواء من هنا وهناك، بل إنهم ليذهبون أحياناً إلى استدالاتٍ نحويّة ولغويّة شاذّة يأبأها الدّوق السّليم، ويتشبّهون بأمور يُشكّ في قبولهم إيّاها فيما عدا الباب، ولعلّهم فعلوا ذلك إذ لم يجدوا شيئاً غيره يناسب مبانيهم ويؤكّد ما يذهبون إليه، لتبقى الأمور كما أرادوا لها أن تبقى عليه.

لكنّها غاب عن أولئك المفسّرين أنّ الله تعالى بيّن صفات وأعمال الذين في قلوبهم مرض، كما بيّن صفات وأعمال المؤمنين وأهل الكتاب والكفار. وكأنّها

١ - لم يشهد جابر بن عبد الله الأنصاري ولا غيره من الأنصار نزول سورة المدثر، فإمّا أن يكون سأل رسول الله عنه وإمّا أن يكون سأل غيره من الصحابة ممن له علم بزمان نزول السّورة.

٢ - قال ابن عاشور في التحرير والتنوير (ج ٢٩، ص ٢٧١) وهي مكية حكى الاتفاق على ذلك ابن عطية والقرطبي ولم يذكرها [السبوطي] في الإتيان في السور التي بعضها مدني. وذكر الألوسي أن صاحب التحرير (محمد بن النقيب المقدسي المتوفى سنة ٦٩٨هـ في تفسيره) ذكر قول مقاتل أو قوله تعالى (ما جعلنا عدتهم إلا فتنة) الخ نزل بالمدينة اهـ. ولم نقف على سند في ذلك ولا رأينا ذلك لغيره.

غاب عنهم أيضاً أنّ الذين في قلوبهم مرض ماتوا على الكفر - كلّهم أو جلّهم - كما هو صريح في آخر سورة التوبة، وهي على الأرجح آخر السور نزولاً^(١)، فهل يصح الاستغناء عن تلك البيانات القرآنية والركون إلى ما وقع فيه التخبّط والاضطراب؟! أم هل يصحّ قبول ما مالت إليه نفوس المفسّرين لكونه يناسب مبانيهم وأصول مذاهبهم، والحال أنّ كلاً يدّعي وصلاً بليلي؟ لقد بلغ التعصّب بأحدهم أنّه قال: " كلّ ما ليس عليه أصحابنا من آية أو حديث فهو إمّا منسوخ أو مؤوّل " ^(٢)؛ ومثل هذا القول يدلّ على استسلام صاحبه استسلاماً تامّاً للمذهب الذي عليه أصحابه، حيث لم يعد لديه استعداد لإعادة النّظر في بعض ما ورث، وهو بهذا الموقف يسدّ على نفسه باب البحث، فأبى فائدة في قول من ليس لديه استعداد للبحث إلّا في إطار ما ورث؟! و

حتّى لا أطيل على القارئ، وتمهيداً للدّخول في البحث من أسهل الطرق، هذه نماذج من تفسير العبارة لدى مفسّري الجمهور منقولة من دون تعليق،

١ - في قوله تعالى: وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون (التوبة ١٢٥).

٢ - أزمة الفكر السياسي في الإسلام ، د. عبد الحميد متولي: ص ٣٦ ، وفقه السنة ، سيد سابق: ج ١ ، ص ١٠٠. وعبارة سيد سابق في فقه السنة كما يلي: وقد بلغ الغلو في الثقة بهؤلاء الأئمة حتى قال الكرخي وهو حنفي: كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤوّل أو منسوخ. (اهـ) وقال الأمدى في الإحكام ج ٦ ، ص ٢٦٠ قال ابن حزم: قال بعض من قوي جهله وضعف عقله ورقّ دينه: إذا اختلف العالمان وتعلّق أحدهما بحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أو آية، وأتى الآخر بقول يخالف ذلك الحديث وتلك الآية، فواجب اتّباع من خالف الحديث، لأننا مأمورون بتوقيفهم (اهـ).

سوى ما تقتضيه الضرورة، حتى يتسنى للمطلع أن يرى رأيه، ويحكم بما يميله عليه ضميره.

قال ابن جرير الطبري في جامع البيان:

" وقوله: ﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: وليقول الذين في قلوبهم مرض النفاق، والكافرون بالله من مشركي قريش ماذا أراد الله بهذا مثلاً، كما [...] حدثنا بشر، قال: حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعيد، عن قتادة وليقول الذين في قلوبهم مرض: أي نفاق ^(١).

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

" والمؤمنون أي ولا يشك هؤلاء في عدد الحزنة ﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وفيه ثلاثة أقوال أحدها أنه النفاق ذكره الأكثرون. والثاني أنه الشك، قاله مقاتل، وزعم أنهم يهود أهل المدينة، وعنده أن هذه الآية مدنية. [وللألوسي بخصوص ذلك كلام^(٢)]. والثالث أنه الخلاف قاله الحسين بن الفضل، وقال لم يكن بمكة نفاق، وهذه مكية. فأما الكافرون فهم مشركو العرب. ماذا أراد الله أي شيء أراد الله بهذا الحديث ^(٣).

١- تفسير الطبري (جامع البيان)، ج ٢٩ ص ٢٠٢.

٢- قال الألوسي: وهو استشعار ضعيف لأن السؤال لصحابي فلعلة كان مسافراً فاحتج يهودي حيث كان وأيضاً لا مانع إذ ذاك من إتيان اليهود نحو مكة المكرمة ثم إن الخبرين لا يعينان حمل الموصوف على اليهود كما لا يخفى فالأولى إبقاء التعريف على الجنس وشمول الموصوف للفريقين أي ليستيقن أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

٣ زاد المسير- ابن الجوزي ج ٨ ص ١٢٧ .

أقول: الحسين بن الفضل ترجم له السيوطي^(١) والأذنروي^(٢) في طبقات المفسرين. هو: "الحسين بن الفضل بن عمير البجلي الكوفي ثم النيسابوري أبو علي المفسر الأديب، إمام عصره في معاني القرآن. سمع يزيد بن هارون وعبد الله بن بكر السهمي وأبا النصر وشبابة وطائفة. روى عنه محمد بن الأخرم ومحمد بن صالح ومحمد بن القاسم العتكي وآخرون. أقام بنيسابور يعلم الناس العلم ويُفتي من سنة سبع عشرة ومائتين إلى أن مات سنة إثنتين وثمانين عن مائة وأربع سنين، وكان من العلماء الكبار العابدين يركع كل يوم ليلة ستائة ركعة، وقبره هناك مشهور يُزار، وأطنب الحاكم في ترجمته".

ولا بأس أن نسأل - هنا - أولي الألباب المنصفين، فإن الرجل متقدم زماناً على غيره من المفسرين^(٣)، وهو مفسر، وإمام عصره في معاني القرآن، ومعدود في العلماء العباد^(٤)، لا نقاش في عدالته، وليس الحاكم ممن يطنبون في ترجمة

١ - طبقات المفسرين، السيوطي، ج ١ ص ٤٨، مكتبة وهبة القاهرة س ١٣٩٦.

٢ - طبقات المفسرين، الأذنروي، ج ١ ص ٤٠، مكتبة العلوم والحكم (المدينة المنورة) ١٩٩٧ تحقيق سليمان الخزي.

٣ - عاش الطبري بعد الحسين بن الفضل قريباً من ثلاثين سنة.

٤ - في لسان الميزان ج ٢، ص ٣٠٧ ما يلي:

الحسين بن الفضل البجلي الكوفي العلامة المفسر أبو علي نزيل نيسابور يروي عن يزيد بن هارون والكبار ولم أرفه كلاماً لكن ساق الحاكم في ترجمته مناكير عدة فإله أعلم (انتهى). وما كان لذكر هذا في هذا الكتاب معنى فإنه من كبار أهل العلم والفضل واسم جده عمير بن القاسم بن كيسان كوفي الأصل قال الحاكم كان إمام عصره في معاني القرآن لقد أنزله عبد الله بن طاهر في الدار التي ابتاعها له سنة سبع عشرة ومئتين فبقي فيها يعلم الناس العلم خمساً وستين سنة ومات وله مائة وأربع سنين وقبره مشهور يزار ثم ذكر طائفة من مشائخه ثم ذكر أن عبد الله بن طاهر لما ولّاه المأمون خراسان سأله في استصحاب ثلاثة من العلماء فسماه منهم وعن أبي القاسم المذكر قال لو كان الحسين بن الفضل في بني إسرائيل لكان من عجائبهم. قال وسمعت أبا عبد الله محمد بن يعقوب يقول ما رأيت

شخص ليس بذئ بال، فما بالهم لم يحفلوا بكلامه وبقوا مُصَرِّين على جعل "المنافقين" و"الذين في قُلُوبِهِم مرض" جماعة واحدة؟!

وقال القرطبي في تفسيره: "والمؤمنون" أي المصدّقون من أصحابِ مُحَمَّدٍ ﷺ في أنّ عدّة خزنة جهنم تسعة عشر. ﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مرض﴾ أي في صدورهم شكّ ونفاق من منافقي أهل المدينة الذين ينجمون في مستقبل الزمان بعد الهجرة [!!] ولم يكن بمكة نفاق وإنّما نجم بالمدينة. وقيل: المعنى أي وليقول المنافقون الذين ينجمون في مستقبل الزمان بعد الهجرة. ﴿والكافرون﴾ أي اليهود والنصارى ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ يعني بعدد خزنة جهنم. وقال الحسين بن الفضل: السورة مكّية ولم يكن بمكة نفاق، فالمرض في هذه الآية الخلاف. و"الكافرون" أي مشركو العرب. وعلى القول الأول أكثر المفسرين. ويجوز أن يُراد بالمرض: الشكّ والارتياب، لأنّ أهل مكة كان أكثرهم شاكّين^(١).

وقال ابن قيم الجوزيّة في الصّواعق المرسلة: "الوجه الحادي والعشرون بعد

أفصح لساناً منه ثم اسند أنه كان يصلي في اليوم والليلة ستائة ركعة ثم ساق عنه أشياء نفيسة من التفسير وفي آخر ذلك أنه قال من سئل عن مسألة فيها أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعليه أن يجيب بجوابه ولا يلتفت الى من خالف ذلك من قياس أو استحسان فان السند لا يعارض بشيء من ذلك. ثم ذكر شيئاً من افراده وغرائب حديثه فساق له خمسة عشر حديثاً ليس فيها حديث مما ينكر بكون سنده ضعيفاً حتى يلزق الوهم بالحسين بل لا بد فيه من راوٍ ضعيف غيره فلو كان كل من روى شيئاً منكراً استحق أن يذكر في الضعفاء لما سلم من المحدثين أحد لا سيما الأكثر منهم فكان الأولى لا يذكر هذا الرجل لجلالته والله أعلم.

١ - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج ١٩ ص ٨٢.

المائة، أنَّ حال هؤلاء المعارضين بين الوحي والعقل ضدَّ حال أهل الإيمان من كل وجه، فإن الله سبحانه أخبر عن أهل الإيمان بأنَّهم كلَّما سمعوا نصوص الوحي زادتهم إيماناً وفرحاً واستبشاراً، وأنَّ الذين في قلوبهم مرض وريب يزيدهم رجساً إلى رجسهم ويودُّون أنَّها لم تنزل. قال الله تعالى وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيُّكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون^(١). فأضاف ابن القيم عبارة "رب" إلى الآية معطوفة على مرض ولا دليل عليه؛ فإذا كان من يضيف إلى كلام رسول الله متعمداً يكون كاذباً عليه، فما ظنك بمن يضيف إلى القرآن الكريم؟!

وقال ابن كثير: "وقوله تعالى ﴿وما جعلنا عدَّتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾ أي إنَّما ذكرنا عدَّتهم أنَّهم تسعة عشر اختباراً منَّا للناس ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب﴾ أي يعلمون أنَّ هذا الرسول حقَّ فإنَّه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله. وقوله تعالى ﴿ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ أي إلى إيمانهم بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمدٍ ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض﴾ أي من المنافقين ﴿والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ أي يقولون ما الحكمة في ذكر هذا هاهنا؟ قال الله تعالى ﴿كذلك يضلُّ الله من يشاء﴾^(٢).

١ - الصواعق المرسلة، ج ٣ ص ١١٦٧ - ١١٦٨.

٢ - تفسير ابن كثير، ج ٤ ص ٤٧٤.

وقال جلال الدين السيوطي في الدرّ المنثور: "وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ﴿ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ قال صدق القرآن الكتب التي خلت قبله التوراة والإنجيل أنّ خزنة جهنم تسعة عشر. ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض﴾ قال الذين في قلوبهم النفاق، والله أعلم^(١).

وقال الثعالبي في تفسيره: "الذين في قلوبهم مرض" الآية نوع من الفتنة لهذا الصنف المنافق أو الكافر أي حاروا ولم يهتدوا لمقصد الحق، فجعل بعضهم يستفهم بعضاً عن مراد الله بهذا المثل استبعاداً أن يكون هذا من عند الله. قال الحسين بن الفضل: السورة مكّية ولم يكن بمكة نفاق وإنّما المرض في هذه الآية الاضطراب وضعف الإيمان..^(٢).

وقال الشوكاني: "والمعنى أنّ الله جعل عدّة الخزنة هذه العدة ليحصل اليقين لليهود والنصارى بنبوّة محمد ﷺ لموافقة ما في القرآن لما في كتبهم، ﴿ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ وقيل المراد الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام [أقول: وأين عبد الله بن سلام من بداية البعثة النبوية ونزول سورة المدثر؟] وقيل أراد الذين آمنوا المؤمنين من أمّة محمد ﷺ، والمعنى ليزدادوا يقيناً إلى يقينهم لما رأوا من موافقة أهل الكتاب لهم وجملة ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا

١ - الدرّ المنثور، السيوطي، ج ٦ ص ٢٨٤.

٢ - تفسير الثعالبي، ج ٥ ص ٥١٤.

الكتاب والمؤمنون ﴿مقررة لما تقدّم من الاستيقان وازدياد الإيمان. والمعنى نفي الارتياب عنهم في الدين أو في أنّ عدّة خزنة جهنّم تسعة عشر ولا ارتياب في الحقيقة من المؤمنين، ولكنه من باب التعريض لغيرهم ممّن في قلبه شكٌ ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ المراد بـ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ هم المنافقون والسّورة وإن كانت مكّيّة ولم يكن إذ ذاك نفاق فهو إخبار بما سيكون في المدينة!!] أو المراد بالمرض مجرد حصول الشكّ والريب وهو كائن في الكفار!!] قال الحسين بن الفضل: السّورة مكّيّة ولم يكن بمكّة نفاق فالمرض في هذه الآية الخلاف والمراد بقوله ﴿والكافرون﴾ كفار العرب من أهل مكّة وغيرهم" (١).

وتجدر الإشارة هنا إلى تحليل عرضه السيّد عليّ الميلاني في بحث له تحت عنوان " الصّحابة " يقول فيه ما يلي:

" وأما الرّأي الحقّ في المسألة، بعد أن بطلت أدلّة القول الأوّل الذي ادّعي عليه الإجماع، فهو أن ننظر إلى الكتاب وإلى السنّة نظرة أخرى، فنجد في القرآن الكريم أنّ الذين كانوا حول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ثلاثة أقسام: إمّا مؤمنون، وهذا واضح. وإمّا منافقون، وهذا واضح. وإمّا في قلوبهم مرض، وهذا أيضا واضح. هؤلاء طوائف كانوا حول رسول الله. فإذا، ليس كلّ من كان مع رسول الله كان مؤمناً. المؤمنون طائفة منهم، المنافقون طائفة

أخرى، والَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ طَائِفَةٌ ثَالِثَةٌ. وَمِنَ الْجَدِيدِ بِالذِّكْرِ- وَعَلَى
الْبَاحِثِينَ أَنْ يَتَأَمَّلُوا فِيمَا أَقُولُ- أَنَّ فِي سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ وَهِيَ عَلَى قَوْلٍ أَوَّلٍ مَا نَزَلَ مِنَ
الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي مَكَّةِ الْمُكَرَّمَةِ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ أَوَّلَ مَا نَزَلَ فَلَعَلَّهَا السُّورَةُ الثَّانِيَةُ
أَوَّلُ السُّورَةِ الثَّالِثَةِ؛ فِي أَوَائِلِ الْبَعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ وَالِدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ
الْمُبَارَكَةُ، فِي هَذِهِ السُّورَةِ نَجَدْنَا أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا
أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لَا حِظُّوا
بِدَقَّةٍ ﴿لَيْسَتِيقِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ هَذِهِ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةِ ﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ
آمَنُوا إِيمَانًا﴾ إِذْنًا، فِي مَكَّةِ عِنْدَ نَزُولِ آيَةِ الْكَافِرِينَ أَمَّا أَهْلُ كِتَابٍ وَأَنَاسٍ
مُؤْمِنِينَ ﴿وَلَا يَرْتَابُ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَنَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾. يَظْهَرُ مِنْ هَذِهِ آيَةِ الْمُبَارَكَةِ: أَنَّ
حِينَ نَزَلَ السُّورَةُ الْمُبَارَكَةُ فِي مَكَّةِ كَانَ النَّاسُ فِي مَكَّةِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ:
كَافِرُونَ، أَهْلُ كِتَابٍ، مُؤْمِنُونَ، فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ. الْكَافِرُونَ مَعْلُومٌ، وَهُمْ
الْمُشْرِكُونَ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ أَيْضًا مَعْلُومٌ، يَبْقَى الْمُؤْمِنُونَ وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَسُولِ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَمَنْ هُمْ؟ فِي مَكَّةِ،
الْمُسْلِمُونَ الَّذِينَ كَانُوا حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ عِدَّتُهُمْ مَعْيَنَ مُحْصُورٍ، وَأَفْرَادٌ مَعْدُودُونَ
جِدًّا، يُمَكِّنُنَا مَعْرِفَةُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ مَنْ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ، نَحْنُ الْآنَ لَسْنَا بِصَدِيقِ
تَعْيِينِ الصَّغْرَى، لَسْنَا بِصَدِيقِ تَعْيِينِ الْمُصَدِّقِ، لَكِنَّا عَرَفْنَا عَلَى ضَوْءِ هَذِهِ آيَةِ
الْمُبَارَكَةِ أَنَّ النَّاسَ فِي مَكَّةِ فِي بَدْءِ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ كَانُوا عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ: أَنَاسٌ
مُشْرِكُونَ كَافِرُونَ وَهَذَا وَاضِحٌ، وَفِي النَّاسِ أَيْضًا أَهْلُ كِتَابٍ، وَهَذَا وَاضِحٌ، وَفِي

النَّاسِ مَنْ آمَنَ بِرَسُولِ اللَّهِ وَهَذَا وَاضِحٌ. الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، هَؤُلَاءِ لَيْسُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا، وَلَيْسُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَمَنْ هُمْ؟ فَيُظْهِرُ أَنَّ هُنَاكَ فِي مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ وَفِي بَدْءِ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ نَاسًا عَنَوَانَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ. وَلَوْ رَاجَعْتُمُ التَّفَاسِيرَ لَرَأَيْتُمُ الْقَوْمَ مُتَحَيِّرِينَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ وَحُلِّ هَذِهِ الْمَشْكِلَةِ، وَلَنْ يَتِمَكَّنُوا إِلَّا أَنْ يَفْصَحُوا بِالْحَقِّ وَإِلَّا أَنْ يَقُولُوا الْوَاقِعَ، فَمَا دَامُوا لَا يَرِيدُونَ الْوَاقِعَ تَرَاهُمْ مُتَحَيِّرِينَ مُضْطَرِّبِينَ. يَقُولُ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ بِتَفْسِيرِ الْآيَةِ - لَاحْظُوا بَدَقَّةً -: جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ قَالُوا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ إِنَّهُمْ الْكَافِرُونَ، وَالْحَالُ أَنَّ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ قَسِيمٌ وَقَسَمَ فِي مَقَابِلِ الْكَافِرِينَ، هَذَا رَأَى جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ. ثُمَّ يَقُولُ - لَاحْظُوا بَدَقَّةً -: وَذَكَرَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ الْبَجَلِيُّ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ وَلَمْ يَكُنْ بِمَكَّةَ نِفَاقٌ، فَلَمَرَضَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَيْسَ بِمَعْنَى النِّفَاقِ. وَتَرَكَ الْأَمْرَ عَلَى حَالِهِ، لَيْسَ بِمَعْنَى النِّفَاقِ إِذَا مَاذَا؟ فَهَذَا قَوْلٌ فِي مَقَابِلِ قَوْلِ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ! يَقُولُ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يُدَافِعَ عَنْ قَوْلِ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ، لَاحْظُوا بَدَقَّةَ قَوْلِهِ: قَوْلُ الْمُفَسِّرِينَ حَقٌّ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ فِي مَعْلُومِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ النِّفَاقَ سَيَحْدُثُ، أَيْ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، فَأَخْبَرَ عَمَّا سَيَكُونُ، وَعَلَى هَذَا تَصِيرُ هَذِهِ الْآيَةُ مُعْجِزَةً، لِأَنَّهُ إِخْبَارٌ عَنْ غَيْبٍ سَيَقَعُ، وَقَدْ وَقَعَ عَلَى وَفْقِ الْخَبَرِ، فَيَكُونُ مُعْجِزًا! كَانَ ذَكَرَ الَّذِينَ انْحَصَرَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ هُنَا مُعْجِزَةً. لَكِنْ لَنْ يَرْضَى الْفَخْرُ الرَّازِيُّ أَيْضًا هَذَا التَّوْجِيهَ مَعَ ذِكْرِهِ لَهُ. وَالْعَجِيبُ مِنَ الْفَخْرِ الرَّازِيِّ حَيْثُ يَقُولُ: جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ قَالُوا إِنَّهُمْ الْكَافِرُونَ، وَهُوَ يُدَافِعُ عَنْ قَوْلِهِمْ، وَيَقُولُ هُوَ حَقٌّ، ثُمَّ يَحْمِلُ الْآيَةَ عَلَى أَنَّهُ إِخْبَارٌ

عن التفاق الذي سيقع. فإذا كان قول المفسرين حقاً، فقد فسروا بأنهم الكافرون، وأنت تقول: بأن هذا إخبار عن التفاق الذي سيقع في المدينة المنورة، فكيف كان قول المفسرين حقاً؟! وهذا يكشف عن تحيرهم واضطرابهم في القضية. ومما يزيد في وضوح الاضطراب قوله بعد ذلك: - أرجو الملاحظة بدقة - : ويجوز أن يراد بالمرض الشك. أي: الذين في قلوبهم شك، لكن يعود الإشكال، فمن الذين في قلوبهم شك، في بدء الدعوة في مكة، في مقابل الذين آمنوا، والذين كفروا، وأهل الكتاب؟ فيعمل كلامه قائلاً: لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين. فنقول: من المراد هنا من أهل مكة؟ هل المراد أهل الكتاب؟ هل المراد الكفار والمشركون؟ من هؤلاء الذين أكثرهم شاكون؟ وقد زاد في الطين بلّة فقال: وبعضهم كانوا قاطعين بالكذب؟ وهذا عجيب من مثل الفخر الرازي، عجيب والله. وليس إلا الاضطراب والحيرة!! هذا، والفخر الرازي في مثل هذه المواضع يأخذ من الزمخشري ولا يذكر اسم الزمخشري، وطابقوا بين عبارة الفخر الرازي والزمخشري، لرأيتهم الزمخشري جوابه نفس الجواب، ولا أدري تاريخ وفاة الحسين بن الفضل^(١)، وربما يكون متأخراً عن الزمخشري، فنفس الجواب موجود عند الزمخشري وبلا حل للمشكلة. ويأتي أحدهم فيأخذ كلام الفخر الرازي والزمخشري حرفياً، ويحذف من كلام الفخر الرازي قول الحسين بن الفضل والبحث الذي طرحه

١ - توفي الحسين بن الفضل سنة ٢٨٢ هـ وتوفي محمود بن عمر الزمخشري سنة ٥٨٣ هـ.

الفخر الرازي، وهذا هو الخازن في تفسيره، فراجعوا. ثم جاء المتأخرون وجوزوا أن يكون المراد النفاق، وأن يكون المراد الشك، وتعود المشكلة، وكثير منهم يقولون المراد الشك أو النفاق، لاحظوا ابن كثير ولاحظوا غيره من المفسرين، فهؤلاء يفسرون المرض بالشك، يفسرون المرض بالنفاق ويسكتون، أي يسلمون بالإشكال أو السؤال. كان في مكة المكرمة نفاق، وأنتم تعلمون دائما أن النفاق إنما يكون حيث يخاف الإنسان على ماله، أو يخاف على دمه ونفسه، فيتظاهر بالإسلام وهو غير معتقد، وهذا في الحقيقة إنما يحصل في المدينة المنورة لقوة الإسلام، لتقدم الدين، ولقدرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، هذا كله صحيح. أما في مكة، حيث الإسلام ضعيف، وحيث أن النبي مطارد، وحيث أنه يؤدي صباحا ومساء، فأبي ضرورة للنفاق وأي معنى حيث؟ والله سبحانه وتعالى لم يعبر بالنفاق، وإنما عبر بالمرض في القلب؛ وفيه نكته. إذن، كان في أصحاب رسول الله منذ مكة من في قلبه مرض، ومن كان منافقا، وأيضا كان حواله مؤمنون، فكيف نقول أنهم عدول أجمعون؟ وهذا على ضوء هذه الآية. وأما الآيات الواردة في النفاق، أو السورة التي سميت بسورة "المنافقون"، فأنتم بكل ذلك عالمون عارفون^(١).

الفصل الثاني

الذين في قلوبهم مرض

في

نظر قدماء المفسرين

- عبد الرزاق الصنعاني
- ابن جرير الطبري
- النحاس

(الذين قلوبهم مرض) في تفسير الصنعاني

قال الصنعانيّ عبد الرزاق بن همام في تفسيره:

"عبد الرزاق عن معمر عن الحسن في قوله تعالى إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فُسّمُوا مُنافقين. عبد الرزاق عن معمر وقال الكلبي: هم قوم كانوا أقرّوا بالإسلام بمكة ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا المسلمين قالوا غر هؤلاء دينهم" (١)

إذًا، الذين في قلوبهم مرض: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين. وتفسير آخر مُغايرٌ تماماً: هم قوم كانوا أقرّوا بالإسلام بمكة ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر...

غير أنّه لا يمكن التسليم بأنّ الذين لم يشهدوا بدرًا منافقون، لأنّ الذين خرجوا إنّما خرجوا يطلبون الغنيمة، وقد تقدّم إليهم رسول الله ﷺ في ذلك. ويشهد له ما جاء في السيرة الحلبية حيث يقول: "

وقال سعد بن معاذ يا نبيّ الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونُعدّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا؛ فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحيينا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فالحقت بمن وراءنا من قومنا. ففقد تخلف عنك أقوام يا نبيّ الله ما نحن بأشدّ حباً لك منهم، ولو ظنوا أنّك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنّعك الله عزّ وجلّ بهم يناصحونك ويجاهدون معك.

فأثنى رسول الله عليه خيراً ودعا له بخير^(١).

وهو بنفس اللفظ في كتاب الاكتفاء للكلاعي الأندلسي وفي تفسير ابن كثير باختلاف يسير، فإنه قال بدل يناصحونك ويجاهدون معك "ويوازرونك وينصرونك". وأيضاً في تاريخ الطبري، وكتاب الثقات وسيرة ابن هشام وتاريخ ابن كثير (البداية والنهاية)^(٢).

فكيف يُقال عن المتخلفين عن بدر إنهم منافقون وسعد بن معاذ يشهد أن فيهم من هم أشدُّ حباً لرسول الله ﷺ منه؟ وسعد بن معاذ شهيد باتفاق العلماء، انتقض به جرحه بعد المعركة، وورد أنه شهد جنازته من الملائكة خلق عظيم.

قال الصنعاني: "عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أن ناساً من المنافقين أرادوا أن يُظهروا نفاقهم فنزلت لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم. يقول: لنحرشَنَّك بهم. معمر وأخبرني عن ابن طاوس عن أبيه قال: نزلت في بعض أمور النساء يعنني والذين في قلوبهم مرض. عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار قال: قلت لعكرمة: رأيت قول الله لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض؟ قال:

١ - السيرة الحلبية زيني دحلان، ج ٢ ص ٣٩٤.

٢ - الإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلثة الخلفاء، لسليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، ج ٢ ص ٢١ وتفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣١٦ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٣٠، وكتاب الثقات ج ١ ص ١٦٢ وسيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٦٨ والبداية والنهاية ج ٣ ص ٢٦٨.

الرُّنَاةُ" ^(١).

و في تفسير الصنعاني أيضاً: "عبد الرزّاق قال أ...نا أبو يزيد سلم بن عبيد الله الصنعاني عن إسماعيل بن شروس عن عكرمة في قوله والذين في قلوبهم مرض قال الرّناة" ^(٢).

إذاً، فالذين في قلوبهم مرض هم الرّناة.

وعليه يكون معنى الذين في قلوبهم مرض عند الصنعاني ما يلي:

(١) هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسمّوا منافقين. (٢) هم قوم كانوا أقروا بالإسلام بمكة ثم خرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا المسلمين قالوا غر هؤلاء دينهم. (٣) الذين في قلوبهم مرض قال الرّناة.

١ - تفسير الصنعاني، ج ٣ ص ١٢٣ .

٢ - تفسير الصنعاني، ج ٣ ص ١٢٤ .

قال الطَّبْرِيُّ: " في تفسير قَوْلِهِ تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بما كانوا يكذبون ﴿وَأَصْلُ الْمَرَضِ: السَّقَمُ، ثُمَّ يُقَالُ ذَلِكَ فِي الْأَجْسَادِ وَالْأَدْيَانِ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَنَّ فِي قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ مَرَضًا. وَإِنَّمَا عَنِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِخَبْرِهِ عَنْ مَرَضِ قُلُوبِهِمُ الْخَبْرَ عَنْ مَرَضِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْإِعْتِقَادِ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ مَعْلُومًا بِالْخَبَرِ عَنْ مَرَضِ الْقَلْبِ أَنَّهُ مَعْنَى بِهِ مَرَضُ مَا هُمْ مَعْتَقِدُوهُ مِنَ الْإِعْتِقَادِ اسْتَعْنَى بِالْخَبَرِ عَنِ الْقَلْبِ بِذَلِكَ وَالْكِنَايَةِ عَنْ تَصْرِيحِ الْخَبَرِ عَنْ ضَمَائِرِهِمْ وَاعْتِقَادَاتِهِمْ [وَكَأَنَّ أَنْصَرَفَ الْعِبَارَةُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْمُسْلِمَاتِ] قَالَ: فَكَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ إِنَّمَا يَعْنِي فِي إِعْتِقَادِ قُلُوبِهِمُ الَّذِي يَعْتَقِدُونَهُ فِي الدِّينِ وَالتَّصَدِيقِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَرَضٌ وَسَقَمٌ. فَاجْتَرَأَ بِدَلَالَةِ الْخَبَرِ عَنْ قُلُوبِهِمْ عَلَى مَعْنَاهُ عَنْ تَصْرِيحِ الْخَبَرِ عَنْ إِعْتِقَادِهِمْ. وَالْمَرَضُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَنَّهُ فِي إِعْتِقَادِ قُلُوبِهِمُ الَّذِي وَصَفَنَاهُ هُوَ شَكُّهُمْ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَتَحْيِيرُهُمْ فِيهِ، فَلَا هُمْ بِهِ مُوَقِّنُونَ إِيْقَانِ إِيْمَانٍ، وَلَا هُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ إِنْكَارِ إِشْرَاقٍ، وَلَكِنْهُمْ كَمَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُذَبْذَبُونَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ، كَمَا يُقَالُ: فَلَانٌ يَمْرُضُ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَيُّ يَضْعَفُ الْعِزْمُ وَلَا يَصَحُّ الرُّؤْيَا فِيهِ. وَبِمَثَلِ الَّذِي قُلْنَا فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ تَظَاهَرِ الْقَوْلُ فِي تَفْسِيرِهِ مِنَ الْمَفْسَرِينَ " (١).

أقول: أَمَّا قَوْلُهُ تَظَاهَرِ الْمَفْسَرُونَ فَإِنَّهُ لَا يَغْنِي شَيْئًا إِذَا لَمْ يَفِدْ عِلْمًا؛ وَكَيْفَ

يفيده وبعضهم قد فسره تفسيراتٍ عدّة يضرب بعضها بعضاً. نعم، قد ينفع ذلك التّظاهر لو لم يقع ذلك التّضارب المدهش الذي يجعل الشّيء نفسه وغيره وقسيمه وضده!

قال الطبري: "حدّثني يونس بن عبد الأعلى، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال عبد الرحمن بن زيد في قوله: في قلوبهم مرض قال: هذا مرض في الدّين وليس مرضاً في الأجساد. قال: هم المنافقون"^(١).

إذاً، فحينما يقول القرآن الكريم: إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض، معناه: إذ يقول المنافقون والمنافقون، فيعطف الشّيء على نفسه ويأتي بالمُسْتَهْجَن في لسان العرب، والحال أنّ القرآن بلسان عربي مبين! يتحدّى العرب فصاحة وبلاغة!

قال الطبري: " .. حدّثني المثنى بن إبراهيم قال: حدّثنا سويد بن نصر، قال: أخبرنا ابن المبارك قراءة عن سعيد عن قتادة في قوله: في قلوبهم مرض قال: في قلوبهم ريبة وشكّ في أمر الله جلّ ثناؤه. وحدّث عن عمّار بن الحسن، قال: حدّثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع بن أنس: في قلوبهم مرض قال: هؤلاء أهل النّفاق، والمَرَض الذي في قلوبهم الشكّ في أمر الله تعالى ذكره. حدّثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال عبد الرحمن بن زيد: ومن النّاس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر حتّى بلغ: في قلوبهم مرض قال المَرَض: الشكّ الذي دخلهم في الإسلام"^(٢).

قال الطبري: القول في تأويل قوله تعالى: فزادهم الله مرضاً. قد دللنا

١ - جامع البيان، الطبري، ج ١ ص ١٧٧.

٢ - نفس المصدر، ج ١ ص ١٧٧ - ١٧٨.

آنفاً على أن تأويل المَرَض الذي وصف الله جل ثناؤه أنه في قلوب المنافقين: هو الشك في اعتقادات قلوبهم وأديانهم وما هم عليه في أمر محمد رسول الله ﷺ وأمر نبوته وما جاء به مقيمون. فالمرض الذي أخبر الله جل عنهم أنه زادهم على مرضهم هو نظير ما كان في قلوبهم من الشك والحيرة قبل الزيادة، فزادهم الله بما أحدث من حدوده وفرائضه التي لم يكن فرضها قبل الزيادة التي زادها المنافقين من الشك والحيرة إذ شكوا وارتابوا في الذي أحدث لهم من ذلك إلى المرض والشك الذي كان في قلوبهم في السالف من حدوده وفرائضه التي كان فرضها قبل ذلك، كما زاد المؤمنين به إلى إيمانهم الذي كانوا عليه قبل ذلك بالذي أحدث لهم من الفرائض والحدود إذ آمنوا به إلى إيمانهم بالسالف من حدوده وفرائضه إيماناً. كالذي قال جل ثناؤه في تنزيله: ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَآمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾. فالزيادة التي زيدها المنافقون من الرجاسة إلى رجاستهم هو ما وصفنا، والزيادة التي زيدها المؤمنون إلى إيمانهم هو ما بينّا، وذلك هو التأويل المجمع عليه^(١).

أقول: أين هذا الإجماع؟

إن كان يقصد إجماع المسلمين (أهل القبلة) فإن دون إثباته خرط القتاد. وإن كان يقصد إجماع أبناء طائفته، فإنه هو نفسه أول من ينقض بُنيانه

حيث يقول في تفسير قوله تعالى ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ (يسارعون...): "اختلف أهل التأويل في مَنْ عَنِ بِهِذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: عَنِ بِهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَنٍ سُلُولٍ. ذَكَرَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ: حَدَّثَنَا أَبُو كَرِيبٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ إِدْرِيسَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي عَنْ عَطِيَّةَ بْنِ سَعْدٍ: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي يَسَارِعُونَ فِيهِمْ فِي وَلَايَتِهِمْ، يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصَيِّبَنَا دَائِرَةٌ... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ. حَدَّثَنَا هَنَادٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ بَكِيرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ إِسْحَاقَ، قَالَ: حَدَّثَنِي وَالِدِي إِسْحَاقُ بْنُ يَسَارٍ، عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَعْنِي: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي يَسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصَيِّبَنَا دَائِرَةٌ لِقَوْلِهِ: إِنِّي أَخْشَى دَائِرَةَ تُصَيِّبُنِي. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ عَنِ ذَلِكَ قَوْمًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا يَنَاصِحُونَ الْيَهُودَ وَيَغْشَوْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَيَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تَكُونَ دَائِرَةٌ لِلْيَهُودِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. ذَكَرَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عِيسَى، عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ذَكَرَهُ: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَسَارِعُونَ فِيهِمْ قَالَ: الْمُنَافِقُونَ فِي مَصَانَعَةِ يَهُودٍ وَمَنَاجَاتِهِمْ، وَاسْتِرْضَاعِهِمْ أَوْلَادَهُمْ إِيَّاهُمْ. وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ذَكَرَهُ: نَخْشَى أَنْ تُصَيِّبَنَا دَائِرَةٌ قَالَ: يَقُولُ نَخْشَى أَنْ تَكُونَ الدَّائِرَةُ لِلْيَهُودِ. حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو حَذِيفَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا شَبْلٌ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، مِثْلَهُ. حَدَّثَنَا بَشَرُ بْنُ مَعَاذٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ، قَوْلُهُ: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ... إِلَى قَوْلِهِ نَادِمِينَ: أَنَّاسٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا يُوَدُّونَ الْيَهُودَ وَيَنَاصِحُونَهُمْ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ. حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَفْضَلٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَسْبَاطُ بْنُ السَّدِيِّ:

فترى الذين في قلوبهم مرض قال: شكّ يسارعون فيهم نخشى أن تصيبنا دائرة والدائرة: ظهور المشركين عليهم. والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن ذلك من الله خبرٌ عن ناس من المنافقين^(١) كانوا يُوالون اليهود والنصارى، ويغشّون المؤمنين ويقولون: نخشى أن تدور دوائر، إمّا لليهود والنصارى، وإمّا لأهل الشّرك من عبدة الأوثان أو غيرهم على أهل الإسلام، أو تنزل بهؤلاء المنافقين نازلة، فيكون بنا إليهم حاجة. وقد يجوز أن يكون ذلك كان من قول عبد الله بن أبيّ، ويجوز أن يكون كان من قول غيره، غير أنّه لا شكّ أنّه من قول المنافقين. فتأويل الكلام إذن: فترى يا محمّد الذين في قلوبهم مرض وشكّ إيمان بنبوّتك وتصديق ما جئتهم به من عند ربّك يسارعون فيهم يعني في اليهود والنصارى. ويعني بمسارعتهم فيهم: مسارعتهم في موالاتهم ومُصانعتهم. يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة يقول هؤلاء المنافقون: إنّنا نسارع في موالات هؤلاء اليهود والنصارى خوفاً من دائرة تدور علينا من عدونا. ويعني بالدائرة الدّولة^(٢).

فإذا كان أهل التّأويل قد اختلفوا كلّ هذا الاختلاف بشهادته هو نفسه، فأين الإجماع المدّعى؟!

ثمّ هو ذا يقول: "حدّثنا القاسم، قال [...]": قال ابن جريج في قوله: إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض قال: ناس كانوا من المنافقين بمكة قالوه يوم بدر، وهم يومئذ ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً. وقد سبق قولهم

١ - من هم ؟ لماذا لا يذكر واحداً منهم على الأقل ؟

٢ - المصدر السابق، ج ٦ ص ٣٧٦-٣٧٨.

٣ - العلامة [...] تشير إلى اختصار الإسناد.

إِنَّ التَّفَاقَ إِنَّمَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ لَا بِمَكَّةَ^(١).

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وأما الذين في قلوبهم مرض نفاق وشك في دين الله، فإنَّ السَّورة التي أنزلت زادتهم رجسا إلى رجسهم، وذلك أنَّهم شكَّوا في أنَّها من عند الله، فلم يؤمنوا بها ولم يصدَّقوا، فكان ذلك زيادة شكَّ حادثة في تنزيل الله لزمهم الإيمان به عليهم بل ارتابوا بذلك، فكان ذلك زيادة نتن من أفعالهم إلى ما سلف منهم نظيره من التَّنِ والتَّفَاق، وذلك معنى قوله: فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا يعني هؤلاء المنافقين أنَّهم هلكوا وهم كافرون يعني وهم كافرون بالله وآياته"^(٢).

فهو يذكر إذاً بوضوح أنَّ الَّذِينَ في قلوبهم مرض ماتوا وهم كافرون بالله وآياته، وهذا واضح من الآية الشريفة^(٣)، لكن ليس واضحاً أنَّ الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، اللهمَّ إلاَّ أنَّ يقصد بالتَّفَاق ما تكون دائرته أوسع ممَّا ينحصر في عبد الله بن أبي بن السَّلول وأتباعه، وقد سبق الكلام في ذلك عند قوله تعالى إذ يقول المنافقون والَّذِينَ في قلوبهم مرض غرَّ هؤلاء دينهم، وقوله تعالى لئن لم يَتَّه المنافقون والَّذِينَ في قلوبهم مرض..

قال الطبري: "[...] أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث أنَّ رسول الله ﷺ وهو بِمَكَّةَ قرأ عليهم: والنَّجم إذا هوى، فلَمَّا بلغ: أفرأيتُم اللَّات

١ - جامع البيان، الطَّبْرِيّ، ج ١٠ ص ٢٩.

٢ - جامع البيان، الطَّبْرِيّ، ج ١١ ص ٩٧.

٣ - يقول ابن تيمية في الصارم المسلول، ج ٢ ص ٤١٨: فلما رأى من بقي من المنافقين ما صار الأمر اليه من عَزَّ الاسلام وقيام الرسول بجهاد الكفار والمنافقين أضمرُوا التَّفَاق فلم يكن يسمع من أحد من المنافقين بعد غزوة تبوك كلمة سوء وماتوا بغیظهم حتى بقي منهم أناس بعد موت النبي يعرفهم صاحب السَّر حذيفة فلم يكن يصلي عليهم هو ولا يصلي عليهم من عرفهم لسبب آخر مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

والعزى ومناة الثالثة الأخرى قال: إِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ تُرْتَجَى. وسها رسول الله ﷺ، فَلَقِيَهُ المَشْرُكُونَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ، فَسَلَمُوا عَلَيْهِ، وَفَرَحُوا بِذَلِكَ فَقَالَ لَهُم: إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ... حَتَّى بَلَغَ: فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ " (١).

يقول الطبري: المَشْرُكُونَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ. فيجعل المنافقين - على مبنى مدرسته - والمشركين شيئاً واحداً! والحال أَنَّ المَشْرُكِينَ طائفة والذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ طائفة أخرى، وقد تمايزت الطوائف بصورة جلية في سورة المدثر، وسورة المدثر مكية، ولم يكن في مكة نفاق، فلا بدَّ لَهُمْ مِنَ الرَّمِي يَمِيناً وشمالاً للتخلص من هذه الوضعية المخرجة، إذ لو اطلع العوام على احتمال وجود مرض في قلوب مَنْ أظهر الإسلام في مكة لكانت الطامة الكبرى! فلا مناص من صرف اللفظ عن معناه ولو رجماً بالغيب. المُهِمُّ هُوَ أَلَّا يَنْفَتَحَ ذَلِكَ الباب!!

إِنَّ الطَّبْرِيَّ هُنَا كَأَنَّمَا يُسَلِّمُ بِقِصَّةِ الغرانيق، وفيها من القدح في حفظ الذكر ما فيها، لكن حينما يتمعن المرء في ذلك يجد أَنَّ سَبَبَ وَقُوعِ كَثِيرٍ مِنَ عُلَمَاءِ الجُمُهور في مثل هذه الآفات مَرْجِعُهُ إِلَى عَدَمِ اعتقادهم بعصمة النَّبِيِّ ﷺ، واتباعهم ما تشابه منه في هذه المسألة موافقة منهم لكعب الأخبار، ووهب بن منبه، وتميم الداري، الذين سَرَّبُوا إِسْرَائِيلِيَّاتِهِمْ فِي الْأَنْبِيَاءِ عَنْ طَرِيقِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ

عمرو بن العاص؛ وهم مع ذلك يتلون ويفسرون قوله تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾؛ وأنت ترى أنه - وفق قصة الغرائق - له سلطان وأي سلطان! فإنه استطاع أن يدخل بين النبي وبين الوحي الذي يوحي إليه، وأجرى على لسانه - والعياذ بالله - مدح آلهة المشركين؛ فليت شعري هل كان أهل السماء كلهم نائمين؟! والقرآن كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لكنه في القصة جاءه من كل جهة واستقر على لسان النبي ﷺ وقذف ما قذف، ثم جاء الوحي المصحح بعد ذلك كما يأتي رجال الإطفاء بعد اشتعال النيران لينقذوا ما يمكن إنقاذه! هذه نتيجة تقديس السلف الذي له الأولوية في كل شيء حتى حين يعارض القرآن، ويشكك في يقظة من أنزل عليه القرآن. ولقد قال أحدهم: كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو إما منسوخ أو مؤول^(١)! فلاعجب أن يُنسب إلى النبي ﷺ أنه سَهَا فألقى الشيطان في أمنيته، فذكر آلهة قريش بخير.

قال الطبري: "وقوله: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يقول تعالى ذكره: أفي قلوب هؤلاء الذين يعرضون إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم شك في رسول الله ﷺ أنه الله رسول فهم يمتنعون من الإجابة إلى حكمه والرضا به. أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله إذا احتكموا إلى حكم كتاب الله وحكم رسوله. وقوله أن يحيف الله عليهم ورسوله والمعنى: أن يحيف رسول الله عليهم، فبدأ بالله تعالى ذكره تعظيماً لله كما يقال: ما شاء الله

ثُمَّ شِئْتُ، بمعنى: ما شِئْتُ. وما يدلّ على أنّ معنى ذلك كذلك قوله: وإذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم فأفرد الرسول بالحكم، ولم يقل: ليحكمَا. وقوله: بل أولئك هم الظالمون يقول: ما خاف هؤلاء المعرضون عن حكم الله وحكم رسوله، إذ أعرضوا عن الإجابة إلي ذلك، ممّا دعوا إليه، أن يحيف عليهم رسول الله فيجور في حكمه عليهم ولكنّهم قوم أهل ظلم لأنفسهم بخلافهم أمر ربهم ومعصيتهم الله فيما أمرهم من الرضا بحكم رسول الله ﷺ فيما أحبوا وكرهوا، والتسليم له" (١).

فسر الطبري هنا المرض بأنّه الشكّ في رسول الله ﷺ.

قال الطبري: وقوله ﴿وإذا يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾: شكّ في الإيثار وضعف في اعتقادهم إياه ﴿ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غرورا﴾ وذلك فيما ذكر قول معتب بن قشير (٢). وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: حدّثني يزيد بن رومان وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض: ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غرورا يقول: معتب بن قشير، إذ قال ما قال يوم الخندق. حدّثني محمد بن عمرو، قال: حدّثنا أبو عاصم قال: حدّثنا عيسى وحدّثني الحارث، قال: حدّثنا الحسن قال: حدّثنا ورقاء جميعا، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قوله وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض قال: تكلمهم بالنفاق يومئذ، وتكلّم المؤمنون بالحق

١ - جامع البيان، الطبري، ج ١٨ ص ٢٠٨.

٢ - وهو من أهل بدر.

والإيمان، قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله فالذين في قلوبهم مرض هم الذين عندهم شك في الإيمان وضعف في اعتقادهم إيّاه^(١).
وقال أيضا: "وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض قال: تكلمهم بالتفاق يومئذ، وتكلم المؤمنون بالحق والإيمان، قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله"^(٢).

وعليه: في قلوبهم مرض = تكلمهم بالتفاق يومئذ.
قال الطبري: "القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يا نساء النبيّ لستنّ كأحد من النساء إن اتقيتنّ فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفاً. وقرن في بيوتكنّ ولا تبرجن تبرج الجاهليّة الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهير﴾ يقول تعالى ذكره لأزواج رسول الله ﷺ: يا نساء النبيّ لستنّ كأحد من النساء من نساء هذه الأمة إن اتقيتنّ الله فأطعته فيما أمركنّ ونهاكنّ، كما حدّثنا بشر، قال: حدّثنا يزيد قال: حدّثنا سعيد عن قتادة، قوله: يا نساء النبيّ لستنّ كأحد من النساء يعني من نساء هذه الأمة وقوله: فلا تخضعن بالقول يقول: فلا تلنّ بالقول للرجال فيما يبتغيه أهل الفاحشة منكنّ^(٣) [!]. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدّثني محمد بن سعد، قال: حدّثني أبي، قال: حدّثني عمّي، قال: حدّثني أبي، عن أبيه عن ابن عباس، قوله: يا نساء

١ - جامع البيان، الطبريّ، ج ٢١ ص ١٦٠-١٦١.

٢ - جامع البيان، الطبريّ، ج ٢١ ص ١٦١.

٣ - من هم أهل الفاحشة هنا؟ ألم يكونوا في عهد رسول الله ﷺ؟ وهل يكون أهل الفاحشة جميعهم عدولاً؟

النَّبِيِّ لَسْتَنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتَنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ يَقُولُ: لَا تَرْخَصْنَ بِالْقَوْلِ [كذا]، وَلَا تَخْضَعْنَ بِالْكَلَامِ. حَدَّثَنِي يُونُسُ، قَالَ: أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ، فِي قَوْلِهِ: فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ قَالَ: خَضَعَ الْقَوْلُ مَا يَكْرَهُ مِنْ قَوْلِ النِّسَاءِ لِلرِّجَالِ مِمَّا يَدْخُلُ فِي قُلُوبِ الرِّجَالِ. وَقَوْلُهُ: فَيُطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ يَقُولُ: فَيُطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ ضَعْفٌ فَهُوَ لَضَعْفِ إِيْمَانِهِ فِي قَلْبِهِ، إِمَّا شَاكٌ فِي الْإِسْلَامِ مُنَافِقٌ، فَهُوَ لَذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِ يَسْتَخْفُّ بِحُدُودِ اللَّهِ، وَإِمَّا مُتَهَاوِنٌ بِإِتْيَانِ الْفَوَاحِشِ. وَقَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْبِتَّأْوِيلِ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهَا وَصْفُهُ بِأَنَّ فِي قَلْبِهِ مَرَضًا، لِأَنَّهُ مُنَافِقٌ. ذَكَرَ مِنْ قَالَ ذَلِكَ: حَدَّثَنَا بَشْرٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا يَزِيدٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ فَيُطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ قَالَ: نِفَاقٌ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ وَصَفَهُ بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَسْتَهْوُونَ إِتْيَانِ الْفَوَاحِشِ. ذَكَرَ مِنْ قَالَ ذَلِكَ: حَدَّثَنَا بَشْرٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا يَزِيدٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ فَيُطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ قَالَ: قَالَ عِكْرِمَةُ: شَهْوَةُ الزَّوْنِ " (١).

فَالَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ: يَعْنِي بِهِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ ضَعْفٌ، فَهُوَ لَضَعْفِ إِيْمَانِهِ فِي قَلْبِهِ إِمَّا شَاكٌ فِي الْإِسْلَامِ مُنَافِقٌ، فَهُوَ لَذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِ يَسْتَخْفُّ بِحُدُودِ اللَّهِ، وَإِمَّا مُتَهَاوِنٌ بِإِتْيَانِ الْفَوَاحِشِ.

غَيْرَ أَنَّ هُنَالِكَ كَلَامًا حَوْلَ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ كَانُوا يَنْتَظِرُونَ وَفَاةَ الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ ﷺ لِيُخْلِفُوهُ فِي فِرَاشِهِ بِتَرْوِجِهِمْ مِنْ نِسَائِهِ، وَأَنَا أَعْتَذِرُ إِلَى الْقَارِئِ الْكَرِيمِ مِنْ هَذِهِ الْعِبَارَةِ عَلِمًا أَنَّ مُرَادِفَتَهَا لَنْ تَكُونَ أَظْرَفَ مِنْهَا، وَكَمْ هُوَ قَاسٌ عَلَى قُلُوبِ مُحِبِّي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ يَكْتَشِفُوا أَنَّ فِي أَصْحَابِهِ مَنْ كَانَ

هذا مراده. قال جلال الدين السيوطي: "أخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال أئحجبنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا من بعدنا؟ لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده!! فنزلت هذه الآية^(١). وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه قال: قال طلحة بن عبيد الله لو قبض النبي ﷺ تزوجت عائشة رضي الله عنها. فنزلت وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله الآية. وأخرج ابن سعد عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم في قوله وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله قال نزلت في طلحة بن عبيد الله لأنه قال إذا توفي رسول الله ﷺ تزوجت عائشة رضي الله عنها. بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال: أئحجبنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا من بعدنا؟ لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده فنزلت الآية^(٢)."

والآية المعنية هي قوله تعالى: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً﴾. وهذا سلوك أحد المبشرين بالجحنة، فما أدراك بمن هو ليس بمبشر. وقد آلمت هذه الكلمة رسول الله ﷺ وأذته وأوجعت قلبه، والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم.

قال الطبري: "وقوله ﴿رأيت الذين في قلوبهم مرض﴾ يقول: رأيت الذين في قلوبهم شك في دين الله وضعف ينظرون إليك يا محمد، نظر

١. [الآية ٥٣ من سورة الأحزاب آخرها قوله تعالى: وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً].

٢ - الدر المنثور لجلال الدين السيوطي، ج ٥ ص ٢١٤.

المغشي عليه من الموت خوفاً أن تُغزيهم وتأمّرهم بالجهاد مع المسلمين، فهم خوفاً من ذلك وتجنباً عن لقاء العدو ينظرون إليك نظر المغشي عليه الذي قد صُرع. وإنا عنى بقوله: من الموت من خوف الموت، وكان هذا فعل أهل النفاق^(١).

فـ(الذين في قلوبهم مرض) في هذه الآية هم الذين في قلوبهم شكّ في دين الله وضعف. فالمرض هو الشكّ والضعف. هل هو الشكّ وحده، أم الضعف وحده أم هما جميعاً؟ يبقى السؤال مطروحاً، لأنّ الدقّة مطلوبة والشكّ غير الضعف، والقضيّة تتعلّق بأعداء الإسلام الذين لا تزال آثار أعمالهم إلى اليوم تمزّق وحدة المسلمين وتوقد نيران الفتنة.

قال الطبري: "عن ابن عباس، قوله: أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم... إلى آخر الآية، قال: هم أهل النفاق، وقد عرفه إياهم في براءة، فقال: ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً، ولا تقم على قبره، وقال: قل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدوّاً. حدّث عن الحسين قال: سمعت أبا معاذ يقول: أخبرنا عبيد قال: سمعت الضحّاك يقول في قوله: أم حسب الذين في قلوبهم مرض.. الآية، هم أهل النفاق فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنّهم في لحن القول فعرفه الله إياهم في سورة براءة، فقال: ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً، وقال قل لن تنفروا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدوّاً. حدّثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب،

قال: قال ابن زيد في قوله: أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم قال: هؤلاء المنافقون. قال والذي أسروا من التفاق هو الكُفْر. قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله: ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم قال: هؤلاء المنافقون، قال: وقد أراه الله إياهم، وأمرهم أن يخرجوا من المسجد قال: فأبوا إلا أن تمسكوا بلا إله إلا الله، فلما أبوا إلا أن تمسكوا بلا إله إلا الله حُقت دماؤهم، ونكحوا ونوكحوا بها، وقوله: ولتعرفتهم في لحن القول يقول: ولتعرفن هؤلاء المنافقين في معنى قولهم ونحوه".^(١)

الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ هُنَا هُمْ أَهْلُ التَّفَاقِ، وَقَدْ عَرَفَهُ إِيَاهُمْ فِي بَرَاءة؛ هكذا يقول الطَّبْرِيُّ. لكن هل عَرَفَهُ جميع المنافقين؟ والآية الشريفة تقول "وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرِينَاكُمْ فَلَاعْرِفْتُهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ..."، فالمعرفة معلّقة على الإراءة، وهذا له شبيه في القرآن في مواضع عديدة منها قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ. لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ ولم يجعله سبحانه وتعالى أجاجاً إلى يومنا هذا، لم يقل بذلك أحد! ومنها قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرَثُونَ. أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ. لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ. إِنَّا لَمَغْرُمُونَ. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾.^(٢) وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَتَلَّى

١ - جامع البيان، الطَّبْرِيُّ، ج ٢٦ ص ٧٨.

٢ - الواقعة: ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧.

٣ - الأعراف: ١٠٠.

عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين^(١). ولم يقولوا مثله. ولو قالوا لا تنفى الإعجاز الباقي إلى يومنا هذا.

ومنها قوله: ﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ولو نشاء لمسخناهم على مكائنتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون﴾^(٢).

كل هذه الآيات فيها " لو نشاء " وأمرٌ معلقٌ بالمشيئة، إلا أن المشيئة لم تتحقق فعلاً؛ فلا يتحقق ما تعلق بها.

ثم إن في سورة التوبة وهي من أواخر السور نزولاً آيةٌ يفهم منها أن النبي ﷺ لم يكن يعلم جميع المنافقين، وهي الآية (١٠١) فيها قوله تعالى: ﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب أليم﴾. ولم يتحدث أهل التفسير عن نسخ بخصوص هذه الآية - وهذا على رأي من يقول بالنسخ في الخبر تنزلاً، والفقهاء على خلافه كما يأتي لاحقاً - بل ذكر جلهم أن سورة التوبة نزلت جملة واحدة. ومن ناحية الترتيب الزمني سورة التوبة متأخرة عن سورة محمد. فقوله قد عرفه إياهم يفترق إلى دليل^(٣). وكون سورة التوبة آخراً نزل معلوم عند القراء

١- الأنفال ٣١.

٢- يس ٦٦، ٦٧.

٣- قال ابن حزم في المحل ج ١١، ص ٢٢٤: وأما حديث جابر فراويه أبو سفيان طلحة بن نافع وهو ضعيف ثم لو صحت لما كانت فيه حجة لأنه ليس فيه إلا هبوب الريح لموت عظيم من عظماء المنافقين فإنما في هذا

والمفسرين، وممن ذكر ذلك: ابن شهاب الزهري^(١) والسيوطي^(٢) في الإتيان^(٣). وفي ترتيب البرهان^(٤) تأتي سورة محمد بعد سورة الحديد فيكون ترتيبها رقم ٩٤. وأشار في البرهان أيضاً^(٥) إلى أن سورة براءة آخر ما نزل وذكر مثله الكرمي في الناسخ والمنسوخ^(٦). وقال النحاس في الناسخ والمنسوخ بخصوص سورة التوبة: "قال أبو جعفر لا أعلم اختلافاً أنها من آخر ما نزل بالمدينة ولذلك قلّ المنسوخ فيها، ويدلّك على ذلك ما حدّثنا به أحمد بن عمر بن عبد الخالق قال حدّثنا محمد بن المثني وعمرو بن عليّ قالوا حدّثنا يحيى بن سعيد قال حدّثنا عوف الأعرابي عن يزيد الفارسيّ قال حدّثنا ابن عباس قال قلنا لعثمان بن عفان رضي الله عنه ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة^(٧) وهي من المثني فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتهما في السبع الطوال، ما حملكم على هذا؟ فقال "كان رسول الله تنزل عليه السور ذوات العدد فإذا

انكشف أمره بعد موته فلم يوقن قط بأن رسول الله ﷺ علم نفاقه في حياته فلا يجوز أن يقطع بالظن على رسول الله ﷺ.

١ - تنزيل القرآن ص ٢١، دار الكتاب الحديث بيروت ١٩٨٠.

٢ - الإتيان - السيوطي، ج ١، ص ٤٨ و ص ٨٤.

٣ - ترتيب البرهان في علوم القرآن ج ١، ص ١٩٤، دار المعرفة بيروت ١٣٩١ هـ.

٤ - المصدر السابق، ج ١ ص ٢٠٩.

٥ - الناسخ و المنسوخ - الكرمي، ج ١، ص ١٠٢، دار القرآن الكريم ١٤٠٠.

٦ - براءة هي سورة التوبة قال الزركشي في البرهان في علوم القرآن ج ١، ص ٢٦٩، دار المعرفة، بيروت ١٣٩١ هـ. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم): وقد يكون لها أي للسورة أكثر من ذلك كسورة براءة والتوبة والفاضحة والخافرة لأنها حفرت عن قلوب المنافقين. قال ابن عباس: ما زال ينزل ومنهم حتى ظننا أنه لا يبقى أحد إلا ذكر فيها. وقال حذيفة: هي سورة العذاب. وقال ابن عمر: كنا ندعوها المشققة. وقال الحارث بن يزيد: كانت تدعى المبعثرة ويقال لها المسورة ويقال لها البحوث.

نزلت عليه الآية قال اجعلوها في سورة كذا وكذا فكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل، وكانت قصتها تشبه قصتها، ولم يبين لنا رسول الله في ذلك شيئاً^(١)، فلذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم^(٢)، وأيضاً في أحكام القرآن مثله^(٣).

وقال ابن الجوزي: "والنسخ إنما يقع في الأمر والنهي دون الخبر المحض. والاستثناء ليس بنسخ ولا التخصيص. وأجاز بعض من لا يعتد بخلافه وقوع النسخ في الخبر المحض وسمى الاستثناء والتخصيص نسخاً والفقهاء على خلافه"^(٤).

قلت: فلا خلاف بينهم إذاً في أن سورة براءة من آخر ما نزل من القرآن الكريم، وليس بين آخر ما نزل سورة محمد ﷺ؛ بل خلافهم في سورتي براءة والمائدة أيتها المتأخرة نزولاً وإنما يُستشف من وراء اضطرابهم وتضاربهم صيانة مسألة عدالة جميع الصحابة لا أكثر، والعجب من إصرار الطبري على اعتبار (الذين في قلوبهم مرض) المنافقين كأنها هو أمر مُسلم به لا يحتاج إلى مؤونة!

قال الطبري: "حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله: أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم قال: هؤلاء المنافقون، قال: والذي أسروا من التفاق هو الكفر"^(٥).

١ - (لم يبين لنا رسول الله في ذلك شيئاً) هذا كلام خطير. وما الذي منعهم أن يسألوه أن يبين لهم في ذلك؟

٢ - النسخ والنسخ - النحاس - ج ١، ص ٤٧٧، مكتبة الفلاح الكويت ١٤٠٨ هـ.

٣ - أحكام القرآن، ج ١ ص ١٠، دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤٠٥ هـ.

٤ - المصنف من علم النسخ والنسخ، ج ١ ص ١٢ مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٥ هـ.

إذاً يكون الكُفْر والنِّفاق شيئاً واحداً، والله سبحانه وتعالى يقول: إن الله جامعُ المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً^(١)، فهل يُجمَع الشيء الواحد ونفسه جميعاً؟! وكيف يُجمع الواحد، والواحد في مُقابل الجمع، والمتقابلان - خصوصاً في هذا المقام من التَّباين - قطعاً لا يجتمعان؟! ثم هل أصبح عطف الشيء على نفسه - وهو المُستهجَن في لغة العرب - أمراً طبيعياً في القرآن الكريم؟

وهذا ابن تيمية يقول: "ثم قال ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده...﴾ فهذا وصف الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، الذين يوالون الكُفَّار المنافقين"^(٢). وإن صحَّ قوله هذا انتفى تغاير الطوائف في سورة المدثر وكفى بذلك تلاعباً بكتاب الله تعالى!

قال الطَّبْرِيّ: "حدَّثني حجاج، عن ابن جريج، في قوله: إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مَرَضٌ قال: لما دنا القوم بعضهم من بعض، فقلّل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلّل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون: غر هؤلاء دينهم، وإنّا قالوا ذلك من قلّتهم في أعينهم، وظنّوا أنّهم سيهزمونهم لا يشكّون في ذلك، فقال الله: ومن يتوكّل على الله فإنّ الله عزيز حكيم"^(٣).

القائلون حسب الآية الشريفة هم المنافقون والَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ. لكنّهم حسب هذا التفسير هم المشركون الذين جاءوا لمحاربة رسول

١ - سورة النساء: الآية ١٤٠.

٢ - منهاج السنة النبوية، ابن تيمية ج ٧ ص ١٩.

٣ - جامع البيان - الطَّبْرِيّ ج ١٠ ص ٢٩.

الله ﷻ في بدر. كيف تمّ ذلك ؟

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: لئن لم ينته أهل النفاق، الذين يستسرون الكُفْر، ويظهرون الإيمان، والَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَعْنِي: رِيَّةٌ مِنْ شَهْوَةِ الزَّنا وَحُبِّ الفجور. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل"^(١).

فالذين في قلوبهم مرض: يَعْنِي رِيَّةٌ مِنْ شَهْوَةِ الزَّنا وَحُبِّ الفجور. قال الطبري: "وقوله ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ النفاق، والكَافِرُونَ بالله من مشركي قريش ماذا أراد الله بهذا مثلاً، كما حدّثنا بشر، قال حدّثنا يزيد، قال حدّثنا سعيد، عن قتادة وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ: أَي نِفَاق. حدّثني يونس قال أخبرنا ابن وهب، قال قال ابن زيد، في قوله: وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ ماذا أراد الله بهذا مثلاً يقول: حتى يخوفنا هؤلاء التسعة عشر"^(٢).

قلت: وعليه يكون معنى الذين في قلوبهم مرض: (هم المنافقون). ولا يصحّ التسليم بهذا النحو من التفسير، لأنّ الذين في قلوبهم مرض وردت قسماً للمنافقين في مواضع عديدة من الذكر الحكيم، منها قوله تعالى ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ﴾ وعطف الشيء على نفسه قبيح، بل غير جائز، ولو أريد به المنافقون لحذفت الواو وتكون

١ - نفس المصدر ج ٢٢ ص ٥٨.

٢ - جامع البيان - ابن جرير الطبري ج ٢٩ ص ٢٠٢.

الآية: إذ يقول المنافقون الذين في قلوبهم مرض بجعل (الذين في قلوبهم مرض) صفةً للمنافقين، ويمنع الالتباس، ومنع الالتباس مطلوب في كلام المخلوق فكيف بكلام الخالق الذي قال عنه ﴿وهذا لسان عربي مبين﴾ ولا يكون مبيناً إلا بتمام البيان، ولا يجتمع البيان والالتباس، وإثما يتم البيان إذا لم يكن هناك التباس، أي التباس.

ويتلخص مما سبق أن الذين في قلوبهم مرض عند الطبري تعني ما يلي:

(١) شك في الإيمان، وضعف في اعتقادهم إياه. (٢) معتب بن قشير، إذ قال ما قال يوم الخندق ما قال (٣) الذي في قلبه ضعف فهو لضعف إيمانه في قلبه، إمّا شكاً في الإسلام منافق، فهو لذلك من أمره يستخفّ بحدود الله، وإمّا متهاون بإتيان الفواحش. (٤) وصفه بأنّ في قلبه مرضاً لأنّه منافق. (٥) عن قتادة فيطمع الذي في قلبه مرض قال: نفاق. (٦) وقال آخرون: بل وصفه بذلك لأنهم يشتهون إتيان الفواحش. (٧) عن قتادة فيطمع الذي في قلبه مرض قال قال عكرمة: شهوة الزنا (٨) الذين في قلوبهم شك في دين الله وضعف هم أهل النفاق. (٩) هؤلاء المنافقون. (١٠) المشركون الذين جاءوا لمحاربة النبي ﷺ في بدر. (١١) الذين في قلوبهم ريبة من شهوة الزنا وحبّ الفجور. (١٢) الذين في قلوبهم مرض: هم المنافقون!

(الذين في قلوبهم مرض) في معاني القرآن (النّحاس)

قال النّحاس في معاني القرآن:

" ثمّ قال تعالى ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ﴾، روى السّديّ عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عبّاس قال: يقول في قلوبهم شكّ؛ وقال غيره: المرضُ النّفاق والرياء. والمرض في الجسد كما أنّ العمى في القلب. ويُقال مريض فلان أصابته علة في بدنه، فإن قيل بِمَ أصابهم المرض؟ قيل فعل هذا بهم عقوبة. وقيل يانزال القرآن أصابهم المرض كما قال تعالى وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أتيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون. ثمّ قال تعالى ولهم عذاب اليم^(١)."

المرض: الشكّ والرياء والنّفاق.

قال النّحاس: " وقوله عزّ وجلّ: ﴿ فترى الذين قلوبهم مرض ﴾ أي نفاق ﴿ يسارعون فيهم ﴾ المعنى يسارعون في معاونتهم ثمّ حذف كما قال جلّ وعزّ (واسأل القرية) ثمّ قال جلّ وعزّ ﴿ يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ﴾ في معناه قولان أحدهما روي عن ابن عبّاس قال يقولون نخشى أن لا يدوم الأمر لمحمّد؛ والقول الآخر نخشى أن يصيبنا قحط فلا يفضلوا علينا. والقول الأوّل أشبه بالمعنى كأنه من دارت تدور أي نخشى أن يدور أمر ويدلّ عليه قوله جلّ

وعزّ (فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده) لأنّ الفتح النّصرُ قال ابن عباس فأتى الله بالفتح فقُتِلَتْ مقاتلة بني قُريظة وسُبيت ذراريهم وأُجليّ بنو النّضير وقيل معنى (أو أمرٍ من عنده) أي بأمر النّبي ﷺ أن يُجبر بأسماء المنافقين (فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين) ^(١). المرّض هنا: هو النّفاق، فالذين في قلوبهم مرض هم المنافقون. ثم قال: "ثم قال جلّ وعزّ وأما (الذين قلوبهم مرض) (الآية ١٢٥) أي شكّ فزادتهم رجساً إلى رجسهم أي كفراً إلى كفرهم" ^(٢). فالمرّض هو: الشكّ والرجس هو الكفر.

قال النّحاس: "روى الليث عن يونس عن الزّهرّي قال:

أخبرني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أنّ النّبي ﷺ قرأ بِمَكّة والنّجم إذا هوى فلمّا بلغ إلى قوله تعالى أفرايتم اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى سها فقال فإنّ شفاعتهم ترتجى، فلقية المشركون والذين في قلوبهم مرض فسلموا عليه فقال إنّ ذلك من الشيطان! فأنزل الله جلّ وعزّ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ إلّا إذا تمنّى ألقى الشيطان في أمنيته إلى آخر الآية" ^(٣). استعمل النّحاس العبارة هنا في معرض نقل ما رواه ابن هشام، وليس واضحاً إن كان حكاها أم هي من كلامه هو. ومهما يكن فإنّ (الذين في قلوبهم مرض) هنا غيرُ منافقي

١ - معاني القرآن - النّحاس، ج ٢ ص ٣٢١-٣٢٢.

٢ - نفس المصدر ج ٣ ص ٢٦٨.

٣ - معاني القرآن، النّحاس، ج ٤ ص ٤٢٥-٤٢٦.

الْمَدِينَةَ لِأَنَّ الْقِصَّةَ وَقَعَتْ فِي مَكَّةَ. فـ(الذين في قلوبهم مرض) قومٌ في مَكَّةَ وليسُوا المشركين لَمَّا كَانَ الْعُطْفُ.

وقال: "وقوله جَلَّ وعَزَّ ليجعل ما يلقي الشيطان فتنَةً للذين في قلوبهم مرض الآية ٥٣ فتنَةً أي اختباراً وامتحاناً والله جَلَّ وعَزَّ يَمْتَحِنُ بِمَا يَشَاءُ"^(١).

لم يذكر النَّحَّاسُ هُنَا تَفْسِيرَ الْعِبَارَةِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ!

ثم قال: "ثم قال جَلَّ وعَزَّ وإذ يقول المنافقون والذين قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً (الآية ١٢). قال قتادة: قال قومٌ من المنافقين وعدنا محمد أن نفتَحَ قِصُورَ الشَّامِ وفارس وأحدنا لا يقدِر أن يجاوزَ رحلَه ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً"^(٢). فالذين في قلوبهم مرض قوم من المنافقين.

وقال: "وقوله جَلَّ وعَزَّ فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض (الآية ٣٢)، يقال خضع في قوله إذا لَانَ ولم يَبَيِّنْ وَيَبَيِّنْهُ قوله تعالى وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا أي بَيِّنًا ظَاهِرًا. قال قتادة والسَّدي فيطمع الذي في قلبه مرض أي شكَّ وَنَفَاق. قال عِكْرِمَةُ هو شهوةُ الزَّنى"^(٣).

وعليه، فالذي في قلبه مرض هو الذي في قلبه شكَّ وَنَفَاق.

وأيضاً الذي في قلبه شهوةُ الزَّنى.

قال النَّحَّاسُ: "وقوله جل وعز ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين قلوبهم مرض

١ - معاني القرآن، النَّحَّاسُ ج ٤ ص ٤٢٧.

٢ - نفس المصدر السابق، ج ٥ ص ٣٣٠.

٣ - معاني القرآن، النَّحَّاسُ، ج ٥ ص ٣٤٥.

والمرجفون في المَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ﴿٦٠﴾ (الآية ٦٠) قال قتادة: كان ناسٌ من المنافقين أرادوا أن يُظهروا نِفَاقَهُمْ فَأَنزَلَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ لَنُ لَمْ يَنْتَهُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ أَي لَنَحْرَشَنَّكَ عَلَيْهِمْ. وقال مالك بن دينار سألت عكرمة عن قوله (والذين قلوبهم مرض) فقال الزنى، وكذلك شهر بن حوشب. وقال طاووس: نزلت هذه الآية في أمر النساء. وقال سلمة بن كهيل: نزلت في أصحاب الفواحش ^(١). فالمرض في قول عكرمة هو الزنى، وفي قول طاووس تكون الآية نازلة في أمر النساء. وأمّا في قول سلمة بن كهيل فهي في أصحاب الفواحش. قال النّحاس: "﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ مَرَضٌ﴾ أَي رَيْبٌ وَشَكٌّ ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أَي نَظَرَ مَغْطَاظِينَ مَغْمُومِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ وَإِنَّمَا كَانُوا يَكْرَهُونَ ذِكْرَ الْقِتَالِ لِأَنَّهُمْ إِذَا تَأَخَّرُوا عَنْهُ تَبَيَّنَ نِفَاقُهُمْ فَخَافُوا الْقِتْلَ" ^(٢). فـ(الذين في قلوبهم مرض) هم الذين في قلوبهم شك ونفاق. ثم قال في تفسير الآية من سورة محمد ﷺ: "وقوله جَلَّ وَعَزَّ أم حسب الذين قلوبهم مرض أن لن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ (الآية ٢٩) أي عداوتهم أي يظهروا عداوتهم لأهل الإسلام".

١ - معاني القرآن ج ٥ ص ٣٧٩ - ٣٨٠.

٢ - معاني القرآن ج ٦ ص ٤٧٩.

٣ - معاني القرآن، النحاس، ج ٦ ص ٤٨٥.

فلم يتعرّض لبيان (الذين في قلوبهم مرض) كأنّها أصبح اعتبارُها مرادفةً لكلمةِ المنافقين من المسلمّات.

هذا ما جاء في تفسير النّحاس، وهو لم يخرج عن نهج سابقه في ترسيخ مُرادِفِيّة (الذين في قلوبهم مرض) لـ (المنافقين)، وقد بَانَ ذلك من خلال تجاهله للعبارة في سورة محمد ﷺ.

ويتلخّص ممّا سبق أنّ (الذين في قلوبهم مرض) في تفسير النّحاس تعني:
 (١) الذين في قلوبهم الشكّ والرياء والتّفاق. (٢) (الذين قلوبهم مرض) أي نفاق. (٣) قال قوم من المنافقين. (٤) الذي في قلبه شهوةُ الزّنى. (٥) الذين في قلوبهم ريْبٌ وشكّ.

الفصل الثالث

الذين في قلوبهم

في

نظر مفسري القرن الخامس

• الثعلبي

• الواحدي

(الذين في قلوبهم مرض في تفسير الثعلبي)

قال الثعلبي في تفسيره:

﴿في قلوبهم مرض﴾ شك ونفاق، ومنه يُقال: فلان يمرض في الوعد إذا لم يُصحِّه، وأصل المرض: الضعف والفتور. فسَمِيَ الشَّكُّ في الدِّين والنِّفاق (مرض) به يضعف البدن وينقص قواه؛ ولأنَّه يؤدِّي إلى الهلاك بالعذاب، كما أنَّ المرض في البدن يؤدِّي إلى الهلاك والموت^(١).

وقال: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾ الآية، يعني عبد الله بن أبيٍ وصحبه من المنافقين الذين كانوا يوالون اليهود ويصانعونهم ويناصحونهم.^(٢) وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ إلى قوله ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾، يعني عبد الله بن أبيٍ بن سلول إلى قوله ﴿إنما وليكم الله وسوله والذين آمنوا﴾ يعني عبادة بن الصَّامت، وأصحاب رسول الله.^(٣)

وقال: "﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض شك ونفاق﴾".

وقال: "﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾ شك ونفاق..."^(٤)

١ - تفسير، الثعلبي، ج ١ ص ١٥٤.

٢ - نفس المصدر، ج ٤ ص ١٧٦.

٣ - نفس المصدر، ج ٤ ص ٨٠.

٤ - نفس المصدر، ج ٥ ص ١١٣.

وقال: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ يعني معتب بن قشير وأصحابه ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شكّ وضعف اعتقاد.

وقال: قوله عزّ وجلّ: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ فجور، يعني الزّناة.

وقال: "رَأَيْتُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ" يعني المنافقين^(١).

وقال: "أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ" شكّ، يعني المنافقين ﴿أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ أحقادهم على المؤمنين، واحداها ضغن^(٢).

وقال: "يزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب، يشكّ" الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض ﴿شكّ ونفاق قاله أكثر المفسرين. وقال الحسين بن الفضل: السّورة مكيّة ولم يكن بمكّة البتّة نفاق فالمرض في هذه الخلاف لا النّفاق"^(٣).

وعليه يكون معنى الذين في قلوبهم مرض في نظر الثعلبي:

(١) في قلوبهم مرض: شكّ ونفاق. (٢) يعني عبد الله بن أبيّ وصحبه من المنافقين الذين كانوا يوالون اليهود ويصانعونهم ويناصحونهم. (٣) مرض شكّ ونفاق. (٤) في قلوبهم مرض شكّ وضعف اعتقاد. (٥) يعني المنافقين. (٦) والذين في قلوبهم مرض فجور، يعني الزّناة. (٧) الذين في قلوبهم مرض شكّ ونفاق قاله أكثر المفسرين.

١ - تفسير، الثعلبي، ج ٩ ص ٣٥.

٢ - نفس المصدر السابق، ج ٩ ص ٣٧.

٣ - نفس المصدر، ج ١٠ ص ٧٤.

(الذين في قلوبهم مرض) في تفسير الواحدي

قال الواحدي في تفسيره:

" في قلوبهم مرض شكّ ونفاق، فزادهم الله مرضاً أي بما أنزل من القرآن فشكّوا فيه كما شكّوا في الذي قبله. ولهم عذاب أليم مؤلم بما كانوا يكذبون بتكذيبهم آيات الله عزّ وجلّ ونبيّه. ومن قرأ يكذبون فمعناه بكذبهم في ادعائهم الإيـان"^(١).

المرض هو الشكّ والنفاق.

فالذين في قلوبهم مرض) هم أهل الشكّ والنفاق.

قال الواحدي:

" فترى الذين في قلوبهم مرض يعنّي عبد الله بن أبي وأصحابه يسارعون فيهم في مودة أهل الكتاب ومعاونتهم على المسلمين بإلقاء أخبارهم إليهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة أي يدور الأمر عن حاله التي يكون عليها يعنون الجذب فتقطع عنا الميرة والقرض. فعسى الله أن يأتي بالفتح يعنّي لمحمّد على جميع من خالفه أو أمر من عنده بقتل المنافقين وهتك سترهم. فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم يعنّي أهل النفاق على ما أضمرُوا من ولاية اليهود ودسّ الأخبار إليهم نادمين"^(٢).

(الذين في قلوبهم مرض) هم عبد الله بن أبي وأصحابه.

١ - تفسير الواحدي ج ١ ص ٩٢.

٢ - تفسير الواحدي، ج ١ ص ٣٢٣.

وقال: "إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض وهم قوم أسلموا بِمَكَّةَ ولم يهاجروا، فلَمَّا خرجت قريش لحرب رسول الله خرجوا معهم، وقالوا نكون مع أكثر الفئتين. فلما رأوا قلة المسلمين قالوا غرَّ هؤلاء دينهم إذ خرجوا مع قَلَّتْهم يقاتلون الجمع الكثير. ثم قُتِلُوا جميعاً مع المشركين. قال الله تعالى ومن يتوكل على الله يسلم أمره إلى الله فَإِنَّ اللَّهَ عزيز قويّ منيع حكيم في خلقه" (١).

(الذين في قلوبهم مرض) : هم قوم أسلموا بِمَكَّةَ ولم يهاجروا، فلَمَّا خرجت قريش لحرب رسول الله خرجوا معهم .

أقول: إذا كان الأمر كذلك فإنه يستلزم أن يكون الذين في قلوبهم مرض قُتِلُوا مع المشركين يوم بدر، وانتهى أمرهم، وإذا فَمَن الذين في قلوبهم مرض في سورة التوبة لدى العودة من غزوة تبوك، الذين يقول عنهم القرآن الكريم: (وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون)؟؟!

قال الواحدي: "صدقوا بالأولى والثانية وهم يستبشرون يفرحون بنزول السورة. ١٢٥ وأما الذين في قلوبهم مرض شكّ ونفاق فزادتهم رجساً إلى رجسهم كُفراً إلى كفرهم لأنهم كلّموا كفروا بسورة ازداد كفرهم. ١٢٦ ألا يرون أنهم يُفتنون في كل عام مرة أو مرتين يمتحنون بالأمراض والأوجاع وهنّ روائد الموت ثم لا يتوبون من النفاق ولا يتعظون كما يتعظ المؤمن بالمرض. ١٢٧ وإذا ما أنزلت سورة، كان إذا نزلت سورة فيها عيب المنافقين وتلا عليهم رسول الله شقّ ذلك عليهم، ونظر بعضهم إلى بعض يريدون الهرب من عند

رسول الله، وقال بعضهم لبعض: هل يراكم من أحد إن قمتم فإن لم يَرَهُمْ أحد خرجوا من المسجد وإن علموا أن أحداً يراهم ثبتوا مكانهم حتى يفرغ من خطبته ثم انصرفوا على عزم الكُفْر والتَّكْذِيب. صرف الله قلوبهم عن كل رشد وهدى بأنهم قوم لا يفقهون جزاء على فعلهم وهو أنهم لا يفقهون عن الله دينه وما دعاهم الله إليه^(١).

(الذين في قلوبهم مرض): هم الذين في قلوبهم شكّ ونفاق
قال الواحدي:

" ثم ذكر أن ذلك ليفتن الله به قوما فقال ٥٣ ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة ضلالة للذين في قلوبهم مرض وهم أهل النفاق، والقاسية قلوبهم المشركين، وإن الظالمين الكافرين لفي شقاق بعيد خلاف طويل مع النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين"^(٢).

(الذين في قلوبهم مرض): هم أهل النفاق

والقاسية قلوبهم: هم المشركون

قال الواحدي: "وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض شكّ ونفاق ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا إذ وعدنا أن فارس والروم يفتحان علينا. ١٣ وإذ قالت طائفة منهم من المنافقين يا أهل يثرب يعنني المدينة لا مقام لكم لا مكان

١ - نفس المصدر السابق ج ١ ص ٤٨٧ .

٢ - نفس المصدر السابق ج ٢ ص ٧٣٨

لكم تقيمون فيه فارجعوا إلى منازلكم بالمدينة أمروهم بترك رسول الله صلى الله عليه وآله وخذلانه وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله كان قد خرج من المدينة إلى سلع لقتال القوم، ويستأذن فريق منهم من المنافقين النبي في الرجوع إلى منازلهم يقولون إن بيوتنا عورة ليست بحصينة، نخاف عليها العدو . قال الله تعالى وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً من القتال^(١).

الذين في قلوبهم مرض : الذين في قلوبهم شك ونفاق

وقال الواحدي :

"لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض يعنّي الزّناة والمرجفون في المدينة الذين يوقعون أخبار السرايا بأنهم هزموا بالكذب والباطل لنغرينك بهم لنسلطنك عليهم ثم لا يجاورونك فيها لا يساكنونك في المدينة إلا قليلا حتى يخرجوا منها. ٦١ ملعونين مطرودين أينما ثقفوا وجدوا أخذوا وقتلوا تقتيلا. ٦٢ سنة الله في الذين خلوا من قبل سنّ الله في الذين ينافقون الأنبياء ويرجفون بهم أن يقتلوا حيث ما ثقفوا"^(٢).

الذين في قلوبهم مرض : يعنّي الزّناة

قال الواحدي :

"ويقول الذين آمنوا حرصاً منهم على الوحي إذا استبطأوه لولا نزلت سورة، فإذا أنزلت سورة محكمة غير منسوخة وذكر فيها فرض القتال رأيت الذين في

١ - نفس المصدر السابق ج ٢ ص ٨٦٠ .

٢ - نفس المصدر السابق ج ٢ ص ٨٧٤ .

قلوبهم مرض أي المنافقين ينظرون إليك شزراً نظراً المغشي عليه من الموت كنظر من وقع في سكرات الموت كراهة منهم للقتال فأولى لهم. ٢١ طاعة وقول معروف أي لو أطاعوا وقالوا لك قولاً حسناً كان ذلك أولى. فإذا عزم الأمر أي جد الأمر ولزم فرض القتال فلو صدقوا الله في الإيمان والطاعة لكان خيراً لهم. ٢٢ فهل عسيتم إن توليتم أي لعلكم إن أعرضتم عما جاء به محمد عليه السلام أن تعودوا إلى أمر الجاهلية فيقتل بعضكم بعضاً، وهو قوله أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أي بالبغي والظلم والقتل^(١).

الذين في قلوبهم مرض: المنافقون

قال الواحدي :

" أم حسب الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون أن لن يُخرج الله أضغانهم لن يظهر الله أحقادهم على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. ٣٠ ولو نشاء لأريناكم لعرفناكم فلعرفتهم بسيماهم بعلامتهم ولتعرفنهم في لحن القول في معنى كلامهم إذا تكلموا معك"^(٢).

لكن تجدر الإشارة إلى تفسير الآيات التي سبقتها، وهي قوله تعالى: أفلا يتدبرون القرآن فيتعظوا بمواعظه أم على قلوب أقفالها فليس تفهمها. ٢٥ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى يعني كفار أهل الكتاب كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وهم يعرفونه الشيطان سؤل لهم زين لهم

١ - نفس المصدر السابق ج ٢ ص ١٠٣.

٢ - تفسير الواحدي ج ٢ ص ١٠٤.

وأملئ لهم أطال لهم الأمل. ٢٦ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله يعني المشركين سنطيعكم في بعض الأمر في التظاهر على عداوة محمد صلى الله عليه وسلم . ٢٧ فكيف أي فكيف يكون حالهم إذا توفتهم الملائكة ...

(الذين قلوبهم مرض) : هم المنافقون .

وقال الواحدي :

" وليقول الذين في قلوبهم مرض شكّ والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً أي شيء أراد الله بهذا العدد وتخصيصه. كذلك كما أضلهم الله بتكذيبهم يضلّ الله من يشاء ويهدي من يشاء. وما يعلم جنود ربك إلا هو. هذا جواب لقولهم ما أعوانه إلا تسعة عشر، وما هي أي النار إلا ذكرى للبشر. أي أنها تذكرهم في الدنيا النار في الآخرة"^(١).

الذين في قلوبهم مرض : الذين في قلوبهم شكّ.

وللواحدي النيسابوري قول أيضاً في أسباب نزول الآيات ص ٦٥ "...الثالثة فبرق الذي رأيتم، أضاءت لي منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب. وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة عليها، فأبشروا. فاستبشر المسلمون وقالوا: الحمد لله موعد صدق. وعدنا النصر بعد الحفر؛ فقال المنافقون: ألا تعجبون يمينكم ويعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يشرب قصور الحيرة ومدائن..؟ قال: فتزل القرآن: وإذا يقول المنافقون والذين قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا - وأنزل الله تعالى في هذه القصة قوله -

قل اللهم مالك الملك.. الآية(اه).

ولا يخفى ما في تفسير الآية من جعل الذين في قلوبهم مرض هم المنافقين، و الحال أنَّهما طائفتان متمايزتان.

ويتلخص مما سبق أن الذين في قلوبهم مرض في تفسير الواحدي تعني ما يلي:

١ - الذين في قلوبهم مرض هم أهل الشكّ والنفاق.

٢ - الذين في قلوبهم مرض هم عبد الله بن أبي وأصحابه.

٣ - هم قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا، فلما خرجت قريش لحرب رسول الله خرجوا معهم وقالوا: نكون مع أكثر الفئتين. فلما رأوا قلة المسلمين قالوا غر هؤلاء دينهم إذ خرجوا مع قلتهم يقاتلون الجمع الكثير. ثم قُتلوا جميعاً مع المشركين.

٤ - الذين في قلوبهم مرض: شك ونفاق.

٥ - الذين في قلوبهم مرض: هم الذين في قلوبهم شكّ ونفاق.

٦ - الذين في قلوبهم مرض: هم أهل النفاق.

٧ - الذين في قلوبهم مرض : الذين في قلوبهم شكّ ونفاق.

٨ - الذين في قلوبهم مرض : يعنّي الزّناة.

٩ - الذين في قلوبهم مرض : المنافقون.

١٠ الذين في قلوبهم مرض: الذين في قلوبهم شكّ

الفصل الرابع

الذين في قلوبهم مرض
في
نظر مفسري القرن السادس

- البغوي
- ابن الجوزي
- النسفي

(الذين قلوبهم مرض) في تفسير البغوي

قال البغويّ في تفسيره:

" في قلوبهم مرض شك ونفاق. وأصل المرض الضعف، سُمِّيَ الشكّ في الدّين مرضاً لأنّه يضعف الدّين كالمريض يضعف البدن. فزادهم الله مرضاً لأنّ الآيات كانت تنزل تترى آية بعد آية، كلّما كفروا بآية ازدادوا كفراً ونفاقاً. وذلك معنى قوله تعالى وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم؛ قرأ ابن عامر وحمة فزادهم بالإمالة وزاد حمزة إمالة زاد حيث وقع وزاغ وخاب وطاب وحاق وضاق، والآخرون لا يميلونها. ولهم عذاب أليم مؤلم يخلص وجعه إلى قلوبهم بما كانوا يكذبون. ما للمصدر أي بتكذيبهم الله ورسوله في السرّ. وقرأ الكوفيون يكذبون بالتخفيف أي بكذبهم إذا قالوا آمنا وهم غير مؤمنين"^(١).

ولا يخفى ما في هذا التفسير من التركيز على المنافقين دون غيرهم لأنّه يقول [بتكذيبهم الله ورسوله في السرّ] وهذا شأن المنافقين، بخلاف المؤمنين الذين قد تعرض لهم شبهات كما سبق أن أشار إليه المفسرون قبله.

فالذين في قلوبهم مرض هنا هم الذين في قلوبهم مرض شكّ ونفاق.

قال البغويّ: " فترى الذين قلوبهم مرض أي نفاق يعني عبد الله بن أبيّ وأصحابه من المنافقين الذين يوالون اليهود يسارعون فيهم في معונاتهم

وموالاتهم، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة دولة يعني أن يدول الدهر دولته فنحتاج إلى نصرهم إيانا. وقال ابن العباس رضي الله عنهما معناه نخشى أن لا يتم أمر محمد فيدور الأمر علينا. وقيل نخشى أن يدور الدهر علينا بمكروه من جذب وقحط ولا يعطونا الميرة والقرض. فعسى الله أن يأتي بالفتح، قال قتادة ومقاتل: بقضاء الفصل من نصر محمد ﷺ على من خالفه. وقال الكلبي والسدي: فتح مكة. وقال الضحاك: فتح قرى اليهود مثل خيبر وفدك. أو أمر من عنده قيل بإتمام أمره ﷺ وقيل عذاب لهم. وقيل إجلاء بني النضير. فيصبحوا يعني (هؤلاء المنافقون) على ما أسروا في أنفسهم من موالاة اليهود ودس الأخبار إليهم نادمين^(١).

الذين في قلوبهم مرض يعني عبد الله بن أبي وأصحابه من المنافقين الذين يوالون اليهود.

قال البغوي: "وقيل في الجهاد وذلك أن المنافقين كرهوه كما قال الله تعالى فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت. كرهه بعض المؤمنين. قال الله تعالى: ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم الآية فكان النبي ﷺ يمسك في بعض الأحيان عن الحث على الجهاد لما يعلم من كراهة بعضهم فأنزل الله هذه الآية. [والآية قوله تعالى يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ]"^(٢).

١ - تفسير البغوي، ج ٢ ص ٤٤.

٢ - تفسير البغوي، ج ٢ ص ٥٢.

ماذا يقصد البغويّ بقوله كرهه بعض المؤمنين؟

وماذا يقصد بقوله كان النَّبِيُّ ﷺ يمسك في بعض الأحيان عن الحث على الجهاد؟ وأنّى للنبي ﷺ ذلك والقرآن الكريم يهتف بقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ وقوله تعالى ﴿حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾؟!

وكيف يُمسك النبي ﷺ عن ذلك وهو أسرع إلى طاعة ربه من السيل إلى منتهاه؟ أوليس هو الذي يقرأ على الناس قرآناً فيه قوله تعالى ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؟

أوليس هو الذي يقرأ على الناس قرآناً فيه قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوعٌ﴾؟

فكيف يقول عاقل إن النبي ﷺ كان يقدم إرضاء قوم يكرهون القتال على إرضاء ربه جلّ وعلا؟

ثم إن هذه الآية من سورة المائدة، وهي من آخر ما نزل^(١)، على خلاف بينهم فيها وفي براءة أيتها الآخرة نزولاً، فهل يعرف البغويّ غزوة بعد حجة الوداع غابت عن المؤرّخين وكتاب السيرة؟

١ - ذكروا أنّ الآية نزلت في حجة الوداع، قال بعضهم يوم عرفة وقال آخرون يوم الغدير، وعلى كلا التقديرين فالآية نزلت قبل وفاة النبي ﷺ بأسابيع.

إنَّ البغويَّ بكلامه هذا ينحو منحى خطيرا وينسب إلى النَّبيِّ ﷺ التَّقْصِيرَ في أمر الله والإمساك عن التَّحْرِيزِ على القتال، وهي سابقة خطيرة؛ لأنَّ معنى ذلك أَنَّهُ ﷺ كان يتوانى في طاعة ربِّه في مسألة أساسية في الشريعة، بها قام الدين وبها دوائه. ولعلَّ البغويَّ بكلامه هذا يريد صرفَ الأذهان عن واقعة الغدير، ولا يبعد أن يكون منفرداً بهذا الرأي، وهو رأي عجيب حقاً. لأنَّ المفسرين الذين ذكروا قضية الغدير ليسوا بمتهمين فيها، أمّا في مدرسة أهل البيت فأمرها مسلّم لا يقبل الجدل. وأمّا في مدرسة الجمهور فلأنَّ فيهم متعصّبين ضدَّ شيعة أهل البيت عليهم السلام ومتحاملين عليهم. وممّن ذكر الواقعة الواحديُّ في أسباب النزول، والقرطبيُّ، وأبو السَّعود، والفخر الرَّازيُّ في تفسيره الكبير، وابن كثير في تفسيره، والنيشابوريُّ في قوله تعالى: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً في سورة المائدة. وقوله فيها: يا أيُّها الرّسول بلِّغ ما أنزل إليك من ربك.. الآية، وجلال الدّين السيوطيُّ في تفسيره، والآلوسيُّ البغداديُّ في روح المعاني، وهؤلاء أئمة التفسير في مدرسة الخلافة.

وقال البغويُّ: "أمّا الذين قلوبهم مرض شكّ ونفاق فزادتهم رجساً إلى رجسهم أي كفرهم، فعند نزول كلّ سورة ينكرونها يزداد كفرهم بها. قال مجاهد هذه الآية إشارة إلى الإيمان يزيد وينقص، وكان عمر يأخذ بيد الرجل والرّجلين من أصحابه فيقول تعالوا حتى نزداد إيماناً. وقال عليّ بن أبي طالب إنّ الإيمان يبدو لمعة بيضاء في القلب فكُلِّمًا ازداد الإيمان عظماً ازداد ذلك البياض حتّى يبيضّ القلب كلّهُ. وإنّ النفاق يبدو لمعة سوداء في القلب، فكُلِّمًا

ازداد التَّفَاقُ ازداد السَّواد حَتَّى يَسودَّ القلب كله. وأيم الله لو شققتُم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيضَ ولو شققتُم عن قلب منافق لوجدتموه أسوداً^(١).

(الذين قلوبهم مرض) فسره بالذين في قلوبهم شكٌ ونفاق.

قال البغوي: "رأيت الذين قلوبهم مرض يَعْنِي المنافقين ينظرون إليك شزراً بتحديق شديد كراهيةٍ منهم للجهاد، وجُبناً عن لقاء العدو، نظر المغشي عليه من الموت، كما ينظر الشَّخص بصره عند الموت. فأولى لهم وعيد وتهديد. ومعنى قولهم في التَّهديد أولى لك أي وليك وقاربك ما تكره. ثم قال: طاعة وقول معروف، وهذا ابتداء محذوف الخبر تقديره طاعة وقول معروف أمثل، أي لو أطاعوا وقالوا قولاً معروفاً كان أمثل وأحسن. وقيل مجازه يقول هؤلاء المنافقون قبل نزول السُّورَةِ المحكَّمة طاعة رفع على الحكاية أي أمرنا طاعة أو منا طاعة وقول معروف حسن، وقيل هو متَّصل بما قبله، واللام في قولهم بمعنى الباء مجازه فأولى بهم طاعة الله ورسوله وقول معروف بالإجابة. أي لو أطاعوا كانت الطاعة والإجابة أولى بهم. وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء. فإذا عزم الأمر أي جدَّ الأمر ولزم فرض القتال وصار الأمر معزوماً فلو صدقوا الله في إظهار الإيمان والطاعة لكان خيراً لهم. وقيل جواب إذا محذوف تقديره فإذا عزم الأمر نكلوا وكذبوا فيما وعدوا، ولو صدقوا الله لكان

١ - تفسير البغوي، ج ٢ ص ٣٤٠-٣٤١.

خير لهم" (١).

تفسير (الذين قلوبهم مرض) يَعْنِي المنافقين.

قال البغوي: "أم حسب الذين في قلوبهم مرض يَعْنِي المنافقين أن لن يخرج الله أضغانهم أن لن يظهر أحقادهم على المؤمنين فيبديها حتى يعرفوا نفاقهم، واحده ضغن. قال ابن عباس: حسدهم. ولو نشاء لأريناكم أي لأعلمناكم وعرفناكم، فلعرفتهم بسيماهم بعلامتهم. قال الزجاج: المعنى لو نشاء لجعلنا على المنافقين علامة تعرفهم بها. قال أنس: ما خفي على رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية شيء من المنافقين. كان يعرفهم بسيماهم" (٢).

تفسير (الذين في قلوبهم مرض) يعني المنافقين.

قال البغوي: "فأنزل الله عز وجل وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة لا رجلاً آدميين، فمن ذا يغلِب الملائكة. وما جعلنا عدتهم أي عددهم في القلة إلا فتنه للذين كفروا أي ضلالة لهم حتى قالوا ما قالوا. ليستيقن الذين أوتوا الكتاب لأنه مكتوب في التوراة والإنجيل أنهم تسعة عشر. ويزداد الذين آمنوا إيماناً يعني من آمن من أهل الكتاب [!] يزدادون تصديقاً بمحمد ﷺ إذا وجدوا ما قاله موافقاً لما في كتبهم. ولا يرتاب لا يشك الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون في عددهم وليقول الذين قلوبهم مرض شك ونفاق والكافرون مشركو مكة ماذا أراد الله بهذا مثلاً أي شيء أراد بهذا الحديث وأراد بالمثل

١ - تفسير البغوي، ج ٤ ص ١٨٣.

٢ - تفسير البغوي، ج ٤ ص ١٨٥.

الحديث نفسه^(١).

(الذين قلوبهم مرض) تفسيره الذين في قلوبهم شكّ ونفاق.

وهذا يكون معنى الذين في قلوبهم مرض في تفسير البغويّ ما يلي:

(١) الذين في قلوبهم مرض شكّ ونفاق. (٢) يَغْنِي عبد الله بن أبيّ

وأصحابه من المنافقين الذين يوالون اليَهُود. (٣) (الذين قلوبهم مرض) الذين

في قلوبهم شكّ ونفاق. (٤) (الذين في قلوبهم مرض) يَغْنِي المنافقين.

١ - تفسير البغوي، ج ٤ ص ٤١٧ .

الذين في قلوبهم مرض في تفسير ابن الجوزي

قال ابن الجوزي في زاد المسير: "قوله تعالى ﴿في قلوبهم مرض﴾ المرص هاهنا الشك، قاله عكرمة وقتادة. فزادهم الله مرضاً: هذا الإخبار من الله تعالى أنه فعل بهم ذلك. والأليم بمعنى المؤلم؛ والجمهور يقرؤون يكذبون بالتشديد وقرأ الكوفيون سوى أبان عن عاصم بالتخفيف مع فتح الياء " (١)،
المرص هنا هو الشك.

وقال: "قوله تعالى فترى (الذين قلوبهم مرض) يسارعون فيهم قال المفسرون نزلت في المنافقين. ثم لهم في ذلك قولان" (٢).

قال المفسرون نزلت في المنافقين. فالذين في قلوبهم مرض إذا هم المنافقون.

وقال: "قوله تعالى ﴿يقول المنافقون﴾ قال ابن عباس هم قوم من أهل المدينة من الأوس والخزرج، فأما (الذين قلوبهم مرض) ففيهم ثلاثة أقوال، أحدها أنهم قوم كانوا قد تكلموا بالإسلام بمكة فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر كرها، فلما رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين ارتابوا وناقضوا وقالوا غر هؤلاء دينهم، قاله أبو صالح عن ابن عباس وإليه ذهب الشعبي في آخرين؛ وعدهم مقاتل فقال كانوا سبعة قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منية بن

١ - زاد المسير، ابن الجوزي، ج ١ ص ٢٤.

٢ - زاد المسير - ابن الجوزي، ج ٢ ص ٢٨٩.

الحجاج، والوليد بن الوليد بن المغيرة، والوليد بن عتبة بن ربيعة. والثاني أنهم المشركون!!] لما رأوا قلة المسلمين قالوا غر هؤلاء دينهم؛ رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس وبه قال الحسن. والثالث أنهم قوم مرتابون لم يظهروا عداوة النبي ﷺ؛ ذكره الماوردي، والمرض هاهنا الشك، والإشارة بقوله هؤلاء إلى المسلمين؛ وإنما قالوا هذا لأنهم رأوا قلة المسلمين فلم يشكوا في أن قريشاً تغلبهم^(١).

الذين في قلوبهم مرض هم: (١) قوم كانوا تكلموا بالإسلام بمكة. (٢) المشركون لما رأوا قلة المسلمين. (٣) قوم مرتابون لم يظهروا عداوة النبي ﷺ.

قال ابن الجوزي: "(الذين قلوبهم مرض) أي شك ونفاق، وفي المراد بالرجس ثلاثة أقوال أحدها الشك قاله ابن عباس، والثاني الإثم قاله مقاتل، والثالث الكفر لأنهم كلما كفروا بسورة زاد كفرهم، قاله الزجاج. فالمراد من المرض هنا الشك والتناق^(٢)".

وقال: "والفتنة هاهنا بمعنى البلية والمحنة، والمرض الشك والتناق، والقاسية قلوبهم يعني الجافية عن الإيمان. ثم أعلمه أنهم ظالمون وأتهم في شقاق دائم والشقاق غاية العداوة"^(٣). المرض هو الشك والتناق، فالذين في

١ - زاد المسير- ابن الجوزي، ج ٣ ص ٢٥٠.

٢ - نفس المصدر السابق، ج ٣ ص ٣٥٢.

٣ - نفس المصدر السابق، ج ٥ ص ٣٠٣.

قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم شكّ ونفاق.

قال ابن الجوزي: "أفي قلوبهم مرض أي كفر أم ارتابوا أي شكّوا في القرآن وهذا استفهام ذمّ وتوبيخ، والمعنى أنهم كذلك. وإنما ذكره بلفظ الاستفهام ليكون أبلغ في ذمّهم"^(١).

المُرَضُّ هنا: الكفر، والارتباب هو الشكّ في القرآن. وإذا فالذين في قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم كفر.

قال ابن الجوزي: "قوله تعالى ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ فيه قولان أحدهما أنّه الشُّرك، قاله الحسن. والثاني النِّفاق قاله قتادة. ﴿ما وعدنا الله ورسوله إلّا غرورا﴾ قال المفسّرون قالوا يومئذ إنّ محمّدا يعدنا أن نفتح مدائن كسرى وقيصر وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله، هذا والله الغرور. وزعم ابن السائب أنّ قائل هذا معتب بن قشير"^(٢).

المُرَضُّ هنا فيه قولان أحدهما الشُّرك والثاني النِّفاق.

إذا فـ(الذين في قلوبهم مرض) هم المشركون.

و(الذين في قلوبهم مرض) هم المنافقون.

قال ابن الجوزي: "قوله تعالى ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ أي لا تَلِنَ بالكلام

١ - نفس المصدر، ج ٥ ص ٣٧٠.

٢ - نفس المصدر، ج ٦ ص ١٨٥.

﴿يطمع الذي في قلبه مرض﴾ أي فجور. والمعنى لا تَقُلَنَّ قولاً يجذُّ به منافقٌ أو فاجر سبيلاً إلى موافقتك له. والمرأة مندوبة إذا خاطبت الأجنبي إلى الغلظة في المقالة، لأنَّ ذلك أبعد من الطَّمع في الرِّيبة. ﴿وقلن قولاً معروفاً﴾ أي صحيحاً عفيفاً لا يطمع فاجراً^(١).

قال: "يجد به منافق أو فاجر سبيلاً إلى موافقتك.."، فمن أين جاء بكلمة منافق؟

وبعبارة أخرى: إذا كانت كلمة (فاجر) تفسيراً للذي في قلبه مرض، فكلمة (منافق) تفسير لأي شيء؟

ظاهر الأمر أنَّ أهمَّ شيء عند المفسرين من أتباع مدرسة الخلفاء هو القرن الأكيد بين عبارة (المنافقون) وعبارة (في قلوبهم مرض).

وهكذا يكون الذي في قلبه مرض - هنا - هو الذي في قلبه فجور.

قال ابن الجوزي: "قوله تعالى: لئن لم ينته المنافقون أي عن نفاقهم، والذين في قلوبهم مرض أي فجور، وهم الزناة، والمرجفون في المدينة بالكذب والباطل يقولون أتاكم العدو وقتل.."^(٢).

الذين في قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم فجور.

^١ - زاد المسير، ج ٦ ص ١٩٦.

^٢ - زاد المسير - ابن الجوزي، ج ٦ ص ٢١٦.

قال: "ومعنى قوله فيها القتال أي فرض فيها الجهاد، وفي المراد بالمرض قولان أحدهما النفاق، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد والجمهور. والثاني الشك، قاله مقاتل. قوله تعالى ﴿إِلَيْكَ﴾ أي يشخصون نحوك بأبصارهم ينظرون نظرا شديدا كما ينظر الشّاخص ببصره عند الموت لأنهم يكرهون القتال ويخافون إن قعدوا أن يتبيّن نفاقهم" (١).

المرض هنا له معنيان:

فالذين في قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم النفاق (المنافقون).

والذين في قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم شك.

قال ابن الجوزي: "قوله تعالى أم حسب الذين قلوبهم مرض أي نفاق أن لن يخرج الله أضغانهم قال الفراء: أي لن يبدي الله عداوتهم وبغضهم لمحمد ﷺ. وقال الزجاج: أي لن يبدي عداوتهم لرسوله ﷺ ويظهره على نفاقهم" (٢).

الذين في قلوبهم مرض: هم الذين في قلوبهم نفاق.

وقال ابن الجوزي: "وليقول الذين في قلوبهم مرض، وفيه ثلاثة أقوال أحدها أنه النفاق، ذكره الأكثرون. والثاني أنه الشك قاله مقاتل. وزعم أنهم يهود أهل المدينة. وعنده أن هذه الآية مدنية. والثالث أنه الخلاف، قاله الحسين

١ - نفس المصدر، ج ٧ ص ١٥٢

٢ - نفس المصدر، ج ٧ ص ١٥٥

بن الفضل وقال: لم يكن بِمَكَّة نفاق وهذه مَكَّة^(١).

وعليه يكون تفسير الذين في قلوبهم مرض كالتالي:

- (١) الذين في قلوبهم مرض هم: المَرَضُ هُنا هو الشَّكُّ. إذا هم الشَّاكُّون.
- (٢) الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون. (٣) قوم كانوا قد تكلموا بالإسلام بِمَكَّة فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر كرها، فلما رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين ارتابوا ونافقوا وقالوا: غر هؤلاء دينهم؛ وعدّهم مقاتل فقال: كانوا سبعة قيس بن الوليد بن المغيرة، و.. و.. و.. و.. و.. و..، رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين ارتابوا ونافقوا وقالوا غر هؤلاء دينهم؛ (٤) المشركون لما رأوا قلة المسلمين قالوا غر هؤلاء دينهم. (٥) قوم مرتابون لم يظهروا عداوة النبي ﷺ ذكره الماوردي. (٦) الذين في قلوبهم شكّ ونفاق.
- (٧) الذين في قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم شك و نفاق. (٨) الذين في قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم كفر. (٩) فيه قولان أحدهما أنّه الشُّرك قاله الحسن والثاني النِّفاق قاله قتادة. إذا فالذين في قلوبهم مرض هم المشركون. الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون (١٠) الذي في قلبه مرض أي فجور. (١١) الذين في قلوبهم مرض أي فجور وهم الزّناة.

(١٢) فالذين في قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم النفاق (المنافقون).

(١٣) والذين في قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم شك.

(١٤) الذين في قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم نفاق. (١٥) الذين في

قلوبهم النفاق. (١٦) الذين في قلوبهم الشك. (١٧) — الذين في قلوبهم

الخلافاً.

وهكذا تتداخل الفئات والطوائف فيكون الكافرون هم المشركين

والمشركون هم اليهود...

(الذين قلوبهم مرض) في تفسير النسفي:

قال النَّسْفِيُّ في تفسيره :

"ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فيها ذكر الجهاد فإذا أنزلت سورة في معنى الجهاد محكمة مبيّنة غير متشابهة، لا تحتمل وجهها إلا وجوب القتال. وعن قتادة كلّ سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة لأنّ النسخ لا يرد عليها من قبل أنّ القتال نسخ ما كان من الصّفح والمهادنة وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة. وذكر فيها القتال أي أمر فيها بالجهاد. رأيت الذين في قلوبهم مرض نفاق أي رأيت المنافقين فيما بينهم ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت يضجرون منها. ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت أي تشخص أبصارهم جُبناً وجزعاً كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت. فأولى لهم وعيد بمعنى فوئّل لهم وهو أفعل من الولى وهو القرب. ومعناه الدّعاء عليهم بأن يليهم المكروه"^(١).

الذين في قلوبهم مرض : الذين في قلوبهم نفاق.

وقال النَّسْفِيُّ : "أم حسب (الذين قلوبهم مرض) أن لن يخرج الله أضغانهم أحقادهم. والمعنى أظنّ المُنافِقُونَ أنّ الله تعالى لا يُبرز بُغْضَهُمْ وعداوتهم للمؤمنين ولو نشاء لأريناكنهم لعرفناكنهم ودلّلناك عليهم فلعرفتهم بسيماهم بعلامتهم، وهو أن يسمّهم الله بعلامة بها. وعن أنس رضي الله عنه ما

خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية أحد من المنافقين. كان يعرفهم بسيماهم. ولتعرفنهم في لحن القول في نحوه وأسلوبه الحسن من فحوى كلامهم، لأنهم كانوا لا يقدرّون على كتمان ما في أنفسهم. واللام في فلعرفتهم داخلة في جواب لو كالتّي في لأريناكمهم كرّرت في المعطوف. وأمّا اللّام في ولتعرفنهم فواقعة مع النّون في جواب قسم محذوف. والله يعلم أعمالكم فيميّز خيرها من شرّها".

الذين في قلوبهم مرض: المنافقون. قال النسفي: "ليستيقن الذين أوتوا الكتاب لأنّ عدّتهم تسعة عشر في الكتابين فإذا سمعوا يمثّلها في القرآن أيقنوا أنّه منزل من الله. ويزداد الذين آمنوا بمحمّد وهو عطف على ليستيقن إيماناً لتصديقهم بذلك كما صدّقوا سائر ما أنزل، أو يزدادوا يقيناً لموافقة كتابهم كتاب أولئك. ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون هذا عطف أيضاً. وفيه توكيد للاستيقان وزيادة الإيمان، إذ الاستيقان وازدياد الإيمان دالّان على انتفاء الارتياب. ثمّ عطف على ليستيقن أيضاً وليقول الذين في قلوبهم مرض نفاق والكافرون والمشركون فإن قلت النفاق ظهر في المدينة والسورة مكّية قلت معناه وليقول المنافقون الذين يظهرون في المستقبل بالمدينة بعد الهجرة والكافرون بمكة!!] ماذا أراد الله بهذا مثلاً، وهذا إخبار بما سيكون كسائر الإخبارات بالغيوب، وذا لا يخالف كون السورة مكّية. وقيل المراد بالمرض الشكّ والارتياب لأنّ أهل مكّة كان أكثرهم شاكّين. ومثلاً تمييز لهذا أو حال منه كقوله هذه ناقة الله لكم آية ولما كان ذكر العدد في غاية الغرابة وأنّ مثله حقيق بأنّ تسير به الرّكبان سيرها بالأمثال سميّ

مَثَلًا. والمعنى أي شيء أراد الله بهذا العدد العجيب وأي معنى أراد في أن جعل الملائكة تسعة عشر لا عشرين؛ وغرضهم إنكاره أصلاً وأنه ليس من عند الله وأنه لو كان من عند الله لما جاء بهذا العدد الناقص^(١).

الذين في قلوبهم مرض ينفق.

ولا بد لنا من وقفة مع النسفي، لأنه تصرف في اللفظ بعكس ما هو معلوم عند اللغويين والأصوليين؛ فإنه لا يصح صرف اللفظ عما وُضع له إلا بقريضة. وللقرائن قوانينها. فالآية الشريفة لا تشير من بعيد ولا من قريب إلى ما يحدث بعد الهجرة، ولا وجود لعبارة الهجرة أصلاً، فمن أين جاء به النسفي بهذه الدقة (المنافقون - الذين يظهرون - في المستقبل - بالمدينة - بعد الهجرة).!! وهل يقبل النسفي ومن معه أن يفتح هذا الباب في غير هذه الآية من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف؟

يتلخص مما سبق أن (الذين قلوبهم مرض) في تفسير النسفي تعني:

١ - الذين في قلوبهم مرض ينفق.

٢ - الذين في قلوبهم مرض الذين في قلوبهم نفاق.

فهم المنافقون لا غير، فإذا قال الله تعالى: إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض، فمعنى ذلك إذ يقول المنافقون والمنافقون!! هذا بيانه سبحانه وتعالى بهذا التكرار الذي يربأ عنه الأعراب بسليقتهم، فما ظنك بمن "علم

١ - تفسير النسفي، ج ٤، ص ٢٩٦-٢٩٧.

البيان"؟ ولكن، في نظر النَّسَفِيِّ وأمثاله، إذا دار الأمر بين التَّثَبُّت من سيرة صاحبيِّ وبين نسبة الخلط إلى كلام الله تعالى ، فإنَّه لا بأس بنسبة الخلط إلى كلام الله تعالى ما دام في ذلك محافظة عل صورة الصَّحَابِيِّ .

الفصل الخامس

**الذين في قلوبهم مرض
في
نظر مفسري القرن السابع**

• فخر الدين الرازي

• القرطبي

• النووي

الذين في قلوبهم مرض في تفسير الرازي

قال الرازي في تفسير قوله تعالى قوله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ﴾ "فيه سؤالات:
السؤال الأول: كلمة (أم) للاستفهام وهو غير جائز على الله تعالى والجواب:
اللفظ استفهام ومعناه الخبر كما قال جرير:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطونَ راح

السؤال الثاني: أنهم لو خافوا أن يحيف الله عليهم فقد ارتابوا في الدين وإذا ارتابوا ففي قلوبهم مرض، فالكل واحد، فأَيُّ فائدة في التعديد؟ الجواب قوله ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ إشارة إلى النفاق. وقوله ﴿أَمْ أَرْتَابُوا﴾ إشارة إلى أنه حدث هذا الشك والريب بعد تقرير الإسلام في القلب، وقوله: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إشارة إلى أنهم بلغوا في حب الدنيا إلى حيث يتركون الدين بسببه.

السؤال الثالث: هب أن هذه الثلاثة متغايرة ولكنها متلازمة فكيف أدخل عليها كلمة (أم)؟

الجواب: الأقرب أنه تعالى ذمهم على كل واحد من هذه الأوصاف فكان في قلوبهم مرض وهو النفاق، وكان فيها شك وارتياب، وكانوا يخافون الحيف من الرسول عليه الصلاة والسلام وكل واحد من ذلك كفر ونفاق، ثم بين تعالى بقوله: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بطلان ما هم عليه لأن الظلم يتناول كل معصية كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إذ المرء لا يخلو من أن يكون

ظالماً لنفسه أو ظالماً لغيره. ويمكن أن يقال أيضاً لما ذكر تعالى في الأقسام كونهم خائفين من الحيف، أبطل ذلك بقوله: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا يخافون أن يحيف الرسول عليه الصلاة والسلام عليهم لمعرفةهم بأمانته وصيانيته وإنّما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحقّ عليهم وهم له جحود، وذلك شيء لا يستطيعونه في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمّ يأبون المحاكمة إليه^(١).

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنْهُمْ﴾:

" هذا إشارة إلى المنافقين و(أَمْ) تستدعي جملة أخرى استفهامية إذا كانت للاستفهام، لأنّ كلمة (أَمْ) إذا كانت متّصلة استفهاميّة تستدعي سبق جملة أخرى استفهاميّة، يقال أزيد في الدار أم عمرو، وإذا كانت منقطعة لا تستدعي ذلك، يقال إن هذا لزيد أم عمرو، وكما يقال بل عمرو، والمفسّرون على أنّها منقطعة، ويحتمل أن يقال إنّها استفهاميّة، والسابق مفهوم من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ فكأنّه تعالى قال: أحسب الذين كفروا أن لن يعلم الله إسرارهم أم حسب المنافقون أن لن يظهرها والكلّ قاصر، وإنّما يعلمها ويظهرها، ويؤيّد هذا أنّ المنقطعة لا تكاد تقع في صدر الكلام فلا يقال ابتداء،

بل جاء زيد ولا أم جاء عمرو، والإخراجُ بمعنى الإظهار فإنه إبراز، والأضغان هي الحقود والأمراض، واحدها ضغن^(١).

وقال في تفسير الآية من سورة المدثر: "السؤال السادس: جمهور المفسرين قالوا في تفسير قوله: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أنهم الكافرون. وذكر الحسنيُّ بنُ الفضل البجليّ أنّ هذه السورة مكّيّة ولم يكن بمكة نفاق، فالمرض في هذه الآية ليس بمعنى النفاق. والجواب: قولُ المفسّرين حقٌّ، وذلك لأنّه كان في معلوم الله تعالى أنّ النفاق سيحدث فأخبر عمّا سيكون، وعلى هذا تصيرُ هذه الآية معجزة لأنّه إخبار عن غيبٍ سيقع، وقد وقع على وفق الخبر فيكون معجزاً. ويجوز أيضاً أن يراد بالمرض الشكّ لأنّ أهل مكة كان أكثرهم شاكّين وبعضهم كانوا قاطعين بالكذب"^(٢).

أقول: قد علّق السيّد عليّ الميلانيّ على كلام الفخر الرازيّ بما هو حقيق بالتدبّر لمن أراد البحث في المسألة بعيداً عن الانتماء المذهبيّ. ولم أطلع على كلام السيّد إلّا حين اقتربتُ من نهاية البحث^(٣). قال السيّد الميلانيّ^(٤): يقولُ الفخر الرازيّ وهو يريد أن يدافع عن قول جمهور المفسّرين - لاحظوا بدقّة قوله -:

١ - تفسير الرازي (مفاتيح الغيب)، ج ٢٨ ص ٦٠.

٢ - تفسير الرازي، ج ٣٠ ص ١٨٢.

٣ - كان ذلك أثناء حديث مع الشيخ فارس الحسون - رحمه الله تعالى - بمركز الأبحاث العقائدية.

٤ - الصّحابة عليّ الميلاني، ص ٤٤.

قول المفسرين حقّ، وذلك لأنّه كان في معلوم الله تعالى أنّ التفّاق سيحدث، أيّ في المدينة المنوّرة فأخبر عمّا سيكون، وعلي هذا تصير هذه الآية معجزة لأنّه إخبار عن غيبٍ سيقع، وقد وقع علي وفق الخبر، فيكون معجزاً ! كان ذكر الذين انحصر في قلوبهم مرض هنا معجزة. لكن لن يرتضي الفخر الرّازي أيضاً هذا التوجيه مع ذكره له. والعجيب من الفخر الرّازي حيث يقول: جمهور المفسّرين قالوا إنّهم الكافرون، وهو يدافع عن قولهم ويقول: هو حقّ، ثمّ يحمل الآية علي أنّه إخبار عن التفّاق الذي سيقع فإذا كان قول المفسّرين حقّاً، فقد فسّروا بأنّهم الكافرون وأنت تقول بأنّ هذا إخبار عن التفّاق الذي سيقع في المدينة المنوّرة، فكيف كان قول المفسّرين حقّاً؟ وهذا يكشف عن تحيّرهم واضطرابهم في القضية. ومّا يزيد في وضوح الاضطراب قوله بعد ذلك - أرجو الملاحظة بدقّة - : ويجوز أن يراد بالمرض الشكّ. أي: الذين في قلوبهم شكّ. لكن يعود الإشكال، فمنّ الذين في قلوبهم شكّ، في بدء الدّعوة في مكّة، في مقابل الذين آمنوا، والذين كفّروا، وأهل الكتاب؟ فيعلّل كلامه قائلاً: لأنّ أهل مكّة كان أكثرهم شاكّين. فنقول: من المراد هنا من أهل مكّة؟ هل المراد أهل الكتاب؟ هل المراد الكفّار والمشركون؟ من هؤلاء الذين أكثرهم شاكّون؟ وقد زاد في الطّين بلّة فقال: وبعضهم كانوا قاطعين بالكذب. وهذا عجيب من مثل الفخر الرّازي، عجيب والله، وليس إلا الاضطراب والحيرة!! هذا، والفخر الرّازي في مثل هذه المواضع يأخذ من الزّمخشري ولا يذكر اسم

الزّخشيّ، وطابقوا بين عبارة الفخر الرّازيّ والزّخشيّ لرأيتهم الزّخشيّ جوابه نفس الجواب، ولا أدري تاريخ وفاة الحسين بن الفضل [*^(١)]، وربّما يكون متأخراً عن الزّخشيّ، فنفس الجواب موجود عند الزّخشيّ وبلا حلّ للمشكلة. ويأتي أحدهم فيأخذ كلام الفخر الرّازيّ والزّخشيّ حرفياً، ويحذف من كلام الفخر الرّازيّ قول الحسين بن الفضل والبحث الذي طرحه الفخر الرّازيّ، وهذا هو الخازن في تفسيره فراجعوا. ثمّ جاء المتأخرون وجوّزوا أن يكون المراد النّفاق، وأن يكون المراد الشّكّ، وتعود المشكلة، وكثير منهم يقولون المراد الشّكّ أو النّفاق، لاحظوا ابن كثير ولا حظوا غيره من المفسّرين، فهوّلاء يفسّرون المرض بالشّكّ، يفسّرون المرض بالنّفاق ويسكتون، أي يسلمون بالإشكال أو السؤال. كان في مكّة المكرّمة نفاق وأنتم تعلمون دائماً أنّ النّفاق إنّما يكون حيث يخاف الإنسان عليّ ماله، أو يخاف عليّ دمه ونفسه، فيتظاهر بالإسلام وهو غير معتقد. وهذا في الحقيقة إنّما يحصل في المدينة المنوّرة، لقوّة الإسلام، لتقدّم الدّين، ولقدرة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم، هذا كلّّه صحيح. أمّا في مكّة، حيث الإسلام ضعيف، وحيث أنّ النّبّيّ مطارد، وحيث أنّه يؤذّى صباحاً ومساءً، فأيّ ضرورة للنّفاق، وأيّ معنى حينئذ؟ والله سبحانه وتعالى لم يعبر بالنّفاق، وإنّما عبر بالمرض في القلب،

١ - * توفي الحسين بن الفضل - على ما جاء في طبقات المفسرين - سنة ٢٨٢ عن مئة وأربع سنين فتكون ولادته سنة ١٧٨ هـ أما الزّخشيّ فقد توفي سنة ٥٣٨ هـ.

وفيه نكتة. إذن، كان في أصحاب رسول الله منذ مكة من في قلبه مرض، ومن كان منافقا، وأيضا كان حواليه مؤمنون. فكيف نقول إتهم عدول أجمعون؟ وهذا علي ضوء هذه الآية. وأما الآيات الواردة في النفاق، أو السورة التي سميت بسورة "المنافقون" فأنتم بكل ذلك عالمون عارفون (انتهى كلام السيّد الميلاني).

قلت: ومما يحير اللبيب أنّ الرازيّ عاد وقال بعد ذلك في نفس الصّفحة بخصوص نفس الآية: "السؤال التاسع: القوم كانوا ينكرون كون القرآن من عند الله، فكيف قالوا: ماذا أراد الله بهذا مثلا؟ الجواب: أما الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون فكانوا في الظاهر معترفين بأنّ القرآن من عند الله فلا جرم قالوا ذلك باللسان، وأما الكفار فقالوه على سبيل التّهكّم أو على سبيل الاستدلال بأنّ القرآن لو كان من عند الله لما قال مثل هذا الكلام".

وهذا معناه أنّ الرازيّ يصرّ على أنّهم المنافقون بعد أن صحّح قول جمهور المفسرين بقوله: "جمهور المفسرين قالوا في تفسير قوله: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أنّهم الكافرون. والجواب: قول المفسرين حقّ".

قال الرازيّ في تفسير قوله تعالى ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ من سورة محمد: "قوله رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أي المنافقين ينظرون إليك نظر ألعشي عليه من الموت" لأنّ عند التكليف بالقتال لا يبقى لنفاقهم فائدة، فإنهم

١ - التفسير الكبير، الرازي، ج ٣٠ ص ٢٠٧.

٢ - نفس المصدر، ج ٢٨ ص ٦٢.

قبل القتال كانوا يترددون إلى القبيلتين وعند الأمر بالقتال لم يبق لهم إمكان ذلك". وهكذا يكون الذين في قلوبهم مرض هم المنافقين.

وقال في تفسير قوله تعالى وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴿ ما يلي: "ثم جمع للمنافقين أمرين مقابلين للأمرين المذكورين في المؤمنين، فقال: ﴿ وأما الَّذِينَ في قلوبهم مرض ﴾ يعني المنافقين ﴿ فزادتهم رجسا إلى رجسهم ﴾ والمراد من الرجس إما العقائد الباطلة أو الأخلاق المذمومة، فإن كان الأول كان المعنى أنهم كانوا مكذّبين بالسّور النّازلة قبل ذلك، والآن صاروا مكذّبين بهذه السّورة الجديدة، فقد انضمّ كفر إلى كفر، وإن كان الثاني كان المراد أنهم كانوا في الحسد والعداوة واستنباط وجوه المكر والكيد، والآن ازدادت تلك الأخلاق الذميمة بسبب نزول هذه السّورة الجديدة.

والأمر الثاني: أنهم يموتون على كفرهم، فتكون هذه الحالة كالأمر المضادّ للاستبشار الذي حصل في المؤمنين، وهذه الحالة أسوأ وأقبح من الحالة الأولى، وذلك لأنّ الحالة الأولى عبارة عن ازدياد الرّجاسة وهذه الحالة عبارة عن مداومة الكُفر وموتهم عليه^(١).

١ - نفس المصدر السابق، ج ١٦ ص ٢٣١.

قال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى " إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ": " المسألة الثانية، أما المنافقون فهم قوم من الأوس والخزرج وأما الذين في قلوبهم مرض فهم قوم من قريش أسلموا وما قوي إسلامهم في قلوبهم ولم يهاجروا؛ ثم إن قريشاً لما خرجوا لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أولئك نخرج مع قومنا فإن كان محمد في كثرة خرجنا إليه، وإن كان في قلة أقمنا في قومنا. قال محمد بن إسحاق ثم قتل هؤلاء جميعاً مع المشركين يوم بدر"^(١).

أقول: وهذا أيضاً عجيب من الرازي، لأن مثل هذا التردد لم يصدر منه بخصوص طائفة " أهل الكتاب " وطائفة " الذين كفروا " وطائفة " الذين آمنوا " وحكم الأمثال في ما يجوز وما لا يجوز واحداً!

وإذاً، فالذين في قلوبهم مرض في الآية هم قوم من قريش أسلموا وما قوي إسلامهم في قلوبهم ولم يهاجروا.

قال الرازي: " اعلم أنه تعالى لما أوجب في الآية الأولى على جميع المكلفين أن يطيعوا الله ويطيعوا الرسول ذكر في هذه الآية أن المنافقين والذين في قلوبهم مرض لا يطيعون الرسول ولا يرضون بحكمه، وإنما يريدون حكم غيره، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: الزعم، والزعم لغتان، ولا يستعملان في الأكثر إلا في القول الذي لا يتحقق. قال الليث: أهل العربية يقولون زعم فلان إذا شكوا فيه فلم

١ - نفس المصدر السابق، ج ١٥ ص ١٤١.

يعرفوا أكذب أم صدق، فكذلك تفسير قوله: ﴿هَذَا اللَّهُ بَزَعِمْهُمْ﴾ أي بقولهم الكذب. قال الأصمعيّ: الرّعوم من الغنم التي لا يعرفون أبها شحم أم لا، وقال ابن الأعرابي: الرّعّم يستعمل في الحقّ وأنشد لأمية بن الصلت: وإني أدِينُ لكم أنّه * سينجزكم ربكم ما زعم

إذا عرفت هذا فنقول: الذي في هذه الآية المراد به الكذب، لأنّ الآية نزلت في المنافقين.

المسألة الثانية: ذكروا في أسباب النّزول وجوها، الأوّل: قال كثير من المفسّرين: نازع رجل من المنافقين رجلا من اليهود فقال اليهوديّ: بيني وبينك أبو القاسم، وقال المنافق: بيني وبينك كعب بن الأشرف؛ والسّبب في ذلك أنّ الرّسول صلى الله عليه وسلّم كان يقضي بالحقّ ولا يلتفت الى الرّشوة وكعب بن الأشرف كان شديد الرّغبة في الرّشوة. واليهوديّ كان مُحَقّا، والمنافق كان مبطلا، فلهذا المعنى كان اليهوديّ يريد التّحاكم إلى الرّسول والمنافق كان يريد كعب بن الأشرف، ثمّ أصّر اليهوديّ على قوله، فذهبا اليه صلى الله عليه وسلّم، فحكم الرّسول عليه الصّلاة والسّلام لليهوديّ على المنافق، فقال المنافق لا أرضى انطلق بنا إلى أبي بكر[!] فحكم أبو بكر رضي الله عنه لليهوديّ فلم يرض المنافق وقال المنافق: بيني وبينك عمّر، فصارا الى عمر فأخبره اليهوديّ أنّ الرّسول عليه الصّلاة والسّلام وأبا بكر حكما على المنافق فلم يرض بحكمهما، فقال للمنافق: أهكذا؟ فقال: نعم، قال: اصبرا إنّ لي حاجة أدخل فأقضيهما وأخرج إليكما. فدخل فأخذ سيفه ثمّ خرج اليهما فضرب به المنافق

حتى برد وهرب اليهودي، فجاء أهل المنافق فشكوا عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأل عمر عن قصته، فقال عمر: إنه ردّ حكمك يا رسول الله، فجاء جبريل عليه السلام في الحال وقال: إنه الفاروق فرق بين الحق والباطل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر: «أنت الفاروق»^(١) وعلى هذا القول الطاغوت هو كعب بن الأشرف.

الرواية الثانية في سبب نزول هذه الآية أنه أسلم ناس من اليهود ونافق بعضهم، وكانت قريظة والتّضير في الجاهلية إذا قتل قرطيّ نضرياً قتل به وأخذ منه دية مائة وسق من تمر، وإذا قتل نضريّ قرطياً لم يقتل به لكن أعطي ديتة ستين وسقا من التمر، وكان بنو التّضير أشرف وهم حلفاء الأوس، وقريظة حلفاء الخزرج، فلما هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة قتل نضريّ قرطياً فاختمها فيه، فقالت بنو التّضير: لا قصاص علينا، إنما علينا ستون وسقا

١ - نعم، جاء جبريل في الحال لأن القضية تتعلق بعمر، فالتأخر ممنوع، لكن حينما أجرى الشيطان على لسان النبي - والعياذ بالله تعالى من ذلك - آيات الغرائق فالظاهر أن القضية لم تكن تستحق الاستعجال، مع أن القرآن هو أساس الدين.

٢ - هذه القصة ذكرها المفسرون بلفظ (روي) المبني للمجهول عن ابن عباس، ولم يذكروا إسنادها، ولم يذكروا اسم المنافق، والتدبر لا ينسب قصة الغلام الذي نادى بالانصار فارتفعت آلاف السيوف لنصرته، فإذا كان هذا شأنهم مع مولى فما ظنك بمن هو فوقه؟! والحوار الذي جرى بين المتخاصمين في القصة يكشف عن علم اليهود والمنافقين بترتيب خلفاء السقيفة قبل وقوع أحداث السقيفة! وأمثال هذه القصة كثير في مناقب مزعومة للخلفاء، لا تثبت عند التحقيق العلميّ النزهي. وعلى فرض صحة القصة فإن عمر يكون أيضاً مستحقاً للقتل باعتبار حكم الأمثال، لأنه هو أيضاً ردّ كثيراً من أحكام النبي في حياة النبي صلى الله عليه وآله وبعد مماته. ومثل هذه الرواية المختلفة مما يشجع على الإرهاب الفكرية ويبرز إزهاق الأنفس. وأما عبارة "الفاروق" فحاشا لرسول الله صلى الله عليه وآله أن يضعها في غير موضعها وهو الذي لا ينطق عن الهوى فقد كان عمر بن الخطاب في أمهات معارك الإسلام مجتاهداً للحقّ مُتَشَبِّهاً بالباطل في فراره لِيَتَجَوَّعَ بجلده تاركاً رسول الله صلى الله عليه وآله بين الأعداء عُرضةً للقتل.

من تمر على ما اصطالحنا عليه من قبل، وقالت الخزرج: هذا حكم الجاهليّة، ونحن وأنتم اليوم إخوة وديننا واحد ولا فضل بيننا، فأبى بنو النّضير ذلك، فقال المنافقون: انطلقوا إلى أبي بردة الكاهن الأسلمي، وقال المسلمون: بل إلى رسول الله ﷺ، فأبى المنافقون وانطلقوا إلى الكاهن ليحكم بينهم فأنزل الله تعالى هذه الآية، ودعا الرسول عليه الصّلاة والسّلام الكاهن إلى الإسلام فأسلم، هذا قول السّديّ، وعلى هذا القول الطّاغوت هو الكاهن.

الرواية الثالثة، قال الحسن: إنّ رجلاً من المسلمين كان له على رجل من المنافقين حقّ، فدعاه المنافق إلى وثن كان أهل الجاهليّة يتحاكمون إليه، ورجل قائم يترجم الأباطيل عن الوثن، فالمراد بالطّاغوت هو ذلك الرّجل. الرّواية الرّابعة: كانوا يتحاكمون إلى الأوّثان، وكان طريقهم أتهم يضربون القداح بحضرة الوثن، فما خرج على القداح عملوا به، وعلى هذا القول فالطّاغوت هو الوثن. واعلم أنّ المفسّرين اتفقوا على أنّ هذه الآية نزلت في بعض المنافقين، ثمّ قال أبو مسلم: ظاهر الآية يدلّ على أنّه كان منافقاً من أهل الكتاب، مثل أنّه كان يهودياً فأظهر الإسلام على سبيل النّفاق لأنّ قوله تعالى: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إنّما يليق بمثل هذا المنافق.

المسألة الثالثة: مقصود الكلام أنّ بعض النّاس أراد أن يتحاكم إلى بعض أهل الطّغيان ولم يرد التّحاكم إلى محمد ﷺ. قال القاضي: ويجب أن يكون التّحاكم إلى هذا الطّاغوت كالكُفر، وعدم الرّضا بحكم محمّد عليه الصّلاة والسّلام كفر، ويدلّ عليه وجوه: الأوّل: أنّه تعالى قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُتَحَاكَمُوا

إِلَى الطَّغُوتِ وَقَدْ أَمَرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلَ التَّحَاكُمَ إِلَى الطَّاغُوتِ يَكُونُ إِيْمَانًا بِهِ، وَلَا شَكَّ أَنْ الْإِيْمَانَ بِالطَّاغُوتِ كُفْرٌ بِاللَّهِ، كَمَا أَنَّ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ إِيْمَانٌ بِاللَّهِ. الثَّانِي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿٦٦﴾ فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَكْمُوكَ فِي شَجَرِ بَيْنِهِمْ ﴿٦٧﴾ إِلَى قَوْلِهِ: وَيَسْلُمُوْا تَسْلِيْمًا ﴿٦٨﴾ (النِّسَاء ٦٥). وَهَذَا نَصٌّ فِي تَكْفِيرِ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. الثَّلَاثُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿٦٩﴾ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخْلِِفُون عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٠﴾ (النُّور ٦٣). وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَخَالَفَتَهُ مَعْصِيَةً عَظِيْمَةً، وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ دَلَالٌ عَلَى أَنَّ مَنْ رَدَّ شَيْئًا مِنْ أَوَامِرِ اللَّهِ أَوْ أَوَامِرِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهُوَ خَارِجٌ عَنِ الْإِسْلَامِ، سَوَاءٌ رَدَّهُ مِنْ جِهَةِ الشَّكِّ أَوْ مِنْ جِهَةِ التَّمَرُّدِ^(١)، وَذَلِكَ يُوجِبُ صَحَّةَ مَا ذَهَبَتِ الصَّحَابَةُ إِلَيْهِ مِنَ الْحُكْمِ بِارْتِدَادِ مَا نَعَى الزَّكَاةَ وَقَتْلِهِمْ وَسَبِي ذُرَارِيهِمْ^(٢).

قَالَ الرَّازِي: "أَمَّا قَوْلُهُ: ﴿٧١﴾ لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴿٧٢﴾ فِيهِ سُؤَالَانِ: السُّؤَالُ الْأَوَّلُ: لَمْ قَالَ ﴿٧٣﴾ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴿٧٤﴾ وَلَمْ خَصَّهُمْ بِذَلِكَ؟ الْجَوَابُ: لِأَنَّهُمْ مَعَ كُفْرِهِمْ يَحْتَاجُونَ إِلَى ذَلِكَ التَّدْبِيرِ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَقَدْ تَقَدَّمَ عِلْمُهُمْ بِذَلِكَ فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى التَّدْبِيرِ.

١ - قَدْ رَدَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ شَيْئًا عَظِيمًا مِنْ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَقَالَ بِصَرَاخَةٍ "حَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ"، فَهَلْ يَلْتَزِمُ الرَّازِي بِمَا يَقُولُ وَيُجْرِي عَلَيْهِ حُكْمَ الْخُرُوجِ عَنِ الْإِسْلَامِ؟

٢ - نَفْسُ الْمَصْدَرِ، ج ١٠ ص ١٢٣.

السؤال الثاني: ما مرض القلب؟ الجواب: أنّه الشكّ والشبهة وهم المنافقون كما قال: ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ وأما القاسية قلوبهم فهم المشركون المصرون على جهلهم ظاهرا وباطنا^(١).

إذا، الذين في قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم الشكّ والشبهة وهم المنافقون.

قال الرّازي في تفسيره: "فأما الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، والذين كفروا يحتمل المشركين لأنّ السّورة مكّيّة فقد جُمع الفريقان ههنا. إذا ثبت هذا فنقول احتمال الكلّ ههنا قائم لأنّ الكافرين والمنافقين واليهود كانوا متوافقين في إيذاء رسول الله ﷺ وقد مضى من أوّل السّورة إلى هذا الموضع ذكر اليهود، وذكر المنافقين، وذكر المشركين، وكلّهم من الذين كفروا. ثمّ قال القفال: وقد يجوز أن ينزل ذلك ابتداء من غير سبب لأنّ معناه في نفسه مفيد"^(٢).

وهكذا يكون المقصود بالذين في قلوبهم مرض المنافقين، علما أنّ النّفاق يكون في حالة الضّعف لا القوّة، وقد كان المؤمنون في المرحلة المكّيّة مستضعفين، وكانت قريش متمكّنة منهم حتى اضطّروا إلى اللّجوء إلى الحبشة؛ وتفاصيل التعذيب موزّعة في كتب السّيرة والتّاريخ، ومن المعدّين في مكّة

١ - تفسير الرّازي، ج ٢٣ ص ٤٨.

٢ - نفس المصدر، ج ٢ ص ١٢٢.

خَبَاب بن الأرت وعمار بن ياسر وبلال بن رباح، ومن المستشهدين تحت التعذيب ياسر وسمية والدا عمار رضي الله عنهما.

وقال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ۖ﴾: "اعلم أنه تعالى لما ذكر مخازي المنافقين ذكر أعمالهم القبيحة فقال: وإذا ما أنزلت سورة، فمن المنافقين من يقول أيكم زادته هذه إيماناً؟ واختلفوا فقال بعضهم: يقول بعض المنافقين لبعض، ومقصودهم تثبيتهم قومهم على النفاق، وقال آخرون: بل يقولونه لأقوام من المسلمين، وغرضهم صرفهم عن الإيمان. وقال آخرون: بل ذكره على وجه الهزؤ، والكل مُحْتَمَل. ولا يمكن حمله على الكل، لأن حكاية الحال لا تفيد العموم. ثم إنه تعالى أجاب فقال إنه حصل للمؤمنين بسبب نزول هذه السورة أمان وحصل للكافرين أيضاً أمان. أما الذي حصل للمؤمنين فالأول: هو أنها تزيدهم إيماناً إذ لا بدّ عند نزولها من أن يقرّوا بها ويعترفوا بأنّها حقّ عند الله، والكلام في زيادة الإيمان ونقصانه قد ذكرناه في أول سورة الأنفال بالاستقصاء. والثاني: ما يحصل لهم من الاستبشار. فمنهم من حمله على ثواب الآخرة، ومنهم من حمله على ما يحصل في الدنيا من النصر والظفر، ومنهم من حمله على الفرح والسرور الحاصل بسبب تلك التكاليف الزائدة من حيث أنه يتوسّل به إلى مزيد في الثواب، ثمّ جمع للمنافقين أمرين مقابلين للأمرين المذكورين في المؤمنين، فقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني المنافقين ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ والمراد

من الرّجس إمّا العقائد الباطلة أو الأخلاق المذمومة. فإن كان الأوّل كان المعنى أنّهم كانوا مكذّبين بالسّور النّازلة قبل ذلك والآن صاروا مكذّبين بهذه السّورة الجديدة، فقد انضمّ كفر إلى كفر. وإن كال الثّاني كان المراد أنّهم كانوا في الحسد والعداوة واستنباط وجوه المكر والكيد، والآن ازدادت تلك الأخلاق الذّميّة بسبب نزول هذه السّورة الجديدة. والأمر الثّاني: أنّهم يموتون على كفرهم، فتكون هذه الحالة كالأمر المضادّ للاستبشار الذي حصل في المؤمنين، وهذه الحالة أسوأ وأقبح من الحالة الأولى، وذلك لأنّ الحالة الأولى عبارة عن ازدياد الرّجاسة، وهذه الحالة عبارة عن مداومة الكفر وموتهم عليه^(١).

قلت: وهذا أيضا إلى التحكّم أقرب، فإنّ الرّازي يجعل (الذين في قلوبهم مرض) مرادفة لـ "المنافقين" بلا دليل. ولا شك أنّ حال الذين في قلوبهم مرض لا تختلف عن حال الكفّار والمنافقين من حيث كثير من الصّفات والأعمال، وإنّما الكلام عن التّمايز القائم بين الطّوائف المذكورة في القرآن الكريم، فهذه الطّوائف متمايزة في كتاب الله تعالى ولكلّ واحدة اسمها الذي تميّز معاملة وتجعله مصطلحا مستقلاّ. ولئن اشتركت الطّوائف الضّالة في الكفر فإنّ الحديث يكون حول التّفاوت في المراتب كما هو الشّأن في "الشّرك الأصغر" و"الشّرك الأكبر" و"الجهاد الأصغر" و"الجهاد الأكبر".

١ - نفس المصدر السابق، ج ١٦ ص ١٨٣.

قال الرّازي: "ثم قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾: وأعلم أن المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ المنافقون: مثل عبد الله بن أبي وأصحابه، وقوله يسارعون فيهم أي يسارعون في مودة اليهود ونصارى نجران، لأنهم كانوا أهل ثروة وكانوا يعينونهم على مهماتهم ويقرضونهم، ويقول المنافقون: إننا نخالطهم لأننا نخشى أن تصيبنا دائرة"^(١).

فالذين في قلوبهم مرض: هم المنافقون مثل عبد الله بن أبي وأصحابه.
قال الرّازي: "قال القفال: الكلّ محتمل ههنا، أما اليهود فلاّته قيل في آخر الآية ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ. الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ وهذا صفة اليهود، لأنّ الخطاب بالوفاء وبالعهد فيما بعد إنّما هو لبني إسرائيل وأما الكفار والمنافقون فقد ذكروا في سورة المدثر: ﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ الآية فأما الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، والذين كفروا يحتمل المشركين لأنّ السّورة مكيّة فقد جمع الفريقان ههنا. إذا ثبت هذا فنقول: احتمال الكلّ ههنا قائم لأنّ الكافرين والمنافقين واليهود كانوا متوافقين في إيذاء رسول الله ﷺ وقد مضى من أوّل السّورة إلى هذا الموضع ذكر اليهود، وذكر المنافقين،

وذكر المشركين. وكلّهم من الذين كفروا. ثمّ قال القفال: وقد يجوز أن ينزل ذلك ابتداءً من غير سبب لأنّ معناه في نفسه مفيد^(١).

أقول: ورد ذكر (الكفّار) و(المؤمنين) و(أهل الكتاب) و(الذين في قلوبهم مرض) في سورة المدّثر، ولم يرد ذكر المنافقين، وإنّما هي استنباطات من قبّل الرّازيّ و أبناء مدرسته مبنية على أساس عدالة جميع الصّحابة ودون إثبات صحتّها خراط القتاد. والرّازيّ نفسه لا يعتقد بوجود نفاق في مكّة نظراً لما كان عليه المؤمنون من ضعف الحال، وكان لا بدّ له من دفع الإشكال، لذلك تراه جنح إلى القول بالإعجاز وأنّ القرآن يتحدّث عن نفاق يظهر في المستقبل في المدينة، وهو يعلم منزلة الإعجاز في قلوب الموحّدين وانسراح صدورهم للمبشّبات الغيبية، فيستغلّ طيبة النفوس وتوقّها إلى المعجزات لتقوية مالا دليل عليه، ولا يكون ذلك إلا من قلة الأمانة والنزاهة !

قال الرّازيّ: ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: أنّه شفاء من الأمراض. والثاني: أنّه شفاء من مرض الكُفْرِ، لأنّه تعالى وصف الكفر والشكّ بالمرض، فقال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ (البقرة: ١٠) وبالقرآن يزول كل شكّ عن القلب، فصحّ وصفه بأنّه شفاء^(٢).

وهذا معناه أنّ الذين في قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم الشكّ والكُفْر.

١ - نفس المصدر السابق، ج ٣ ص ٣٦٠.

٢ - نفس المصدر، ج ٢ ص ٢٥٨.

ويبقى الرّازيّ مصرّاً على أنّ الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون ويرسل ذلك إرسال المسلّات، فيقول في فصل أسامي سورة الإخلاص: "وتاسعها سورة الجمال. قال عليه الصّلاة والسّلام: «إنّ الله جميل يحبّ الجمال» فسألوه عن ذلك فقال: أحد صمد لم يلد ولم يولد لأنّه إذا لم يكن واحداً عديم النّظير جاز أن ينوب ذلك المثل منابه. وعاشرها: سورة المقتشفة، يقال: تقشيش المريض ممّا به، فمن عرف هذا حصل له البرء من الشّرك والنّفاق، لأنّ النّفاق مرض كما قال: في قلوبهم مرض" (١).

لكنّ الرّازيّ يقول بعد ذلك: "اعلم أنّه تعالى لما أوجب في الآية الأولى على جميع المكلفين أن يطيعوا الله ويطيعوا الرّسول ذكر في هذه الآية أنّ المنافقين والذين في قلوبهم مرض لا يطيعون الرّسول ولا يرضون بحكمه، وإنّما يريدون حكم غيره، وفي الآية مسائل..".

وهذا معناه أنّه يعتبر المنافقين غير الذين في قلوبهم مرض!

قال الرّازيّ في تفسير الآية من سورة التّوبة: "الثّالث: قوله وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يدّل على أن الرّوح لها مرض، فمرضها الكُفر والأخلاق الذّميّة، وصحّت العلم والأخلاق الفاضلة. والله أعلم" (٢).

والآية تقول (في قلوبهم) ولم تقل (في أرواحهم)؛ بل إنّ عبارة (أرواح) بصيغة الجمع لم ترد في القرآن الكريم.

١ - نفس المصدر السابق، ج ٢ ص ٣٦٩.

٢ - نفس المصدر، ج ١٦ ص ١٧٥.

على أنّه في نفس الوقت يضيف في تفسير نفس الآية: اعلم أنّه تعالى لما ذكر مخازي المنافقين ذكر أعمالهم القبيحة فقال: وإذا ما أنزلت سورة، فمن المنافقين من يقول أيكم زادته هذه إيماناً؟ واختلفوا فقال بعضهم: يقول بعض المنافقين لبعض، ومقصودهم تثبيتهم قومهم على النفاق، وقال آخرون: بل يقولونه لأقوام من المسلمين، وغرضهم صرفهم عن الإيمان. وقال آخرون: بل ذكره على وجه الهزء، والكل محتمل. ولا يمكن حمله على الكل، لأنّ حكاية الحال لا تفيد العموم. ثمّ إنّ تعالى أجاب فقال: إنّ حصل للمؤمنين بسبب نزول هذه السورة أمران، وحصل للكافرين أيضاً أمران. أمّا الذي حصل للمؤمنين: فالأول: هو أنّها تزيدهم إيماناً إذ لا بدّ عند نزولها من أن يقرّوا بها ويعترفوا بأنّها حقّ من عند الله، والكلام في زيادة الإيمان ونقصانه قد ذكرناه في أول سورة الأنفال بالاستقصاء. والثاني: ما يحصل لهم من الاستبشار. فمنهم من حمله على ثواب الآخرة، ومنهم من حمله على ما يحصل في الدنيا من النصر والظفر، ومنهم من حمله على الفرح والسّرور الحاصل بسبب تلك التكاليف الزائدة من حيث أنّه يتوسل به إلى مزيد في الثواب، ثمّ جمع للمنافقين أمرين مقابلين للأمرين المذكورين في المؤمنين، فقال ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعني المنافقين ﴿فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ والمراد من الرّجس إمّا العقائد الباطلة أو الأخلاق المذمومة (انتهى).

جعلهم الرّازي مرّة المنافقين ومرّة الكافرين، ثمّ عاد فقال "يعني المنافقين" والآية تقول: "وأما الذين في قلوبهم مرض".

ولم يضطرب الرّازي في تفسيره مثل اضطرابه في هذه الآية.

ويتلخص مما جاء في تفسير الرّازي أنّ (الذين في قلوبهم مرض) يقصد به:

(١) إشارة إلى المنافقين. (٢) جمهور المفسرين قالوا في تفسير قوله: ﴿الَّذِينَ فِي

قلوبهم مرض﴾ أنهم الكافرون. (٣) يكون الذين في قلوبهم مرض هم

المنافقين. (٤) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قلوبهم مرض﴾ يعني المنافقين (٥) الذين في

قلوبهم مرض هم قوم من قريش أسلموا وما قوي إسلامهم في قلوبهم ولم

يهاجروا. (٦) الذين في قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم الشكّ والشبهة

وهم المنافقون. (٧) الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون. (٨) السّؤال الثاني: ما

مرض القلب؟ الجواب: أنّه الشكّ والشبهة وهم المنافقون. (٩) الذين في

قلوبهم مرض: هم المنافقون مثل عبدالله بن أبيّ وأصحابه. (١٠) الذين في

قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم الشكّ والكُفر.

(الذين في قلوبهم مرض) في تفسير القرطبي

قال القرطبي في تفسيره: "قوله تعالى: (في قلوبهم مرض) ابتداءً وخبرٌ. والمرُض عبارةٌ مُستعارةٌ للفساد الذي في عقائدهم. وذلك إمّا أن يكون شكّاً ونفاقاً، وإمّا جحداً وتكذيباً. والمعنى: قلوبهم مرضى لِحُلُولِها عن العصمة والتّوفيق والرّعاية والتّأييد. قال ابن فارس اللّغوي: المرُض كلّ ما خرج به الإنسان عن حدّ الصّحّة من علةٍ أو نفاقٍ أو تقصيرٍ في أمر. والقُرّاء مُجمعون علي فتح الرّاء من (مرض) إلا ما روى الأصمعي عن أبي عمرو أنّه سكّن الرّاء"^(١).

المرُض إمّا شكٌّ ونفاقٌ إمّا جحد وتكذيب.

علي أنّه قال بعد ذلك: "وعلي هذا يكون في الآية دليلٌ علي جواز الدّعاء علي المنافقين والطّرد لهم، لأنّهم شرّ خلق الله"^(٢). وهذا يُشعر أنّه يقصد بالذين في قلوبهم مرض المنافقين. ويؤيّد ذلك أنّه استمرّ في الحديث عن النّفاق و المنافقين ما يقارب ثلاث صفحات. (من الصفحة ١٩٧ إلى آخر الصفحة ٢٠٠). قال القرطبي: "قوله تعالى: فترى (الذين قلوبهم مرض) شكّ ونفاق وقد تقدّم في (البقرة) والمراد ابن أبي وأصحابه (يسارعون فيهم) أي في مولاتهم ومعاونتهم"^(٣).

١ - تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، ج ١ ص ١٩٧ .

٢ - نفس المصدر ج ١ ص ١٩٧ .

٣ - نفس المصدر، ج ٦ ص ٢١٧ .

فالذين قلوبهم مرض هنا هم المنافقون ابنُ أبي وأصحابه.

قال القرطبيّ قوله تعالى: "إذ يقول المنافقون و(الذين في قلوبهم مرض) غرّ هؤلاء دينهم ومن يتوكّل على الله فإنّ الله عزيز حكيم. قيل: المنافقون: الذين أظهرُوا الإيمان وأبطنُوا الكفر. و(الذين في قلوبهم مرض): الشاكّون، وهم دون المنافقين لأنّهم حديثو عهد بالإسلام، وفيهم بعض ضعف نيّة"^(١).

الذين في قلوبهم مرض ليسوا المنافقين كما هو الشّان في الآية السابقة، بل هم دوّنهم! بل هم (١) شاكّون (٢) حديثو عهد بالإسلام (٣) فيهم بعضُ ضعف نيّة.

قال القرطبي: "قوله تعالى: وأما (الذين قلوبهم مرض) أي شكّ وريب ونفاق، وقد تقدّم (فزادتهم رجسا إلى رجسهم) أي شكّا إلى شكّهم وكفرا إلى كفرهم. وقال مقاتل: إثنا إلى إثمهم، والمعنى متقارب"^(٢).

(الذين في قلوبهم مرض) هم الذين في قلوبهم شكّ وريب ونفاق. قال القرطبيّ: "قوله تعالى: ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة﴾ أي ضلالة. ﴿للذين في قلوبهم مرض﴾ أي شرك ونفاق. والقاسية قلوبهم فلا تلين لأمر الله تعالى. الآية"^(٣).

(الذين قلوبهم مرض) هم الذين في قلوبهم شرك ونفاق، رغم ما بين الشّرك والنّفاق من تباين.

١ - تفسير القرطبي، ج ٨ ص ٢٧.

٢ - نفس المصدر، ج ٨ ص ٢٩٩.

٣ - نفس المصدر، ج ١٢ ص ٨٦.

قال القرطبي: "أفي قلوبهم مرض شكّ وريب. أم ارتابوا أم حدث لهم شكّ في نبوته"^(١).

المرض هو: الشكّ والريب.

وهكذا تصبح الآية تقول أفي قلوبهم شكّ وريب أم حدث لهم شكّ (ارتابوا) ؟

وبما أنّ الشكّ والريب والارتياب بمعنى واحد، فإنّ الآية تصبح أبعد ما يكون من الفصاحة والبيان ! نعم، ما دام في ذلك محافظة على قداسة السلف فلا بأس، فإنّ المفسر إذا أخطأ في بيان معاني القرآن الكريم لم يخطئ في إصابة الأجر، لأنّه مجتهد؛ أمّا إذا سوّلت له نفسه أن يقول: إنّ الذين في قلوبهم مرض غير المنافقين المعروفين عبد الله بن أبيّ وأتباعه، فالويل له ثمّ الويل له.

قال القرطبي: "قوله تعالى: وإذ يقول المنافقون و(الذين قلوبهم مرض) أي شكّ ونفاق"^(٢).

المرض: شكّ ونفاق

وقال: "قوله تعالى: فيطمع بالنصب على جواب النهي. الذي في قلبه مرض أي شكّ ونفاق، عن قتادة والسديّ. وقيل: تشوّف الفجور، وهو الفسق والغزل، قاله عكرمة. وهذا أصوب، وليس للنفاق مدخل في هذه الآية"^(٣) [!]

١ - تفسير القرطبي، ج ١٢ ص ٢٩٣.

٢ - نفس المصدر، ج ١٤ ص ١٤٧.

٣ - نفس المصدر، ج ١٤ ص ١٧٧.

في قلبه مرض: في قلبه شك ونفاق.

في قلبه مرض: في قلبه تشوّق الفجور - وهو الفسق والغزل. وهو أصوب في نظر القرطبيّ لأنّه لا مدخل للتّفاق في هذه الآية. وأمّا في ما عداها فإنّ الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون.

قال القرطبيّ: "قوله تعالى: (لئن لم ينته المنافقون) الآية. أهل التفسير على أنّ الأوصاف الثلاثة لشيء واحد كما روى سفيان بن سعيد عن منصور عن أبي رزين قال: (المنافقون والذين قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة) قال هم شيء واحد، يعني أنّهم قد جمعوا هذه الأشياء. والواو مقحمة، كما قال: إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية في المزدحم، أراد إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتبية، وقد مضى في (البقرة). وقيل: كان منهم قوم يرجفون، وقوم يتبعون النساء للريبة وقوم يشككون المسلمين. قال عكرمة وشهر بن حوشب: الذين في قلوبهم مرض يعني الذين في قلوبهم الزنى. وقال طاوس: نزلت هذه الآية في أمر النساء. وقال سلمة بن كهيل: نزلت في أصحاب الفواحش، والمعنى متقارب. وقيل: المنافقون والذين قلوبهم مرض شيء واحد عبّر عنهم بلفظين، دليله آية المنافقين في أوّل سورة (البقرة). والمرجفون في المدينة قوم كانوا يخبرون المؤمنين.." (١).

أقول: حتّى إذا أعيثهم السُّبل، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت وظنّوا أنّه لا بدّ لهم من حلّ، لجأ كبارؤهم إلى حمل القرآن الكريم على الشاذّ من

القول الذي يستهجنونه في حواراتهم العادية، والاستشهاد بالشعر في غير محله ! وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟
أليست الآية من سورة البقرة نفسها تحتاج إلى قرينة كيما تدلّ على المنافقين ؟
أوليس هذا التوجيه من التحكم ؟
ثم ما دخل الواو المقحمة في الآية ؟ ولم لم يُسمع لها حسّ في القرآن إلا في هذا الموضع ؟ وأعجب من ذلك أنّه لا وجود لها في المعاجم والقواميس وكتب النحو ! فمن أين جاءت ؟ وكيف حظيت بهذه المنزلة في علوم القرآن و في علم التفسير بالذات ؟

[بحث حول الواو المقحمة]

قال عبد القادر الجرجاني في خزانة الأدب: " الشاهد الخامس والسبعون:
إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتبية في المزدحم
على أن يجوز عطف أحد الخبرين على الآخر كما يجوز عطف بعض الأوصاف على بعضها كما هنا. قال: ابن الهمام:... وليث الكتبية وصفان للملك وقد عطفّا على الصّفة الأولى، وهي القرم. واستشهد به الفراء في معاني القرآن وصاحب الكشف أيضاً لهذا الأمر"^(١). قلتُ: وفيه ردّ على ما ذهب إليه من ذهب من المفسّرين من أنّ الواو في قوله تعالى المنافقون والذين في قلوبهم مرض مُقَحَّمَة، لأنّه يصرّح بالعطف على الصّفة، وأمّا ما يذهبون إليه فهو اعتبارها

١ - خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب عبد القادر الجرجاني، ص ٨٥٧.

زائدة. وقال أبو حيان الأندلسي بخصوص توهم بعضهم وجود الواو المقحمة في قوله تعالى من سورة البقرة أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون" وهذا الأخير إعراب منكر لا يليق مثله بالقرآن^(١).

والواقع أنّ كلام الله تعالى أجلّ من أن تجري عليه تلك المزاعم، وهو أفصح وأبلغ ما يكون، ولا وجود للواو المقحمة في كتب النحاة واللغويين القدماء، ولا في أشعار من يُستشهد بشعرهم، فمن حقّ كلّ حريص على دينه أن يتساءل عن مصدر هذه الواو المزعومة! وإليك أمثلة تدلّ على أنّ ذلك لم يكن مسلماً لدى غير المفسرين الذين أثّرت في تفكيرهم مسألة عدالة جميع الصحابة، ووجهت اجتهاداتهم وحالت بينهم وبين إجراء القواعد اللغوية والعقلية على وجه سليم:

قال ابن القيم في كتاب الروح: "قال تعالى ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، فذكر القليلين المنحرفين عن الاعتدال هذا بمرضه وهذا بقسوته، وجعل إلقاء الشيطان فتنة لأصحاب هذين القلبين، ورحمة لأصحاب القلب الثالث وهو القلب الصافي الذي ميّز بين إلقاء الشيطان وإلقاء الملك بصفائه، وقبل الحق بإخباته ورقته، وحارب النفوس المبطلّة بصلابته"^(٢). ي

وقال ابن تيمية في كتاب النبوات: "والذي يفهم ما قالوه لا يكون إلاّ فاضلاً

١- تفسير البحر المحيط، ج ١ ص ١٦٤.

٢- الروح، ابن قيم الجوزية، ج ١ ص ٢٤١.

قد قطع درجة الفقهاء ودرجة من قلّد المتكلمين، فيصير هؤلاء إمّا منافقين وإمّا في قلوبهم مرض^(١). ولا تكون (إمّا) إلاّ لمتغايرين. وعليه تكون المغايرة تامّة بين الذين في قلوبهم مرض وبين المنافقين. وهذه العبارة من ابن تيمية مُفحمةً لأتباعه في هذه المسألة بالذات.

وقال ابن القيم في شفاء العليل: "وأما قوله ليُجعل ما يُلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم فهي على بابها وهي لام الحكمة والتعليل. أخبر الله سبحانه أنّه جعل ما ألقاه الشيطان في أمانة الرسول محنة واختباراً لعباده، فافتتن به فريقان وهم الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم"^(٢). فصّرح بأنّهما فريقان، علماً أنّها تشبه تماماً قوله تعالى (إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض). فأين المرجح؟

عودة إلى تفسير القرطبي

قال القرطبي: "وقرئ ﴿فإذا أنزلت سورةٌ وذكر فيها القتال﴾ على البناء للفاعل ونصب القتال. ﴿رأيت الذين قلوبهم مرض﴾ أي شكّ ونفاق. ﴿ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت﴾ أي نظر مغموصين مُغتاضين بتحديد وتحديق، كمن يشخص بصره عند الموت وذلك لجُبْنهم عن القتال جزعاً وهلعاً، ولميلهم في السرّ إلى الكفّار"^(٣).

١ - النبوات، ابن تيمية، ج ١ ص ٢٥٦.

٢ - شفاء العليل، ابن القيم، ج ١ ص ١٩٢.

٣ - تفسير القرطبي، ج ١٦ ص ٢٤٣.

الذين في قلوبهم مرض هنا: هم الذين في قلوبهم شكٌ ونفاق. قال القرطبي: "قوله تعالى: أم حسب الذين قلوبهم مرض نفاق وشكٌ، يعني المنافقين. أن لن يخرج الله أضغانهم الأضغان ما يضمّر من المكروه. واختلف في معناه، فقال السدي: غشهم. وقال ابن عباس: حسدهم. وقال قطرب: عداوتهم^(١).

الذين في قلوبهم مرض: هم الذين في قلوبهم نفاق وشكٌ. قال القرطبي: "وليقول الذين في قلوبهم مرض أي في صدورهم شكٌ ونفاق من منافقي أهل المدينة، الذين ينجمون في مستقبل الزمان بعد الهجرة [!!] ولم يكن بمكة نفاق إنما نجم بالمدينة. وقيل: المعنى أي وليقول المنافقون الذين ينجمون في مستقبل الزمان بعد الهجرة والكافرون أي اليهود والنصارى! ماذا أراد الله بهذا مثلاً يعني بعدد خزنة جهنم. وقال الحسين بن الفضل: السورة مكية ولم يكن بمكة نفاق، فالمرض في هذه الآية الخلاف. والكافرون أي مشركو العرب؛ وعلى القول الأول أكثر المفسرين. ويجوز أن يراد بالمرض: الشك والازتياب، لأن أهل مكة كان أكثرهم شاكين، وبعضهم قاطعين بالكذب"^(٢).

الذين في قلوبهم مرض: في صدورهم شكٌ ونفاق من منافقي أهل المدينة الذين ينجمون في مستقبل الزمان بعد الهجرة.

١ - نفس المصدر، ج ١٦ ص ٢٥١.

٢ - تفسير القرطبي - ج ١٩ ص ٨٢.

من أين له هذا؟!

لأنّه إذا قال: الذين في صدورهم شكّ ممن أظهر الإسلام من أهل مكة تكون الشبهة محصورة، إذ لا أنصاري ولا منافق، وإنما هناك مجموعة مندسة بين المؤمنين الحقيقيين، وهذه المجموعة من أهل مكة أخرج الله أضغانها فيما بعد، وتسببت في انقسام المسلمين بحيث أصبح بأشهر بينهم وانقسموا إلى ناكثين ومارقين وقاسطين، وتعطلت الحدود ونزا على منبر النبي ﷺ من لا يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة، وصلّى الأمراء بالمسلمين وهم في حالة سُكْرِ^(١). هل يستطيع القرطبي أن يقول هذا؟ إذن يفقد منصبه، وتبين منه زوجته، ويحرق بيته، ويصيبه ما أصاب النسائي والحسكائي وغيرهما. بل لا بد من صرف اللفظ عن معناه إلى المعنى الذي تستسيغه العامة ويرتضيه الحاكمون. وإلا فإن القرطبي في ما بينه وبين ضميره يعلم أن معاوية آخر من دخل في الإسلام كرهاً، ومع ذلك وصل إلى الخلافة، وأن علي بن أبي طالب عليه السلام أول من صلى مع رسول الله ﷺ، ومع ذلك أصبح يُلعن على منابر

١ - الوليد بن عقبة بن أبي معيط صحابي - كان أميراً على الكوفة من قبل عثمان - صلى بالناس الصبح أربع ركعات وهو سكران. انظر صحيح البخاري ج ٣ ص ١٤٠٥ وسنن البيهقي الكبرى ج ٨ ص ٣١٨ ومسند أبي يعلى ج ١ ص ٣٨٩ ومسند أحمد بن حنبل ج ١ ص ١٤٤ وشرح سنن ابن ماجه ج ١ ص ١٨٥ وتهذيب التهذيب ج ١١ ص ١٢٦ وتهذيب الكمال ج ٣١ ص ٥٨ والإصابة ج ٦ ص ٦١٦ والاستيعاب ج ٤ ص ١٥٥٥ وشرح مشكل الآثار ج ٦ ص ١٣٦ والمغني ج ٢ ص ٢٠٩. تهذيب التهذيب ج ٣ ص ٢٨١ وفوائد الصحابة ج ٢ ص ٦٦٧ وتاريخ الخلفاء ج ١ ص ١٥٥ وتهذيبو صادر من المؤمنين ج ٣ ص ٥٩.

عن وقت الذين في قلوبهم

شيدها بسيفه. وإنما وصل معاوية إلى تلك المنزلة بفضل الذين في قلوبهم مرض. هذه المفارقة العظيمة لا تخفى على القرطبي، بل كل ذلك يعلمه القرطبي بالتفصيل، وفي وسعه أن يُلقِيَ بخصوصه محاضرات ومحاضرات، ويؤلف مجلدات، لكن هل يمتلك - هو وأشباهه - من النزاهة والشجاعة ما يستطيع أن يُسمّي به الحقّ حقًا والباطل باطلاً ؟

كان ذلك ما ذكره القرطبي بخصوص الذين في قلوبهم مرض، ويتلخّص منه أنّ الذين في قلوبهم مرض في تفسير القرطبي تعني ما يلي: (١) المَرَضُ عبارة مستعارة للفساد الذي في عقائدهم. وذلك إمّا أن يكون شكّاً ونفاقاً، وإمّا جحداً وتكذيباً. والمعنى: قلوبهم مرضى لخلوها عن العصمة والتوفيق والرعاية والتأييد. (٢) (الذين قلوبهم مرض) شكّ ونفاق والمراد ابن أبي وأصحابه. (٣) (الذين في قلوبهم مرض): الشاكّون، وهم دون المنافقين، لأنهم حديثو عهد بالإسلام، وفيهم بعض ضعف نيّة (٤) (الذين في قلوبهم مرض) هم الذين في قلوبهم شكّ وريب ونفاق. (٥) (الذين قلوبهم مرض) هم الذين في قلوبهم شرك ونفاق. (٦) في قلبه مرض في قلبه شكّ ونفاق. (٧) في قلبه مرض: في قلبه تشوّق الفجور - وهو الفسق والغزل. (٨) (الذين في قلوبهم مرض): هم الذين في قلوبهم شكّ ونفاق. (٩) (الذين في قلوبهم مرض): هم الذين في قلوبهم نفاق وشكّ. (١٠) الذين في صدورهم شكّ

٢١٠ : أهل المدينة، الذين ينجمون في مستقبل الزّمان بعد الهجرة !!

١ - نفس المصدر، ج ١٦ ص ٢٥١.

٢ - تفسير القرطبي - ج ١٩ ص ٨٢.

الفصل السادس

الذين في قلوبهم مرض
في
نظر مفسري القرن الثامن

- أبو حيان التوحيدي الأندلسي
- ابن كثير

هو صادر من المؤمنين
' يكون في وقت الذين في قلوبهم

١ - نفس المصدر، ج ١٦ ص ٢٥١ .

٢ - تفسير القرطبي - ج ١٩ ص ٨٢ .

الذين في قلوبهم مرض في تفسير البحر المحيط

قال أبو حيان الأندلسي: "... فمضى عليّ ثم رجع فأخبر: أتهم جنبوا الخيل، وقعدوا على أثقالهم عجالا، فأمن المؤمنون المصدقون رسول الله، وألقى الله تعالى عليهم النّعاس. وبقي المنافقون الذين في قلوبهم مرض لا يصدّقون بل كان ظنّهم أنّ أبا سفيان يؤمّ المدينة، فلم يقع على أحد منهم نوم، وإنّا كان همّهم في أحوالهم الدنيوية. وثبت في البخاريّ من حديث أبي طلحة قال: غشيّنا النّعاس ونحن في مصافنا يوم أحد..."^(١).

الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون.

قال أبو حيان: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ الخطاب للرسول ﷺ، والذين في قلوبهم مرض عبد الله بن أبيّ ومن تبعه من المنافقين، أو من مؤمني الخزرج متابعة جهالة وعصبية، فهذا الصّنف له حصّة من مرض القلب قاله ابن عطية. ومعنى يسارعون فيهم: أي في مولاتهم ويرغبون فيها...^(٢).

الذين في قلوبهم مرض عبد الله بن أبيّ ومن تبعه من المنافقين، أو من مؤمني الخزرج.

قال أبو حيان في تفسيره: "والظاهر أنّ هذا القول هو صادر من المؤمنين عند رؤية الفتح كما قدّمنا. قيل: ويحتمل أن يكون في وقت الذين في قلوبهم

١ - تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، ج ٣ ص ٩٢.

٢ - نفس المصدر، ج ٣ ص ٥٢٠.

مرض يقولون: ﴿نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ وعندما ظهر سؤالهم في أمر بني قينقاع وسؤال عبد الله بن أبيّ فيهم، ونزل الرسول إليّاهم له، وإظهار عبد الله أنّ خشية الدوائر هي خوفه على المدينة ومن بها..^(١).

قال أبو حيان: "والله شديد العقاب معطوفاً على معمول القول قال: ذلك بسطاً لعذره عندهم وهو متحقق أنّ عذاب الله شديد. ويحتمل أن يكون من كلام الله استأنف تهديداً لإبليس ومن تابعه من مشركي قريش. ﴿إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم﴾، العامل في إذ زين أو نكص أو سميع عليم أو اذكروا أقوال، وظاهر العطف التّغاير. فقليل المنافقون هم من الأوس والخزرج لما خرج الرسول ﷺ قال بعضهم: نخرج معه وقال بعضهم: لا نخرج غرّ هؤلاء أي المؤمنين دينهم فإنّهم يزعمون أنّهم على حقّ وأنّهم لا يغلبون، هذا معنى قول ابن عباس؛ والذين في قلوبهم مرض قوم أسلموا ومنعهم أقرباؤهم من الهجرة فأخرجتهم قريش معها كرهاً، فلمّا نظروا إلى قلة المسلمين ارتابوا وقالوا غرّ هؤلاء دينهم فقتلوا جميعاً، منهم قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والحريث بن زمعة بن الأسود وعليّ بن أمية والعاصي بن منبه بن الحجاج ولم يذكر أنّ منافقاً شهد بدرًا مع المسلمين إلا معتب بن قشير فإنّّه ظهر منه يوم أحد قوله لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا ههنا، وقيل والذين في قلوبهم مرض هو من عطف الصّفات وهي لموصوف واحد وصفوا بالتّفاق وهو إظهار ما يخفيه من المرض كما قال تعالى في

١ - تفسير البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي، ج ٣ ص ٥٢١.

قلوبهم مرض وهم منافقو المدينة، وعن الحسن هم المشركون ويبعد هذا إذ لا يتّصف المشركون بالتّفاق لأنّهم مجاهرون بالعداوة لا منافقون، وقال ابن عطية: قال المفسّرون: إنّ هؤلاء الموصوفين بالتّفاق ومرض القلوب إنّما هم من أهل عسكر الكفّار لما أشرفوا على المسلمين ورأوا قلّة عددهم قالوا مشيرين إلى المسلمين غرّ هؤلاء دينهم أي اغترّوا فأدخلوا أنفسهم فيها لا طاقة لهم به، وكنى بالقلوب عن العقائد، والمرض أعمّ من التّفاق إذ يطلق مرض القلب على الكفر^(١).

المنافقون هم من الأوس والخزرج.

الذين في قلوبهم مرض قوم أسلموا ومنعهم أقرباؤهم من الهجرة فأخرجتهم قريش معها كرهاً، منهم قيس بن الوليد بن المغيرة و...و... وقيل والذين في قلوبهم مرض هو من عطف الصّفات وهي لموصوف واحد، وُصفوا بالتّفاق وهو إظهار ما يخفيه من المرض كما قال تعالى في قلوبهم مرض وهم منافقو المدينة. وهم من أهل عسكر الكفّار!؟

قال أبو حيان: "وأما الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، والصّحة والمرض في الأجسام، فنقل إلى الاعتقاد مجازاً والرّجس القذر، والرّجس

١ - تفسير البحر المحيط ، ج ٤ ص ٥٠١.

العذاب، وزيادته عبارة عن تعمّقهم في الكفر وخبطهم في الضلال. وإذا كفروا بسورة فقد زاد كفرهم واستحكم..

وقال السديّ والكلبيّ: شكّا إلى شكّهم. وقال ابن عباس: أراد ما أعدّ لهم من الخزي والعذاب المتجدّد عليهم في كلّ وقت، في الدّنيا والآخرة. وأنّج نزول السورة للمؤمنين شيئين: زيادة الإيمان، والاستبشار بما لهم عند الله. وللذين في قلوبهم مرض زيادة رجس، والموافاة على الكفر.. والزيادة إلى أن ماتوا على الكفر. ﴿أو لا يرون أنّهم يفتنون في كلّ عام مِرّة أو مرّتين ثمّ لا يتوبون ولا هم يذكّرون﴾: لما ذكر أنّهم بموتهم على الكفر رائحون إلى عذاب الآخرة، ذكر أنّهم أيضاً في الدّنيا لا يخلصون من عذابها. والضّمير في يرون عائد على الذين في قلوبهم مرض، وذلك على قراءة الجمهور بالياء. وقرأ حمزة بالتاء خطاباً للمؤمنين. والرّؤية يحتمل أن تكون من رؤية القلب، ومن رؤية البصر. وقرأ أبيّ وابن مسعود، والأعمش: أو لا ترى أي أنت يا محمّد؟^(١).

الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون.

قال أبو حيّان: "وقيل: هي لام العاقبة و﴿ما﴾ في ﴿يلقي﴾ الظاهر أنّها بمعنى الذي، وجوّز أن تكون مصدرية. والفتنة: الابتلاء والاختبار. والذين في قلوبهم مرض عامة الكفار. وقال الرّخّشيّ: المنافقون والشّاكّون و﴿القاسية

١ - تفسير البحر المحيط، ج ٥ ص ١١٩.

قلوبهم ﴿خَوَّصَ مِنَ الْكُفَّارِ عَتَاةَ كَأَبِي جَهْلٍ وَالنَّضْرَ وَعَتْبَةَ﴾^(١). وقال الزَّمَخْشَرِيُّ: "المشركون المكذَّبون..... الذين في قلوبهم مرض عامة الكفار"^(٢). الذين في قلوبهم مرض: المنافقون والشَّاكُونَ.

قال أبو حَيَّان: "وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ﴿هُمْ الْمَظْهَرُونَ لِلْإِيمَانِ الْمُبْطِنُونَ الْكُفْرَ﴾ والذين في قلوبهم مرض ﴿هُمْ ضَعْفَاءُ الْإِيمَانِ الَّذِينَ لَمْ يَتِمَّكَّنِ الْإِيمَانُ مِنْ قُلُوبِهِمْ، فَهُمْ عَلَى حَرْفٍ، وَالْعُطْفُ دَالٌّ عَلَى التَّغَايُرِ، نَبَّهَ عَلَيْهِمْ عَلَى جِهَةِ الدِّمِّ. لَمَّا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصَّخْرَةَ وَبَرَقَتْ تِلْكَ الْبَوَارِقُ.."^(٣).

الذين في قلوبهم مرض: هم ضعفاء الإيمان الذين لم يتمكَّن الإيمان من قلوبهم، فهم على حرف.

قال أبو حَيَّان: "وَنَصَّ عَلَى هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ لَشِدَّةِ ضَرَرِهِمَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ عِكْرَمَةُ: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، هُوَ الْغَزْلُ وَحُبُّ الزَّانَا، وَمِنْهُ فَيُطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ. وَقَالَ السَّيِّدِيُّ: الْمَرَضُ: التَّفَاقُ، وَمَنْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمُ الَّذِينَ آذَوْا عُمَرَ! وَقَالَ الْكَلْبِيُّ مَنْ آذَى

١ - نفس المصدر السابق، ج ٦ ص ٣٥٣.

٢ - نفس المصدر، ج ٥ ص ١١٩.

٣ - نفس المصدر، ج ٧ ص ٢١٢.

المسلمين. وقال ابن عباس: ﴿المرجفون﴾: ملتمسو الفتن. وقال قتادة: الذين يؤذون قلوب المؤمنين بإيهاهم القتل والهزيمة^(١).

قال أبو حيان: "﴿فهل عسيتم﴾ التفات الى الذين في قلوبهم مرض، أقبل بالخطاب عليهم على سبيل التوبيخ وتوقيفهم على سوء مرتكبهم، وعسى تقدّم الخلاف في لغتها. وفي القراءة فيها، إذا اتصل بها ضمير الخطاب في سورة البقرة، واتصال الضمير بها لغةً الحجاز.."^(٢).

المرض هو الغزل وحبّ الزنا، ومنه يقطع الذي في قلبه مرض، فالذين في قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم حبّ الزنا. وقال السدي: المرض: النفاق، فالذين في قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم النفاق.

ويتلخص مما ذكره أبو حيان الأندلسي أنّ الذين في قلوبهم مرض تفسّر كما يلي:

- (١) هم المنافقون. (٢) الذين في قلوبهم مرض عبد الله بن أبيّ ومن تبعه من المنافقين، أو من مؤمني الخزرج. (٣) المنافقون هم من الأوس والخزرج.
- (٤) قوم أسلموا ومنعهم أقرباؤهم من الهجرة فأخرجتهم قريش معها كرهاً. (٥) منهم قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والحرث بن زمعة بن الأسود وعلي بن أمية والعاصي بن منبه بن الحجاج.

١ - نفس المصدر السابق، ج ٧ ص ٢٤١.

٢ - نفس المصدر، ج ٨ ص ٨١.

(٦) وقيل والذين في قلوبهم مرض هو من عطف الصّفات وهي لموصوف واحد وصفوا بالنفاق وهو إظهار ما يخفيه من المرض كما قال تعالى في قلوبهم مرض وهم منافقو المدينة. (٧) هم من أهل عسكر الكفار. (٨) الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون. (٩) الذين في قلوبهم مرض عامّة الكفار. (١٠) المنافقون والشّاكّون. (١١) هم ضعفاء الإيمان الذين لم يتمكّن الإيمان من قلوبهم، فهُم على حَرْف. (١٢) المرض هو الغزل وحُبّ الزّنا، ومنه فيطمع الذي في قلبه مرض. فالذين في قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم حُبّ الزّنا.

الذين في قلوبهم مرض في تفسير ابن كثير

قال ابن كثير في تفسير سورة البقرة:

﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ "قال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ في هذه الآية (في قلوبهم مرض) قال شك فزادهم الله مرضاً قال شكاً. وقال ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة عن ابن عباس (في قلوبهم مرض) قال شك. وكذلك قال مجاهد وعكرمة والحسن البصري وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة. وعن عكرمة وطاوس (في قلوبهم مرض) يعني الرياء. وقال الضحاك عن ابن عباس (في قلوبهم مرض) قال نفاق فزادهم الله مرضاً قال نفاقاً، وهذا كالأول. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (في قلوبهم مرض) قال هذا مرض في الدين وليس مرضاً في الأجساد وهم المنافقون والمرض الشك الذي دخلهم في الإسلام. فزادهم الله مرضاً قال زادهم رجساً، وقرأ ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾. قال شراً إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم" (١).

فالمراد بالمرض: الشك والنفاق، والذين في قلوبهم مرض هم المنافقون. لكنه يقول بعد ذلك: "فأما غير هؤلاء فقد قال الله تعالى ﴿وممن حولكم

من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم.. ﴿ الآية وقال تعالى: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا﴾ ففيها دليل على أنه لم يغر بهم ولم يدرك على أعيانهم، وإثما كان تذكر له صفاتهم فيتوسمها في بعضهم كما قال تعالى ﴿ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول﴾ وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبد الله بن أبي بن سلول، وقد شهد عليه زيد بن أرقم بذلك الكلام الذي سبق في صفات المنافقين^(١).

فابن كثير يعترف أن من المنافقين من لم يدرك النبي ﷺ أعيانهم وإثما كانت تذكر له صفاتهم.

ثم قال في معرض تفسير آية القبله: " ..ويحكم ما يريد فله أن يكلف عباده بما شاء، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك بخلاف (الذين في قلوبهم مرض) فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكاً كما يحصل للذين آمنوا إيقان وتصديق كما قال الله تعالى ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ وقال

١ - تفسير ابن كثير، ج ١ ص ٥٢ .

تعالى ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ وقال تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^(١). استعمل ابن كثير هنا عبارة (الذين قلوبهم مرض) باعتبارها مرادفة لعبارة (المنافقون) والحال أنها قسيمة لها كما هو واضح في قوله تعالى لئن لم ينته المنافقون و(الذين في قلوبهم مرض).

وقال: " كما أخبرنا تعالى عنهم في قوله ﴿فَتَرَى الَّذِينَ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى﴾ - إلى قوله - ﴿فَيُضْحِكُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾. وقد قال الطبراني: حدثنا أبو زيد أحمد بن يزيد الحوطي حدثنا أبو اليان حدثنا صفوان بن عمر عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان أبو برزة الأسلمي كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه فتنافر إليه ناس من المشركين فأنزل الله عز وجل ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إلى قوله ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾. ثم قال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ هذا الضرب من الناس هم المنافقون والله يعلم ما في قلوبهم وسيجزئهم على ذلك، فإنه لا تخفى عليه خافية فاكتمف به يا محمد فيهم فإنه عالم بظواهرهم وبواطنهم. ولهذا قال له ﴿فَاعْرُضْ عَنْهُمْ﴾ أي لا تعنفهم على ما في قلوبهم ﴿وَعِظْهُمْ﴾ أي وانهم عما في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي وانصحهم فيما

بَيْنَكَ وَيَبْنَهُمْ بِكَلَامٍ بَلِيغٍ رَاحِعٍ هُمْ" (١).

انظروا - وأمعن النظر - إلى التهاافت العجيب! يقول: تنافر إليه ناس من المشركين، والآية تقول: الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك! فمتى زعم المشركون أنهم آمنوا بما أنزل إلى رسول الله ﷺ وما أنزل من قبله؟! ثم قال: هذا الضرب من الناس هم المنافقون! فهم من جهة يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى رسول الله، وهم مشركون أيضاً، وهم منافقون..... فهم في نفس الوقت طائفة واحدة متحدة وطوائف متغايرة متميزة!

قال ابن كثير: "وقوله تعالى ﴿فَتَرَى الَّذِينَ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ مَرَضٌ﴾ أي شكٌّ ورَيْبٌ ونفاقٌ ﴿يَسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي يبادرون إلى موالاتهم ومودّتهم في الباطن والظاهر ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أي يتأولون في مودّتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى فينفعهم ذلك؛ عند ذلك قال الله تعالى ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ قال السديّ يعني فتح مكة وقال غيره يعني القضاء والفصل ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ قال السديّ يعني ضرب الجزية على اليهود والنصارى ﴿فَيَصْبَحُوا﴾ يعني الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين ﴿عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من الموالاتة ﴿نَادِمِينَ﴾" (٢).

١ - تفسير ابن كثير، ج ١ ص ٥٣١ .

٢ - نفس المصدر السابق، ج ٢ ص ٧١ .

فالمرض هنا: الشك والريب والتناق.

قال ابن كثير: "وقوله ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرْ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية لما دنا القوم بعضهم من بعض قلّل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلّل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون غَرْ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ. وإنّما قالوا ذلك من قلّتهم في أعينهم، فظنّوا أنّهم سيهزمونهم لا يشكّون في ذلك فقال الله ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وقال قتادة: رأوا عصابة من المؤمنين تشدّدت لأمر الله؛ وذكر لنا أنّ أبا جهل عدوّ الله لما أشرف على محمّد ﷺ وأصحابه قال: والله لا يعبد الله بعد اليوم - قسوة وعتوّا -. وقال ابن جريج في قوله "إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ" هم قوم كانوا من المنافقين بمكة قالوه يوم بدر وقال عامر الشعبي كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام فخرجوا مع المشركين يوم بدر فلما رأوا قلة المسلمين قالوا غَرْ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ. وقال مجاهد في قوله عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرْ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ قال فئة من قريش قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والحارث بن زمة بن الأسود بن المطلب وعلي بن أمية بن خلف والعاص بن منبه بن الحجاج خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب، فحبسهم ارتيابهم، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا غَرْ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ حتّى قدموا على ما قدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوّهم؛ وكذا قال محمّد بن إسحق بن يسار سواء. وقال ابن جرير: حدّثنا محمّد بن عبد الأعلى حدّثنا محمّد بن ثور عن معمر عن الحسن في هذه الآية قال: هم قوم لم يشهدوا القتال

يوم بدر فسُمّوا منافقين! قال معمر: وقال بعضهم هم قوم كانوا أقروا بالإسلام وهم بمكة فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا غر هؤلاء دينهم^(١).

إذا هم:

(١) المشركون (٢) قوم كانوا من المنافقين بمكة (٣) ناس تكلموا بالإسلام بمكة (٤) فئة من قريش (٥) قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر. ومع أنه لا ذكر لعبارة المنافقين من الآية ١١٨ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ إلى الآية ١٢٤ ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾، فإن ابن كثير يقول: "وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون" يقول تعالى ﴿وإذا ما أنزلت سورة﴾ فمن المنافقين ﴿من يقول أيكم زادته هذه إيماناً﴾ أي يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه السورة إيماناً قال الله تعالى ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾ وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء. بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك. وقد

١ - تفسير ابن كثير، ج ٢ ص ٣٣١.

بسطة الكلام على هذه المسألة في أول شرح البخاري رحمه الله. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي زادتهم شكًا إلى شكهم وربيا إلى ريبهم كما قال تعالى ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ الآية وقوله ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سببا لضلالهم ودمارهم، كما أن سيء المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالا ونقصا^(١).

وهكذا أصبح المرض والرجس والشك والريب بمعنى واحد. قال ابن كثير: "قال الضحاک: نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان وأحكم الله آياته. وقوله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي بما يكون من الأمور والحوادث لا تخفى عليه خافية، ﴿حَكِيمٌ﴾ أي في تقديره وخلقه وأمره له الحكمة التامة والحجة البالغة، ولهذا قال ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي شك وشرك وكفر ونفاق كالمشركين حين فرحوا بذلك واعتقدوا أنه صحيح من عند الله، وإنما كان من الشيطان. قال ابن جريج (الذين في قلوبهم مرض) هم المنافقون ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ﴾ هم المشركون. وقال مقاتل بن حيان هم اليهود ﴿وَأَنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي في ضلال ومخالفة وعناد بعيد أي من الحق والصواب^(٢).

١ - تفسير ابن كثير، ج ٢ ص ٤١٧ .

٢ - نفس المصدر السابق، ج ٣ ص ٢٤١ .

فـ(الذين قلوبهم مرض): هم الذين في قلوبهم شكّ، وشرك، وكفر، ونفاق. وحسم المسألة ابن جريج حيث قال: الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون.

وقال: "قال تعالى (أفي قلوبهم مرض) الآية يعني لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها، أو قد عرض لها شكّ في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم. وأياً ما كان فهو كُفْرٌ محض [!] والله عليهم بكلّ منهم وما هو منطوق عليه من هذه الصفات. وقوله تعالى ﴿بل أولئك هم الظالمون﴾ أي بل هم الظالمون الفاجرون، والله ورسوله مبرّآن مما يظنون ويتوهّمون من الحيف والجور تعالى الله ورسوله عن ذلك" (١).

ومعنى المرض هنا غير بين بالحدّ الدقيق، لكنّه لازم أو قد عرض منه للقلوب شكّ في الدين، وهو مع ذلك كفر محض.

وقال في تفسير قوله تعالى إلّا من أتى الله بقلب سليم: "ولهذا قال ﴿إلّا من أتى الله بقلب سليم﴾ أي سالم من الدّنس والشّرك. قال ابن سيرين: القلب السّليم أن يعلم أنّ الله حقّ، وأنّ السّاعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور. وقال ابن عباس: ﴿إلّا من أتى الله بقلب سليم﴾ القلب السّليم أن يشهد أن لا إله إلا الله، وقال مجاهد، والحسن، وغيرهما: ﴿بقلب سليم﴾ يعني من الشّرك؛ وقال سعيد بن المسيّب القلب السّليم هو القلب الصّحيح

وهو قلب المؤمن، لأنَّ قلب الكافر والمنافق مريض قال الله تعالى ﴿في قلوبهم مرض﴾. قال أبو عثمان النيسابوريّ هو القلب السّالم من البدعة المطمئنّ إلى السّنة^(١).

ولم يعلق ابن كثير على كلام النيسابوريّ، وعليه يكون القلب المطمئنّ إلى غير ما يراه الأخير سنّة قلبا مريضا، وقد يبقى تفسير المرض بالكفر والشّرك والشّهوة والفجور....

وقال: "تكلم الذين قلوبهم مرض بما في أنفسهم. وإذ يقول المنافقون (الذين قلوبهم مرض) ما وعدنا الله ورسوله إلّا غرورا. أمّا المنافق فنجم نفاقه، والذي في قلبه شبهة أو حسكة لضعف حاله فتنفّس بما يجده من الوسواس في نفسه لضعف إيمانه وشدة ما هو فيه من ضيق الحال. وقوم آخرون قالوا كما قال الله تعالى (وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب) يعني المدينة"^(٢).

وهنا فرّق ابن كثير بين المنافق ومن في قلبه مرض. فابتدأ بـ (أمّا) التّفصيلية وجاء بالفاء في جوابها، وهو تفصيل لا ريب فيه.

وإذا هناك صنفان تحت عنوان الذين في قلوبهم مرض:

* المنافق فنجم نفاقه.

* الذي في قلبه شبهة أو حسكة لضعف حاله.

١- نفس المصدر السابق، ج ٣ ص ٣٥٢.

٢- نفس المصدر، ج ٣ ص ٤٨١.

قال الجوهري في صحاحه (مادة حسك ١٤٠٥)... قولهم في صدره عليّ حساكة وحسيكة أي ضغن وعداوة.

وإذاً، فهو ليس مجرد ضعف حال ووسواسٍ يجده في نفسه لضعف الإيمان وشدة ما هو فيه من ضيق الحال، بل هو ضغن وعداوة. فيصبح الضغن والعداوة أيضاً من مصاديق المرض الذي سكن تلك القلوب. وسيأتي لاحقاً كلام في معنى قوله تعالى ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم﴾.

قال ابن كثير: " (فيطمع الذي في قلبه مرض) أي دَغَلَ (وَقُلْنَ قَوْلًا معروفًا) قال ابن زيد: قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير، ومعنى هذا أنها تتخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم؛ أي لا تتخاطب المرأة الأجانب كما تتخاطب زوجها"^(١).

وهنا يكون المرض هو الدَغَلُ.

وفي سورة محمد ﷺ مرّ ابنُ كثير ولم يتوقف عند العبارة، وإنّما ذكر سبب نظرهم إلى النبي ﷺ نظر المغشي عليه من الموت. وبما أنّ العبارة واردة في السّورة أكثر من مرّة فقد قال في التّالية: "يقول تعالى ﴿أم حسب الذين قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم﴾ أي أيعتقد المنافقون أنّ الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين، بل سيوضح أمرهم ويجلّيه حتى يفهمهم ذوو البصائر.

١ - نفس المصدر السابق، ج ٣ ص ٤٩١.

وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة براءة فبيّن فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدّالة على نفاقهم، ولهذا كانت تسمّى الفاضحة. والأضغان جمع ضغن وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره^(١).

وقال في تفسير سورة المدّثر: ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض﴾ أي من المنافقين ﴿والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ أي يقولون ما الحكمة في ذكر هذا ههنا؟ قال الله تعالى ﴿كذلك يضلّ الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي من مثل هذا وأشباهه يتأكّد الإيذان في قلوب أقوام ويتزلزل عند آخرين، وله الحكمة البالغة والحجّة الدّامغة^(٢).

ولا يخفى موضع (من) في قوله "من المنافقين"، فإنّه لا يعني كلّ المنافقين، وإنّا قسمنا منهم. فهل يكون معنى ذلك أنّ هناك منافقين في قلوبهم مرض ومنافقين ليس في قلوبهم مرض؟!

هذا ما كان من ابن كثير بخصوص الذين في قلوبهم مرض. فإذا ضمّمنا بعضها إلى بعض تكون كالتالي:

(١) (في قلوبهم مرض) قال شكّ أي في قلوبهم شكّ. (٢) (في قلوبهم مرض) يعني الرّياء أي في قلوبهم الرّياء. (٣) (في قلوبهم مرض) نفّاق أي في قلوبهم النّفاق. (٤) (في قلوبهم مرض) هذا مرض في الدّين وليس مرضاً في

١- نفس المصدر السابق، ج ٤ ص ١٩٤.

٢- نفس المصدر، ج ٤ ص ٤٧٤.

الأجساد وهم المنافقون. (٥) " هذا الضرب من الناس هم المنافقون. (٦) (الذين قلوبهم مرض) " أي شكّ وريب. (٧) (الذين في قلوبهم مرض): المشركون. (٨) هم قوم كانوا من المنافقين بمكة قالوه يوم بدر. (٩) ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام فخرجوا مع المشركين يوم بدر. (١٠) فئة من قريش قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب، وعليّ بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج؛ خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب. (١١) هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسمّوا منافقين. (١٢) الذين في قلوبهم مرض أي شكّ وشرك وكفر ونفاق. (١٣) أن يكون في القلوب مرض لازم لها أو قد عرض لها شكّ في الدين. (١٤) والذي في قلبه شبهة أو حسكة لضعف حاله فتنفّس بما يجده من الوسواس في نفسه لضعف إيمانه وشدة ما هو فيه من ضيق الحال.

الفصل السابع

الذين في قلوبهم مرض

في

نظر مفسري القرن التاسع

• تفسير الجلالين

• الثعالبي

باعتبار الجلال الأول من علماء القرن التاسع.

الذين في قلوبهم مرض في تفسير الجلالين

قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ضعف اعتقاد ﴿فَرَادَتْهُمْ رَجْسًا إِلَى رَجْسِهِمْ﴾ كفرا إلى كفرهم لكفرهم بها ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾^(١).

ثم يقول: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ محنة ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شقاق ونفاق^(٢).

ويقول: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ كفر ﴿أَمْ ارْتَابُوا﴾ أي شكوا في بُرْهانه ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحْيِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ﴾ في الحكم أي فيظلموا فيه؟ لا ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بالإعراض عنه^(٣).

ثم هو يقول: ﴿فَيُطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ نفاق ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ من غير خضوع^(٤).

ثم يقول: ﴿لَنْ﴾ لَمْ قَسَمَ ﴿لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ عن نفاقهم ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ بالزنا ﴿وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ المؤمنين بقولهم قد أتاكم العدو وسراياكم قتلوا أو هزموا ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لنسلطنك عليهم ﴿ثُمَّ لَا يَجَاوِرُونَكَ﴾ يساكنونك ﴿فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ثم يخرجون^(٥).

١ - تفسير الجلالين ، ص ٢٦٤ .

٢ - تفسير الجلالين ، ص ٤٤١ .

٣ - تفسير الجلالين ص ٤٦٦ .

٤ - نفس المصدر ص ٥٥٤ .

٥ - نفس المصدر ص ٥٦٠ .

ويقول: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً مُحْكَمَةً﴾ أي لم يُنسخ منها شيء ﴿وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ﴾ أي طلبه ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي شك وهم المنافقون^(١).
 وقال: ﴿وَيَزِدَادُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من أهل الكتاب ﴿إِيمَانًا﴾ تصديقًا لموافقته ما أتى به النبي ﷺ لما في كتابهم ﴿وَلَا يَرْتَابُ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ من غيرهم في عدد الملائكة ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شك بالمدينة ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ بمكة ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا...﴾^(٢).
 أقول: أضاف عبارة "بالمدينة" ولا وجود لها، ولا لقرينة تدل على ذلك!!
 لكنّه في تفسير قوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾^(٣) لم يشر إليهم لا بنفاق ولا بكفر ولا شك ولا ضعف اعتقاد، بل اكتفى بقوله: يُظْهِرُ أَحْقَادَهُمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ والمؤمنين. لكن من هم؟

 ١ - تفسير الجلالين ص ٦٧٥.

٢ نفس المصدر السابق ص ٧٧٧.

٣ - نفس المصدر ص ٦٧٦.

الذين في قلوبهم مرض في تفسير الثعالبي

قال الثعالبي: "قوله تعالى (في قلوبهم مرض) أي في عقائدهم فساد، وهم المنافقون. وذلك إما أن يكون شكًا وإما جحدا بسبب حسدهم مع علمهم بصحة ما يتحدثون. وقال قوم المرض غمهم بظهوره صلى الله عليه وسلم فزادهم الله مرضا قيل هو دعاء عليهم، وقيل هو خبر أن الله قد فعل بهم ذلك؛ وهذه الزيادة هي بما ينزل من الوحي ويظهر من البراهين"^(١).

القول الأول: الذين في قلوبهم مرض هم الذين في عقائدهم فساد وهم المنافقون. والمرض إما أن يكون شكًا وإما جحدا بسبب حسدهم. وقول آخر: المرض غمهم بظهوره ﷺ.

قال الثعالبي: "وقوله سبحانه ﴿الذين في قلوبهم﴾، المعنى: فترى يا محمد ﴿الذين قلوبهم مرض﴾ إشارة إلى عبد الله بن أبي ومن تبعه من المنافقين على مذهبه في حماية بني قينقاع"^(٢).

ويفهم من هذا أنهم المنافقون لا غير، لأنّ المنافقين هم عبد الله بن أبي وأتباعه.

قال الثعالبي: "يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض.. الآية قال المفسرون إنّ هؤلاء الموصوفين بالتفاق إنّما هم من أهل عسكر الكفار ممن كان الإسلام داخل قلوبهم، خرجوا مع المشركين إلى بدر منهم مكره وغير مكره،

١ - تفسير الثعالبي، ج ١ ص ١٨٨.

٢ - نفس المصدر، ج ٢ ص ٣٩٣.

فلما أشرفوا على المسلمين ورأوا قتلهم ارتابوا وقالوا مشيرين إلى المسلمين: غر هؤلاء دينهم؛ قال ولم يذكر أحد ممن شهد بدرًا بنفاق إلا ما ظهر بعد ذلك من معتب بن قشير فإنه القاتل يوم أحد لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا. وقد يحتمل أن يكون منافقو المدينة لما وصلهم خروج قريش في قوة عظيمة قالوا هذه المقالة. ثم أخبر الله سبحانه بأن من توكل عليه وفوض أمره إليه فإن عزته سبحانه وحكمته كفيلة بنصره^(١).

والذي يفهم من كلامه أنهم من أهل عسكر الكفار، ممن كان الإسلام داخل قلوبهم، وأنهم كانوا بمكة قبل معركة بدر، وأنهم ارتابوا.... ويحتمل أيضا أن يكون منافقو المدينة مقصودين بذلك.

فهناك تفسيران اثنان لا تفسير واحد، ولم يرجح الثعالبي واحدا منهما على الآخر، كما أنه لم يشر إلى من تبنى الاحتمال الثاني، ولا يبعد أن يكون له، لكنه ذكر أن الأول عليه المفسرون [قال المفسرون إن هؤلاء الموصوفين بالتفاق..] والواقع أن هناك موصوفين بالتفاق وأن هناك أيضا موصوفين بـ (في قلوبهم مرض)، وكأن الإفصاح عن مرضى القلوب أمر ممنوع!

قال الثعالبي: " فإذا نزلت السورة زادت في أدلته، ووجه آخر من وجوه الزيادة أن الإنسان ربما عرضه شك يسير، أو لاحت له شبهة مشغبة، فإذا نزلت السورة ارتفعت تلك الشبهة وقوي إيمانه ارتقى اعتقاده عن معارضة

السُّبُهَات. والذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، والرَّجْس في اللُّغة يجيء بمعنى القدر ويجيء بمعنى العذاب؛ وحال هؤلاء المنافقين هي قدر وهي عذاب عاجل كفيل بآجل. وإذا تجدد كفرهم بسورة فقد زاد كفرهم فذلك زيادة رجس إلى رجسهم^(١).

والمقصود بـ(الذين قلوبهم مرض) حسب كلامه هم المنافقون. وقال في تفسير قوله تعالى ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة: "وقوله سبحانه ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة﴾ الفتنة الامتحان والاختبار، والذين قلوبهم مرض عامّة الكفّار، والقاسية قلوبهم خواصّ منهم عتاة كأبي جهل وغيره، والشقاق البعد عن الخير والكون في شقّ غير شقّ الصّلاح، والذين أوتوا العلم هم أصحاب نبينا محمد ﷺ والضمير في "أنه" عائد على القرآن، ﴿فتختب له قلوبهم﴾ معناه تتطامن وتخضع وهو مأخوذ من الخبت وهو المطمئن من الأرض"^(٢).

فالمقصود بـ(الذين في قلوبهم مرض) هذه المرّة عامّة الكفّار. والقاسية قلوبهم أيضاً مشمولون وزيادة!

١- نفس المصدر السابق، ج ٣ ص ٢٣١.

٢- هذا لا يستقيم لأنّ الله تعالى يقول (يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم منكم درجات..) فلو كان أصحاب النبي كلّهم آمنوا وأوتوا العلم لقال يرفعكم ولم يقل يرفع منكم. ومثل هذا في القرآن كثير، وهو لوحده كاف لإبطال نظرية عدالة جميع الصّحابة.

٣- نفس المصدر السابق، ج ٤ ص ١٣٣-١٣٤.

قال الثعالبي: "وقوله سبحانه والذين في قلوبهم مرض المرض هنا هو الغزل وحب الزنا! قاله عكرمة؛ والمرجفون في المدينة هم قوم كانوا يتحدثون بغزو العرب المدينة ونحو هذا مما يرجفون به نفوس المؤمنين. فيحتمل أن تكون هذه الفرق داخلة في جملة المنافقين، ويحتمل أن تكون متباينة. ونغريّنك بين معناه نحضّك عليهم بعد تعيينهم لك، وفي البخاري: وقال ابن عباس لنغريّنك لنسلطّنك. وقوله تعالى ثم لا يجاورونك أي بعد الإغراء، لأنك تنفيهم بالإخافة والقتل.." (١).

أقول: المعارضون للرسالة طوائف، منهم منافقون ومنهم كفّار مشركون، ومنهم أهل الكتاب، ومنهم الذين في قلوبهم مرض، وكلّ طائفة تحتفظ بمميّزاتها إلاّ (الذين في قلوبهم مرض) فإنهم تارة يكونون من المسلمين، وتارة من المشركين، وطورا من المنافقين.... فهل يكون كلام رب العالمين بهذا النحو؟!

وقال: "اعلم أنّ ذكر الله سبب لحصول النور والهداية، وزيادة الاطمئنان في النفوس الطاهرة الروحانية. وقد يوجب القسوة والبعد عن الحق في النفوس الخبيثة الشيطانية. فإذا عرفت هذا فنقول إنّ رأس الأدوية التي تفيد الصّحة الروحانية وربتها هو ذكر الله. فإذا اتّفق لبعض النفوس أن صار ذكر الله سببا لازدياد مرضها كان مرض تلك النفوس مرضا لا يرجى زواله، ولا

١ - نفس المصدر السابق، ج ٤ ص ٣٦٠.

يتوقع علاجه، وكانت في نهاية الشرّ والرّداءة. فلهذا المعنى قال تعالى فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين. وهذا كلام كامل محقق^(١).
وعجيب أن يشهد بقوله هذا كلام كامل محقق، ثم لا يتوجه إلى التحقيق في حال الذين نعتهم القرآن بأنّ في قلوبهم مرضا منذ بداية الرّسالة، ولذلك أيضا تراهم مع اعترافهم بأنّ السّورة مكّيّة، وأنّه لم يكن بمكّة نفاق، يحاولون أن يثبتوا أنّ الآية مدنيّة، ولا يخفى ما في ذلك من زرع الشّبهات في ذهن القارئ!!
قال في تفسير سورة محمد ﷺ: "وقوله سبحانه فهل عسيتم مخاطبة هؤلاء (الذين قلوبهم مرض) والمعنى فهل عسى أن تفعلوا إن تولّيتهم غير أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم. ومعنى إن تولّيتهم أي إن عرضتم عن الحقّ. وقيل المعنى إن تولّيتهم أمور النّاس من الولاية، وعلى هذا قيل إنّها نزلت في بني هاشم وبني أميّة ذكره الثّعلبيّ، وهو عندي بعيد لقوله أولئك الذين لعنهم الله فتعيّن التّأويل الأوّل والله أعلم"^(٢).

يقول الثّعلبيّ: وهو عندي بعيد، ولا يذكر للاستبعاد دليلا غير توجهه اللّعن إلى المخاطبين، ولذلك تراه خالف بقيّة المفسّرين في تفسير قوله تعالى والشّجرة الملعونة في القرآن في سورة الإسراء، وزعم أنّها شجرة الزّقوم. والله

١ - نفس المصدر السابق، ج ٥ ص ٨٧.

٢ - نفس المصدر، ج ٥ ص ٢٣٨.

تعالى أجلّ من أن يلعن من لا يستحقّ اللّعن^(١)، وأيّ ذنب لشجرة الزّقوم تستحقّ لأجله اللّعن؟

قال الثّعالبيّ: "وقوله سبحانه أم حسب (الذين قلوبهم مرض) الآية توبيخ للمنافقين وفضح لسرائرهم، والضّغن الحقد. وقال البخاريّ قال ابن عبّاس أضغانهم حسدهم"^(٢).

(الذين في قلوبهم مرض) هنا هم المنافقون. [كما جرت العادة].

قال: "وقوله سبحانه (الذين قلوبهم مرض) الآية نوع من الفتنة لهذا الصنف المنافق أو الكافر، أي حاروا ولم يهتدوا لمقصد الحقّ فجعل بعضهم يستفهم بعضاً عن مراد الله بهذا المثل استبعاداً أن يكون هذا من عند الله. قال الحسين بن الفضل: السّورة مكّيّة ولم يكن بمكّة نفاق وإنّما المرض في هذه الآية الاضطراب وضعف الإيمان. ثمّ قال تعالى: وما يعلم جنود ربك إلّا هو إعلاما بأنّ الأمر فوق ما يتوهم"^(٣).

الذين في قلوبهم مرض هنا: الصنف المنافق أو الكافر، والمرض في هذه الآية الاضطراب وضعف الإيمان.

ويتلخّص ممّا سبق أنّ (الذين في قلوبهم مرض) في تفسير الثّعالبيّ تعني ما يلي:

(١) (في قلوبهم مرض) أي في عقائدهم فساد وهم المنافقون.

١- اللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى، ولا يتوجّه إلّا إلى مكلف معاند أو ما في حكمه.

٢- تفسير الثّعالبي، ج ٥ ص ٢٤١.

٣- نفس المصدر، ج ٥ ص ٥١٤.

(٢) المُرَضَّ غَمَّهم بظهوره ﷺ. (٣) (الذين قلوبهم مرض) إشارة إلى عبد الله بن أبيّ ومن تبعه من المنافقين على مذهبه في حماية بني قينقاع. (٤) هم من أهل عسكر الكُفَّار مَن كان الإسلام داخل قلوبهم خرجوا مع المشركين إلى بدر، منهم مكره وغير مكره، فلما أشرفوا على المسلمين ورأوا قَلَّتْهم ارتابوا وقالوا مشيرين إلى المسلمين غرَّ هؤلاء دينهم. (٥) يحتمل أن يكون منافقو المدينة لما وصلهم خروج قريش في قوَّة عظيمة قالوا... (٦) الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون. (٧) (الذين قلوبهم مرض) عامَّة الكُفَّار. (٨) المُرَضَّ هنا هو الغزل وحَبَّ الزَّنا. (٩) (الذين في قلوبهم مرض) هم المنافقون. (١٠) الذين في قلوبهم مرض هنا: الصَّنَفُ المنافق أو الكافر، والمُرَضَّ الاضطراب وضعف الإيمان.

الفصل الثامن

**الذين في قلوبهم مرض
في
نظر مفسري القرن العاشر**

• جلال الدين السيوطي

• أبو السعود

الذين في قلوبهم مرض في الدّر المنثور

قال السيوطي في تفسير ذلك في سورة البقرة:

"وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله في قلوبهم مرض قال: التّفاق. ولهم عذاب أليم قال: نكال موجع. بما كانوا يكذبون قال: يبدّلون ويُحَرِّفون. وأخرج الطستيّ عن ابن عباس أنّ نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قولهِ تعالى في قلوبهم مرض قال: التّفاق قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أمّا سمعتَ قول الشاعر:

أُجَامِلُ أَقْوَامًا حَيَاءً وَقَدْ أَرَى صُدُورَهُمْ تَغْلِي عَلَى مَرَاضِهَا

قال: فأخبرني عن قوله ولهم عذاب أليم. قال: الأليمُ المُوْجِع. قال وهل تعرفُ العربُ ذلك؟ قال: نعم، أمّا سمعتَ قول الشاعر:

نَامَ مَنْ كَانَ خَلِيًّا مِنْ أَلَمٍ وَبَقِيَ اللَّيْلَ طَوْلًا لَمْ أَنْمِ

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كلّ شيء في القرآن أليم فهو المُوْجِع. وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال: الأليم المُوْجِع في القرآن كلّهُ. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله مرض قال ريبة وشكّ في أمرِ الله فزادهم الله مرضاً قال ريبة وشكّا. ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون قال إياكم والكذب فإنّه من باب التّفاق وإنّا والله ما رأينا عملاً قطّ أسرع في فساد قلبٍ عبدٍ من كبر أو كذب. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد في قوله في قلوبهم مرض قال هذا مرض في الدّين وليس مرضاً في الأجساد وهم المنافقون والمرض الشكّ الذي دخل في الإسلام. وأخرج ابن جرير عن الربيع في قوله

في قلوبهم مرض قال هؤلاء أهل التَّفَاق والْمَرَض الذي في قلوبهم الشَّك في أمر الله عزَّ وجلَّ ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مِرْضًا﴾ قال شكَّا "٣٠".

وقال في الدَّر المنثور: "قوله فترى الذين في قلوبهم مَرَض يسارعون فيهم يعني عبد الله بن أبي" "٣١".

وهو كما ترى، فكأنَّها أصبحت (في قلوبهم مرض) لقبا لعبد الله بن أبي. ولا شك أن في قلبه أمراضا كثيرة، وقد هلك في سنة تسع في حياة النَّبِيِّ ﷺ بلا خلاف، وصَلَّى عليه؛ لكنَّه لم يكن في مكَّة في بداية الدَّعوة حين نزول سورة المدثر.

وقال في الدَّر المنثور: "﴿في قلوبهم مرض﴾ الآية أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطية فترى الذين في قلوبهم مرض كعبد الله بن أبي يسارعون فيهم في ولايتهم" "٣٢".

وقال: "فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم قال هم المنافقون في مصانعة اليهود وملاحاتهم واسترضاعهم أولادهم إيَّاهم يقولون نخشى أن تكون الدَّائرة لليهود بالفتح حينئذ فعسى الله أن يأتي بالفتح على النَّاس عامَّة أو أمرٍ من عنده خاصَّة للمنافقين فيصبحوا (المنافقون) على ما أسروا في أنفسهم من شأن يهود نادمين.

١ - الدَّر المنثور، السيوطي، ج ١ ص ٣٠.

٢ - الدر المنثور، السيوطي، ج ٢ ص ٢٩١.

٣ - نفس المصدر، ج ٢ ص ٢٩١ - ٢٩٢.

وقال أيضا: "عن قتادة في قوله ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال أناس من المنافقين كانوا يوادون اليهود ويناصحونهم دون المؤمنين قال الله تعالى فعسى الله أن يأتي بالفتح أي بالقضاء أو أمر من عنده فيصيحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين" (١).

وقال في الدرّ المنثور: "وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن إسحاق رضي الله عنه في قوله إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مَرَضٌ قال هم الفئة الذين خرجوا مع قريشٍ احتبسهم آبأؤهم فخرجوا وهم على الارتياب؛ فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا غر هؤلاء دينهم حين قدموا على ما قدموا عليه من قلة عددهم وكثرة عدوهم، وهم فئة من قريشٍ مسمون خمسة قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة المخزوميّان والحارث بن زمة وعلي بن أمية بن خلف والعاصي بن منه" (٢).

إذا، فهم فئة من قريشٍ في مكة وليسوا المنافقين ولا اليهود. قال: "وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض﴾ قال المنافقون، والقاسية قلوبهم يعني المشركين. ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق﴾ قال القرآن. ﴿ولا يزال الذين كفروا في مرية منه﴾ قال من القرآن. عذاب يومٍ عقيم قال ليس معه ليلة.. " (٣).

١ - الدرّ المنثور، ج ٢ ص ٢٩٢.

٢ - نفس المصدر، ج ٣ ص ١٩١.

٣ - نفس المصدر، ج ٤ ص ٣٦٨.

والقضية ههنا واضحة، فالذين في قلوبهم مرض هم المنافقون !

وقال: " فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض يقول فجور"^(١).

قال السيوطي: "وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب رضي الله عنه في قوله لئن لم ينته المنافقون قال يعني المنافقين بأعيانهم و(الذين قلوبهم مرض) شك يعني المنافقين أيضا !! وأخرج ابن سعد عن عبيد بن حنين رضي الله عنه في قوله لئن لم ينته المنافقون قال عرّف المنافقين بأعيانهم و(الذين قلوبهم مرض) والمرجعون في المدينة هم المنافقون جميعا [!!]"^(٢).

وقال: " عن مالك بن دينار رضي الله عنه قال سألت عكرمة رضي الله عنه عن قول الله لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض قال أصحاب الفواحش. وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء رضي الله عنه في قوله والذين في قلوبهم مرض قال أصحاب الفواحش. وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء رضي الله عنه في قوله والذين في قلوبهم مرض قال كانوا مؤمنين وكان في أنفسهم أن يزنوا. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله لئن لم ينته المنافقون قال: كان النفاق على ثلاثة وجوه، نفاق مثل نفاق عبد الله بن أبي بن سلول، ونفاق مثل نفاق عبد الله بن نبتل ومالك بن داعم فكان هؤلاء وجوه الأنصار فكانوا يستحيون أن يأتوا الزنا يصونون بذلك أنفسهم. والذين في قلوبهم مرض قال الزنا إن وجدوه عملوه وإن لم يجدوه لم يبتغوه. ونفاق

١ - الدر المنثور ، جلال الدين السيوطي، ج ٥ ص ١٩٤.

٢ - نفس المصدر، ج ٥ ص ٢٢٢.

يكابرون النساء مكابرة وهم هؤلاء الذين كانوا يكابرون النساء^(٣).

إذاً، يكون الذين في قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم الزنا!

قال: "وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً قال صدق القرآن الكتب التي خلت قبله التوراة والانجيل أنّ خزنة جهنم تسعة عشر. وليقول الذين في قلوبهم مرض قال الذين في قلوبهم النفاق والله أعلم^(٤)."

الذين في قلوبهم مرض - مرة أخرى - هم (المنافقون) لأن المرض هو النفاق، مع أنّ السورة مكية بلا خلاف، فمتى كان النفاق في مكة في بداية الدعوة والنبي ومن معه من المؤمنين مستضعفون في الأرض إلى درجة أن يمرّ بهم ﷺ وهم يُعَذَّبون، ولا يملك إلا أن يشرهم بحسن العاقبة. وكانت هجرة قسم منهم إلى الحبشة من شدة ما لقوا من الأذى. وقد اتضح على كل حال أنّه إذا ضمّت عبارات السيوطي بعضها إلى بعض فإن فئة الذين في قلوبهم مرض تعني:

(١) المنافقين (٢) الذين في قلوبهم ريبة وشك في أمر الله (٣) هذا مرض في الدين وليس مرضاً في الأجساد (٤) هم المنافقون والمرضى الشك (٥) عبد الله بن أبي (٦) أناس من المنافقين كانوا يوادّون اليهود ويناصحونهم دون المؤمنين

١ - نفس المصدر، ج ٥ ص ٢٢٢-٢٢٣.

٢ - الدر المنثور، جلال الدين السيوطي، ج ١ ص ٢٨٤.

(٧) الفئة الذين خرجوا مع قريشٍ احتبسهم آبائهم فخرجوا وهم على الارتياح وهم فئة من قريشٍ مسمّون خمسة قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة المخزوميّان والحارث بن زمعة وعليّ بن أميّة بن خلف والعاصي بن منبه (٨) الذي في قلبه مرض يقول فجور (٩) أصحاب الفواحش (١٠) كانوا مؤمنين وكان في أنفسهم أن يزنا (١١) الزنا إن وجدوه عملوه وإن لم يجدوه لم يبتغوه.

الذين في قلوبهم مرض (في تفسير أبي السعود

قال أبو السعود في تفسيره :

" فترى (الذين قلوبهم مرض) بيان لكيفية توليهم، وإشعار بسببه وبما يؤول إليه أمرهم. والفاء للإيدان بترتبّه على عدم الهداية. والخطاب إمّا للرّسول بطريق التّلوين، وإمّا لكلّ أحد ممّن له أهليّة له. وفيه مزيد تشنيع للتّشنيع أي لا يهديهم بل يذرهم وشأنهم فتراهم... الخ. وإنّما وضع موضع الضّمير الموصول ليشار بها في حيّز صلته إلى أنّ ما ارتكبه من التّوّلي بسبب ما في قلوبهم من مرض النّفاق ورخاوة العقد في الدّين. وقوله تعالى يسارعون فيهم حال من الموصول والرّؤية بصرية؛ وقيل مفعول ثان والرّؤية قلبية، والأوّل هو الأنسب بظهور نفاقهم أي تراهم يسارعين في موالاتهم، وإنّما قيل فيهم مبالغة في بيان رغبتهم فيها وتهالكهم عليها وإيثار كلمة (في) على كلمة (إلى) للدّلالة على أنّهم مستقرّون في الموالات، وإنّما يسارعهم من بعض مراتبها إلى بعض آخر منها كما في قوله تعالى أولئك يسارعون في الخيرات لا أنّهم خارجون عنها متوجّهون إليها كما في قوله تعالى وسارعوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة. وقُرئ فیری بياء الغيبة على أنّ الضّمير لله سبحانه وقيل لمن تصحّ منه الرّؤية، وقيل الفاعل هو الموصول والمفعول هو الجملة على حذف أن المصدرية، والرّؤية قلبية. ويرى القوم (الذين قلوبهم مرض) أن يسارعوا فيهم فلما حذفت أن

انقلب الفعل مرفوعاً كما في قول من قال^(١) ألا أيهذا الزّاجري أحضّر الوغى، والمراد بهم عبد الله بن أبيّ وأضرابه الذين كانوا يسارعون في موادة اليهود ونصارى نجران، وكانوا يعتذرون إلى المؤمنين بأنهم لا يأمنون أن تصيبهم صروف الزّمان، وذلك قوله تعالى يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، وهو حال من ضمير يسارعون والدائرة من الصفات الغالبة التي لا يذكر معها موصوفها أي تدور علينا دائرة من دوائر الدّهر ودولة من دوله بأن ينقلب الأمر وتكون الدّولة للكفّار. وقيل نخشى أن يصيبنا مكروه من مكاره الدّهر كالجذب والقحط فلا يعطونا الميرة والقرض. روي أنّ عبادة بن الصّامت رضي الله تعالى عنه قال لرسول الله: إنّ لي موالى من اليهود كثيراً عددهم واني أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم وأوالي الله ورسوله. فقال عبد الله بن أبيّ: إنّ رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالى وهم يهود بني قينقاع؛ ولعلّه يظهر للمؤمنين أنّه يريد بالدوائر المعنى الأخير ويضمّر في نفسه المعنى الأوّل. وقوله تعالى فعسى الله أن يأتي بالفتح ردّ من جهة الله تعالى لعلّهم الباطلة وقطع أطماعهم الفارغة وتبشير للمؤمنين بالظّفّر فإنّ عسى منه سبحانه وعد محتوم لما أنّ الكريم إذا أطعم أطعم لا محالة، فما ظنّك بأكرم الأكرمين. وأن يأتي في محلّ النّصب على أنّه خبر عسى وهو رأي الأخصّش أو على أنّه مفعول به، وهو رأي سيبويه لثلاث يلزم الإخبار عن الجئّة بالحدث كما في قولك عسى زيد أن يقوم. والمراد بالفتح فتح مكّة قاله الكلبيّ والسّديّ. وقال الضّحّاك: فتح قرى اليهود من خيبر

١ - القائل هو الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد.

وفدك. وقال قتادة ومقاتل: هو القضاء الفصل بنصره على من خالفه وإعزاز الدين، أو أمر من عنده بقطع شأفة اليهود من القتل والإجلاء فيصبحوا أي أولئك المنافقون المتعلّلون بما ذكر، وهو عطف على يأتي داخل معه في حيز خبر عسى، وإن لم يكن فيه ضمير يعود إلى اسمها، فإنّ فاء السببية مغنية عن ذلك، فإنّها تجعل الجملتين جملة واحدة ﴿على ما أسروا في أنفسهم نادمين﴾ وهو ما كانوا يكتمونونه في أنفسهم من الكفر والشكّ في أمره، وتعليق الندامة به لا بما كانوا يظهرونه من موالة الكفر لما أنّه الذي كان يحملهم على الموالة ويغريهم عليها. فدلّ ذلك على ندامتهم عليها بأصلها وسببها. ويقول الذين آمنوا كلام مبتدأ مسوق لبيان كمال سوء حال الطائفة المذكورة، وقرئ بغير واو على أنّه جواب سؤال نشأ ممّا سبق كأنّه قيل: فماذا يقول المؤمنون حينئذ؟ وقرئ ويقول بالنصب عطفاً على يصبحوا. وقيل على يأتي باعتبار المعنى كأنّه قيل فعسى أن يأتي الله بالفتح ويقول الذين آمنوا، والأوّل أوجه لأنّ هذا القول إنّما يصدر عن المؤمنين عند ظهور ندامة المنافقين لا عند إتيان الفتح فقط.

والمعنى ويقول الذين آمنوا مخاطبين لليهود، مشيرين إلى المنافقين الذين كانوا يوالونهم ويرجون دولتهم ويظهرون لهم غاية المحبة وعدم المفارقة عنهم في السراء والضراء عند مشاهدتهم لخيبة رجائهم وانعكاس تقديرهم بوقوع ضدّ ما كانوا يترقبونه ويتعلّلون به تعجباً للمخاطبين من حالهم، وتعريضاً بهم

أهؤلاء الذين^(١).

يقول أبو السعود: والمراد بهم عبد الله بن أبي وأضرابُه الذين كانوا يسارعون في موادة اليهود ونصارى نجران و.....

إذاف (الذين في قلوبهم مرض): عبد الله بن أبي وأضرابه.

قال أبو السعود: "وأما (الذين قلوبهم مرض) أي كفر وسوء عقيدة فرادتهم رجساً إلى رجسهم، أي كفراً بها مضموماً إلى الكُفر بغيرها، وعقائد باطلة وأخلاقاً ذميمة كذلك وماتوا وهم وكافرون. واستحكم ذلك إلى أن يموتوا عليه^(٢)."

(الذين في قلوبهم مرض): الذين في قلوبهم كفر وسوء عقيدة.

قال أبو السَّعود: "وقرئ وذكر على إسناد الفعل إلى ضميره تعالى ونصب القتال ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ مَرَضٌ﴾ أي ضعف في الدِّين، وقيل نفاق، وهو الأظهر الأوفق لسياق التَّظْم الكريم ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي تشخص أبصارهم جبناً وهلعاً، كدأب من أصابته غشية الموت ﴿فَأُولَى لَهُمْ﴾ أي فويل لهم، وهو أفعل من الولي وهو القرب. وقيل من آل ومعناه الدِّعاء بأن يليهم المكروه أو يؤول إليه أمرهم. وقيل هو مشتق من الوليل، وأصله أوليل نقلت العين إلى ما بعد اللام فوزنه أفعل ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ كلام مستأنف أي أمرهم... الخ، أو طاعة وقول معروف خير لهم أو

١ - تفسير أبي السَّعود، ج ٣ ص ٤٩٤٨ .

٢ - نفس المصدر، ج ٤ ص ١١٣ .

حكاية لقولهم، ويؤيده قراءة أبي يقولون طاعة وقول معروف أي أمرنا ذلك فإذا عزم الأمر أسند العزم وهو الجد إلى الأمر وهو لأصحابه مجازاً كما في قوله تعالى أن ذلك من عزم الأمور. وعامل الظرف محذوف أي خالفوا وتحلفوا، وقيل ناقضوا، وقيل كرهوا، وقيل هو قوله تعالى ﴿فلو صدقوا الله﴾ على طريقة قولك إذا حضرني طعام فلو جئتني لأطعمتك. أي فلو صدقوه تعالى فيما قالوا من الكلام المبني عن الحرص على الجهاد بالجرى على موجهه لكان أي الصدق خيراً لهم. وفيه دلالة على اشتراك الكل فيما حكى عنهم من قوله تعالى لولا نزلت سورة، وقيل فلو صدقوه في الإيمان وواطأت قلوبهم في ذلك ألسنتهم وأياً ما كان فالمراد بهم (الذين قلوبهم مرض) وهم المخاطبون بقوله تعالى فهل عسيتم... الخ بطريق الالتفات لتأكيد التوبيخ وتشديد التقرير، أي هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس وتأمرتم عليهم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم تناحرا على الملك وتهالكا على الدنيا، فإن من شاهد أحوالكم الدالة على الضعف في الدين والحرص على الدنيا حين أمرتم بالجهاد الذي هو عبارة عن إحراز كل خير وصلاح ودفع كل شر وفساد، وانتم مأمورون شأنكم الطاعة والقول المعروف، يتوقع منكم إذا أطلقت أعتتكم وصرتم أمرين ما ذكر من الإفساد وقطع الأرحام. وقيل إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض بالتغاور والتناهب، وقطع الأرحام بمقاتلة بعض الأقارب بعضاً، ووأد البنات. وفيه أن الواقع في حيز الشرط في مثل هذا المقام لابد أن تكون محذوريته باعتبار ما يستتبعه من المفساد

لا باعتبار ذاته، ولا ريب في أنَّ الإعراض عن الإسلام رأس كلِّ شرٍّ وفساد، فحقّه أن يجعل عمدة في التَّوبِخ لا وسيلة للتَّوبِخ بما دونه من المفاصد. وقرىء وليتم على البناء للمفعول أي جعلتم ولاية وقرئ تولَّيتم أي تولَّاكم ولاية جور خرجتم معهم وساعدتموهم في الإفساد وقطيعة الرحم. وقرىء وتقطَّعوا من التَّقَطُّع بحذف إحدى التَّائين فانتصاب أرحامكم حيثنذ على نزع الجارَّ أي في أرحامكم وقرىء وتقطَّعوا من القطع وإلحاق الضمير بعسى لغة أهل الحجاز..^(١)

(الذين قلوبهم مرض): الذين في قلوبهم ضعف في الدين.

وقيل نفاق وهو الأظهر !!

قال أبو السعود: ﴿أم حسب الذين قلوبهم مرض﴾ هم المنافقون الذين فصلت أحوالهم الشنيعة وصفوا بوصفهم السابق لكونه مدارا لما نعى عليهم بقوله تعالى أن لن يخرج الله أضغانهم. فأم منقطعة، وأن مخففة من أن، وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوف، ولن بما في حيزها خبرها. والأضغان جمع ضغن وهو الحقد، أي بل أحسب الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين أنه لن يخرج الله أحقادهم^(٢).

(الذين قلوبهم مرض): هم المنافقون الذين فصلت أحوالهم الشنيعة.

وقال: ﴿وليقول الذين قلوبهم مرض﴾ شك أو نفاق فيكون إخبارا بما

١ - تفسير أبي السعود، ج ٨ ص ٩٨ .

٢ - تفسير أبي السعود، ج ٨ ص ١٠٠ .

سيكون في المدينة بعد الهجرة [!] والكافرون المصرون على التّكذيب ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ أي أي شيء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل، وقيل لما استبعدوه حسبوا أنّه مثل مضروب وإفراد قولهم هذا بالتّعليل مع كونه من باب فتنّهم للإشعار باستقلاله في الشّناعة. ﴿كذلك يضلّ الله من يشاء﴾ ذلك، إشارة إلى ما قبله من معنى الإضلال والهداية. ومحلّ الكاف في الأصل النّصب على أنّها صفة لمصدر محذوف، وأصل التقدير يضلّ الله من يشاء ويهدي من يشاء إضلالاً وهداية كائنين مثل ما ذكر من الإضلال والهداية، فحذف المصدر وأقيم وصفه مقامه، ثمّ قدّم على الفعل لإفادة القصر، فصار النّظم مثل ذلك الإضلال وتلك الهداية يضلّ الله من يشاء إضلاله لصرف اختياره إلى جانب الضّلال عند مشاهدته الآيات إلى جانب الهدى لا إضلالاً وهداية أدنى منهما^(١).

(الذين قلوبهم مرض): الذين في قلوبهم شكّ أو نفاق.

تارة شكّ ونفاق، وتارة شكّ أو نفاق، وتارة لا شكّ ولا نفاق ولكن

ضعف في الدّين، وتارة عبد الله بن أبيّ وأصحابه. !!

ويتلخّص ممّا سبق أنّ الذين في قلوبهم مرض في تفسير أبي السّعود يقصد بها:

(١) عبد الله بن أبيّ وأضرابه الذين كانوا يسارعون في موادة اليهود

١ - نفس المصدر السابق، ج ٩ ص ٦٠.

ونصاري نجران و...و..(٢): الذين في قلوبهم كفر وسوء عقيدة. (٣) الذين في قلوبهم ضعف في الدين وقيل نفاق وهو الأظهر !! (٤): هم المنافقون الذين فصلت أحوالهم الشنيعة. (٥): الذين في قلوبهم شك أو نفاق.

الفصل التاسع

الذين في قلوبهم مرض

في

نظر متأخري المفسرين

• الألوسي

• ابن عاشور

• الشنقيطي

قال الألوسي:

" في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذابٌ أليمٌ بما كانوا يكذبون. المرض بفتح الراء كما قرأ الجمهور ويسكونها كما قرأ الأصمعي عن أبي عمرو، وعلى ما ذهب إليه أهل اللغة، حالة خارجة عن الطبع ضارة بالفعل. وعند الأطباء يقابل الصحة، وهي الحالة التي تصدر عنها الأفعال سليمة. والمراد من الأفعال ما هو متعارف وهي إما طبيعية كالنمو أو حيوانية كالنفس أو نفسانية كجودة الفكر. فالحول والحذب مثلاً مرض عندهم دون أهل اللغة. وقد يطلق المرض لغة على أثره وهو الألم كما قاله جمع ممن يوثق بهم وعلى الظلمة كما في قوله: في ليلةٍ مرضت من كل ناحية* فما يحس بها نجم ولا قمر. وعلى ضعف القلب وفتوره كما قاله غير واحد. ويطلق مجازاً على ما يعرض المرء مما يخلّ بكمال نفسه كالبغيضاء، والغفلة، وسوء العقيدة، والحسد وغير ذلك من موانع الكمالات المشابهة لاختلال البدن المانع عن الملاذ والمؤدية إلى الهلاك الروحاني الذي هو أعظم من الهلاك الجسدي. والمنقول عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وقتادة وسائر السلف الصالح حمل المرض في الآية على المعنى المجازي. ولا شك أن قلوب المنافقين كانت ملأى من تلك الخبائث التي منعتهم مما منعتهم وأوصلتهم إلى الدرك الأسفل من النار، ولا مانع عند بعضهم أن يحمل المرض أيضاً على حقيقته الذي هو الظلمة، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور. والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات. وكذا على الألم فإن في قلوب أولئك ألماً عظيماً بواسطة شوكة الإسلام وانتظام أموره غاية الانتظام. فالآية على هذا محتملة للمعنيين،

ونصب القرينة المانعة في المجاز إنَّما يشترط في تعيينه دون احتماله[!] فإذا تضمَّن نكتة ساوى الحقيقة فيمكن الحمل عليهما نظرا إلى الأصالة والنكتة، إلَّا أنَّه يرد هنا أنَّ الألم مطلقا ليس حقيقة المرض بل حقيقة الألم لسوء المزاج وهو مفقود في المنافقين. والقول بأنَّ حالهم التي هم عليها تفضي إليه في غاية الركاكة؛ على أنَّ قلوب أولئك لو كانت مريضة لكانت أجسامهم كذلك أو لكان الحما عاجلهم، ويشهد لذلك الحديث النبوي والقانون الطبي؛ أمَّا الأول فلِقوله إنَّ في الجسد مضغة.. الحديث. وأمَّا الثاني فلأنَّ الحكماء بعد أن بيَّنوا تشريح القلب قالوا إذا حصلت فيه مادة غليظة فإنَّ تمكَّنت منه ومن غلافه أو من أحدهما عاجلت المنيَّة صاحبه؛ وإن لم تتمكَّن تأخَّرت الحياة مدَّة يسيرة ولا سبيل إلى بقائها مع مرض القلب. فالأولى دراية ورواية حمله على المعنى المجازي ومنه الجبن والخور، وقد دخل ذلك قلوب المنافقين حين شاهدوا من رسول الله والمؤمنين ما شاهدوا. والتَّوْنين للدلالة على أنَّه نوع غير ما يتعارفه النَّاس من الأمراض. ولم يجمع كما جمع القلوب لأنَّ تعداد المحالَّ يدلُّ على تعداد الحال عقلا فاكتمى بجمعها عن جمعه. والجملة الأولى إمَّا مستأنفة لبيان الموجب لخداعهم وما هم فيه من التَّفاق، أو مقرَّرة لما يفيد. وما هم بمؤمنين من استمرار عدم إيمانهم أو تعليل له كأنَّه قيل ما بالهم لا يؤمنون فقال في قلوبهم مرض يمنعه، أو مقرَّرة لعدم الشَّعور وإن كان سبيل قوله وما يشعرون سبيل الاعتراض على ما قيل. وجملة فزادهم الله مرضا إمَّا دعائية معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه والمعتضة قد تقرن بالفاء كما في قوله: (وأعلم فعلم المرء ينفعه * أن سوف يأتي كلَّ ما قدرا) كما صرح في التلويح وغيره نقلا عن النِّحاة، أو إخبارية معطوفة على الأولى وعطف الماضي على الاسمِية لنكتة أن أريد في الأولى أنَّ ذلك لم يزل غصَّا طريَّا إلى زمن

الإخبار. وفي الثانية أنّ ذلك سبب لازدياد مرضهم المحقق، إذ لولا تدنّس فطرتهم لازدادوا بما منّ الله تعالى به على المؤمنين شفاء. ولا يتكرّر هذا مع قوله تعالى يمدّهم في طغيانهم للفرق بين زيادة المرض وزيادة الطغيان. عليّ أنّه لا مانع من زيادة التوكيد مع بعد المسافة؛ وأيضا الدّعاء إنّ لم يكن جاريا على لسان العباد أو مرادا به مجرد السّبب والتنقيص يكون إيجابا منه سبحانه، فيؤول إلى ما آل إليه الإخبار. وزيادة الله تعالى مرضهم إمّا بتضعيف حسدهم بزيادة نعم الله تعالى على رسوله صلى الله تعالى عليه وسلّم والمؤمنين أو ظلمة قلوبهم بتجدّد كفرهم بما ينزّله سبحانه شيئا فشيئا من الآيات والذّكر الحكيم. فهم في ظلمات بعضها فوق بعض، أو بتكثير خوفهم ورعهم المترتب عليه ترك مجاهرهم بالكفر بسبب إمداد الله تعالى الإسلام ورفع أعلامه على أعلام الإعزاز والاحترام، أو بإعظام الألم بزيادة الغموم وإيقاد نيران الهموم (والغم يخترم النفوس نحافة * ويشيب ناصية الصّبي ويهرم). ويكون ذلك بتكاليف الله تعالى لهم المتجددة، وفعلهم لها مع كفرهم بها، وتكليف النّبيّ لهم ببعض الأمور وتخلّفهم عنه الجالب لما يكرهونه من لومهم وسوء الظنّ بهم، فيغتمّون إن فعلوا وإن تركوا. ونسبة الزيادة إلى الله تعالى حقيقة ولو فسّرت بالطّبع فإنّه سبحانه الفاعل الحقيقيّ بالأسباب وبغيرها، ولا يقبح منه شيء. وبعضهم جعل الإسناد مجازا في بعض الوجوه ولعلّه نزعة اعتزاليّة. وأغرب بعضهم فقال الإسناد مجازيّ كيفما كان المرض وحمل على أنّ المراد أنّه ليس هنا من يزيدهم مرضا حقيقة على رأي الشّيخ عبد القاهر في أنّه لا يلزم في الإسناد المجازيّ أن يكون للفعل فاعل يكون الإسناد إليه حقيقة مثل (يزيدك وجهه حسنا إذا ما زدته نظرا) فتدبّر. وإنّما عدّى سبحانه الزيادة إليهم لا إلى القلوب فلم يقل فزادها إمّا ارتكابا لحذف المضاف أي فزاد الله

قلوبهم مرضاً، أو إشارة إلى أن مرض القلب مرض لسائر الجسد، أو رمزا إلى أن القلب هو النفس الناطقة ولولاها ما كان الإنسان إنسانا. وإعادة مرض مُنْكَرًا لكونه مغايرا للأول ضرورة أن المزيد يغير المزيد عليه. وتوهم من زعم أنه من وضع المظهر موضع المضمّر والتّكثير للتّفخيم^(١).

قلت: قوله (ولا شك أن قلوب المنافقين كانت ملأى من تلك الخبائث) يدلّ على أنّه يفهم من الذين في قلوبهم مرض المنافقين لا غير.

وقال: "و(الذين قلوبهم مرض) أي الذين لم تطمئن قلوبهم بالإيمان بعد وبقي فيها شبهة. قيل وهم فتيّة من قريش أسلموا بمكّة وجسهم آبائهم حتى خرجوا معهم إلى بدر؛ منهم قيس بن الوليد بن المغيرة والعاص بن منبه بن الحجاج، والحرث بن زمعة، وأبو قيس بن الفاكه. فالمرض على هذا مجاز عن الشبهة. وقيل المراد بهم المنافقون سواء جعل العطف تفسيرا أو فسر مرض القلوب بالإحّ والعداوات والشكّ ممّا هو غير النّفاق. والمعنى إذ يقول الجامعون بين النّفاق ومرض القلوب. وقيل يجوز أن يكون الموصول صفة المنافقين وتوسّطت الواو لتأكيد لصوق الصّفة بالموصوف لأنّ هذه صفة للمنافقين ولا تنفكّ عنهم أو تكون الواو داخلة بين المفسّر والمفسّر نحو أعجبني زيد وكرمه. وزعم بعضهم أنّ ذلك وهم وهو من التّحامل بمكان، إذ لا مانع من ذلك صناعة ولا معنى. والقول بأنّ وجه الوهم فيه أنّ المنافقين جار على موصوف مقدّر أي القوم المنافقون فلا يوصف ليس بوجه إذ للقاتل أن يقول إنّّه أجري ﴿المنافقون﴾ هنا مجرى الأسماء مع أن الصّفة لا مانع من

أن توصف وقيام العرض بالعرض دون إثبات امتناعه خرط القتاد. ومن فسر الذين في قلوبهم مرض بأولئك الفئة الذين أسلموا بمكة قال إنهم لما رأوا قلة المسلمين قالوا غر هؤلاء يعنون المؤمنين الذين مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم دينهم حتى تعرّضوا لمن لا يدين لهم به فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء الألف. وعلى احتمال جعله صفة للمنافقين يشعر كلام البعض أن القول لم يكن عند التلاقي، فقد روي عن الحسن أن هؤلاء المنافقين لم يشهدوا القتال يوم بدر. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال هم يومئذ في المسلمين. وفي القلب من هذا شيء، فإن الذي تشهد الآثار أن أهل بدر كانوا خلاصة المؤمنين^(١).

أقول: لا بأس أن يكون في قلب الألوسي من هذا وغيره شيء، فإن الله تعالى لن يحتج على المسلمين بقلب الألوسي، والألوسي ملزم بأن يكون قلبه على ما يرتضيه الدين الحنيف لا على المزاج؛ فليته بين سبب هذا الشيء الذي في قلبه، لأن قوله (أهل بدر كانوا خلاصة المؤمنين) منقوض بما ورد في كتب الحديث والسيرة حول معتب بن قشير الذي كانت حاله في التفاق معلومة فيما بعد، إضافة إلى حاطب بن بلتعة الذي شهد عليه عمر بن الخطاب قبيل فتح مكة بالتفاق.

وقد جنح الألوسي إلى إيراد إشكالات لغوية، يقول في بعضها "توسّط الواو لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف لأن هذه صفة للمنافقين ولا تنفك عنهم"، وهو حقّ عجيب من مثله. فإن الإلصاق إنما يكون بين لاصق

والملصق به، وهو قد زعم أن مرضى القلوب هم المنافقون، بلا تغاير! ولا يلصق الشيء بنفسه، لأنّه يلزم منه الوحدة والمغايرة في موضوع واحد في وقت واحد. فإذا كان الذين في قلوبهم مرض هم المنافقين فأين الحاجة إلى الإلصاق، وإذا كانت تلك الصفة لاصقة بهم لا تفارقهم فما الحاجة إلى الإلصاق؟! ومن جهة أخرى فإنّ النبي ﷺ له صفات لا تنفك عنه، فلو كان الأمر كما يقول الآلوسي لكان وصف النبي كذلك أولى، ولكانت هذه الواو ملازمة له حلاً وترحالاً، وليس في القرآن ولا في الحديث شيء من ذلك.

أورد الآلوسي بعدها إشكال بعض لم يسمّه فقال: (وزعم بعضهم أن ذلك وهم، وهو من التحامل بمكان، إذ لا مانع من ذلك صناعة ولا معنى)؛ وردّ على الإشكال بما لا يرتضيه هو لنفسه لو أشكل به عليه غيره، لأنّ كونه لا مانع من ذلك صناعة ولا معنى لا يرفعه إلى نفس مستوى بيان القرآن الكريم. فإنّ الإعجاز البياني في القرآن الكريم أرقى من أن يستعمل ما لا مانع منه، لأنّ ما لا مانع منه يشمل الضعيف المرجوح، وإنّما يحتجّ بما لا مانع منه لتقوية كلام المخلوقين، وأمّا القرآن الكريم فإنّما يحتجّ به لا له، وإلّا لزم كون غير القرآن أقوى من القرآن، والنّحاة واللّغويّون يرجعون إلى القرآن الكريم بالدّرجة الأولى باعتباره قطعيّ الصّدور وبلسان عربيّ مبين. وغير سديد أن يقدّم مسلم يتمتّع بكامل قواه العقليّة كلام شاعرٍ من الأعراب الجاهليّين على كلام المولى سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان علّمه البيان.

على أن الآلوسي يورد في تفسيره بخصوص قصّة الغرائق أقوالاً للكُورانيّ المدنيّ ومن بينها: "وبيّانه أنّه إن أراد أنّه يحتمله عند الفرق الأربع المذكورة في الآيات وهم الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم والذين أوتوا العلم والذين آمنوا ممنوع لدلالة قوله تعالى وليعلم.. إلخ على انتفاء الاحتمال عند

فريقين من الفرق الأربع بعد النسخ والإحكام. وإن أراد أنّه يحتمله في الجملة أي عند بعض دون بعض فهو مسلمٌ وغير مضرّ لعدم إخلاله بالوثوق بالقرآن عند الذين أوتوا العلم والذين آمنوا، وأما إخلاله بالنسبة إلى الفريقين الآخرين فهو مراد الله عزّ وجلّ ". ولا يُعقَّب الألوسيّ على هذا القول الذي فيه تصريح بأنّ الذين في قلوبهم مرض فرقة مستقلة في قبال الذين آمنوا والقاسية قلوبهم. ولو كانت قضية الإلصاق صحيحة، وأنّ الواو جيء بها - كما يقول - لزيادة إلصاق الصّفة بالموصوف لأتّها لا تنفكّ عنه للزم ذكر عبارة ﴿المنافقون﴾ هنا أيضا. فالألوسيّ بكلامه هذا نسف قصة إلصاق الصّفة بالموصوف وتركها قاعا صفصفا.

قال الألوسيّ: " وأما الذين قلوبهم مرض .. الخ، تفصيل لهذين القسمين. وجعل ذلك الطيّبيّ تفصيلا لمحذوف ويّنه بما لا يميل القلب إليه. وأيا ما كان فجواب إذا جملة فمنهم .. الخ، وليس هذا وما بعده عطفًا عليه، أي فأما الذين آمنوا بالله سبحانه وبما جاء من عنده فزادتهم إيمانًا أي تصديقًا لأنّ ذلك هو المتبادر من الإيمان كما قرّر في محله، وقبول التّصديق نفسه الزيادة والنّقص والشّدّة والضعف مما قال به جمع من المحقّقين وبه أقول لظواهر الآيات والأخبار. ولو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا. ومن لم يقبل قبوله للزيادة ولم يدخل الأعمال في الإيمان قال إنّ زيادته بزيادة متعلّقه والمؤمن به، وإليه يشير كلام ابن عباس رضي الله تعالى عنهما. قيل ويلزمه أن لا يزيد اليوم لإكمال الدّين وعد متجدّد متعلّق وفيه نظر وإنّ قاله من تعقد عليه الخناصر، وتعتقد بكلامه الضمائر، ومن لم يقبل وأدخل الأعمال فالزيادة وكذا مقابلها ظاهرة عنده. وهم يستبشرون بنزولها لأنّه سبب لزيادة كمالهم ورفع درجاتهم، بل هو لعمرى أجدى من تفاريق العصا. وأما الذين في قلوبهم مرض أي نفاق

فزادتهم رجسا إلى رجسهم أي نفاقا مضموما إلى نفاقهم. فالزيادة متضمنة معنى الضم ولذا عدّيت بلى وقيل إلى بمعنى مع ولا حاجة إليه. وماتوا وهم كافرون واستحكم ذلك فيهم إلى أن يموتوا عليه^(١).

يقول الآلوسي: (وجعل ذلك الطيّب تفصيلا لمحذوف وبينه بما لا يميل القلب إليه)، ولم يذكر ما بينه به الطيّب مع أنه من الأمانة العلميّة أن يذكره، لأنّه من حقّ القارئ أن يعلم ذلك، وهذا الحقّ ثابت، بل يعدّ تصرف الآلوسي بهذه الطريقة من قبيل الرقابة. فهلّا بسط قول الطيّب بين يدي القراء وترك لهم الحكم!

وليس يخفى على المتبّع أنّ الآلوسي يعطي لقلبه الحرّية التامة في الميل وعدم الميل، والقبول وعدم القبول، وكأنه يتجاهل قلوب الآخرين؛ ولا بأس لو كان قلبه قلب معصوم، غير أنّه لا سبيل إلى هناك. فهل يتصور الآلوسي لقلبه وصاية على قلوب الآخرين؟

قال الآلوسي بعد ذلك: " وأيّاً ما كان " ولم يعقب على القول الذي لا يميل إليه قلبه، وهذا إن لم يكن من التحكّم، فهو على الأقلّ بعيد من الإنصاف، ودليل ذلك أنّ قلوب الكفار لا تميل إلى الإسلام، وقلوب النساء لا تميل إلى تعدّد الزوجات، فهل يكون ذلك مبرراً لمواقفهم مصحّحاً لما يذهبون إليه؟ نعم، القلب السليم الذي لا يستهويه المزاج لا يميل ولا يستمال لأنّه على هدى من الله تعالى، وذلك للمخلصين من عباد الرحمن. فالآلوسي يريد أن يجعل من ميل قلبه دليلاً في مقابلة أدلة الآخرين، وليس له ذلك،

خصوصاً أنّه قال فيما بعد " وفيه نظر وإن قاله من تعقد عليه الخناصر وتعتقد بكلامه الضّائر " وعلى هذا، عملاً بحكم الأمثال في ما يجوز وما لا يجوز، يكون كلام الآلوسيّ محلّ نظر حتّى لو كان هو الذي تعقد عليه الخناصر وتعتقد بكلامه الضّائر.

الذين في قلوبهم مرض أي نفاق.

قال الآلوسيّ: " ليجعل ما يلقي الشيطان أي الذي يلقيه وقيل إلقاءه فتنة أي عذاباً وفي (البحر)^(١) ابتلاء واختباراً للذين في قلوبهم مرض أي شكّ ونفاق، وهو المناسب لقوله تعالى في المنافقين في قلوبهم مرض. وتخصيص المرض بالقلب يؤيد له لعدم إظهار كفرهم بخلاف الكافر المجاهر. والقاسية قلوبهم أي الكفار المجاهرين وقيل المراد من الأولين عامّة الكفار ومن الآخرين خواصّهم كأبي جهل والنّضر وعتبة. وحمل الأولين على الكفار مطلقاً والآخرين على المنافقين لأنّهم أحقّ بوصف القسوة لعدم انجلاء صدأ قلوبهم بصقيل المخالطة للمؤمنين ليس بشيء. وإنّ الظالمين أي الفريقين المذكورين فوضع الظاهر موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظلم مع ما وصفوا به من المرض والقسوة لفي شقاق بعيد أي عداوة شديدة ومخالفة تامّة^(٢).

يقول الآلوسيّ: " وهو المناسب لقوله تعالى في المنافقين في قلوبهم مرض "، والحال أنّها محلّ نزاع، وليس هناك دليل قطعيّ على ما ذهب إليه المفسّرون قبله، إن هي إلّا ظنون، وإنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً؛ لكن حينما يتكرّر

١ - البحر المحيط هو عنوان تفسير أبي حيان.

٢ - روح المعاني، ج ١٧ ص ١٧٤.

هذا الزعم منه ينتهي إلى تسريب الفكرة إلى القارئ تلقينا، حتى إذا أنست به النفس ركنت إليه وتحول إلى مسلم به لا يحتاج إلى دليل. وهذا المنحى طالما سلكه أتباع مدرسة الخلفاء ولا تخفى آثاره على المتتبعين.

الذين في قلوبهم مرض أي شك ونفاق.

قال الآلوسي: "التزام أحد الأمرين علي تقدير صحة الخبر لمكان العصمة. والنكتة في التعبير كذلك إيهام الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم أنه عليه الصلاة والسلام مدح آلهتهم. ويحصل ذلك مراد الله تعالى المشار إليه بقوله سبحانه ليجعل.. الخ. وأما عن الرابع، فبأننا نختار الشق الثاني بناء على أنه استفهام حذف منه الهمزة، أو حكاية بحذف القول. وعلى التقديرين يكون عليه الصلاة والسلام معتقدا لمعنى مخالف لما اعتقده. ولا يلزم منه التقرير على الباطل لأنه بيّن بطلان معتقدهم بقوله تعالى بعد إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان، فإن ما لم ينزل الله تعالى به سلطانا لا ترجي شفاعته إذ لا شفاعاة إلا من بعد إذن إلهي لقوله تعالى بعد وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى" (١).

لم يشر الآلوسي إلى المقصود من الذين في قلوبهم مرض، لكنه قال: (أنه مدح آلهتهم) وهذا لا يصلح للمنافقين، لأن المنافقين يظهرون الإيمان ويطنون الكفر، فظاهرهم التوحيد لا تعدد الآلهة؛ والذي يتبادر إلى الذهن عند ذكر الآلهة لا يتعدى المشركين.

قال الآلوسي: "وقوله تعالى أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ترديد لسبب الإعراض المذكور، فمدار الاستفهام ما يفهم من الكلام كأنه قيل أسبب إعراضهم عن المحاكمة إليه ﷻ أنهم مرضى القلوب لكفرهم ونفاقهم أم أنهم ارتابوا وشكوا في أمر نبوته عليه الصلاة والسلام مع ظهور حقيقتها أم سببه أنهم يخافون أن يحيف ويجور الله تعالى شأنه عليهم ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم؟ وهذا نظير قولك أفيه مرض أم غاب عن البلد أم يخاف من الواشي بعد قول هجر الحبيب مثلا، فإن كون المعنى أسبب هجره أن فيه مرضا أم سببه أنه غاب عن البلد أم سببه أنه يخاف من الواشي ظاهر جدّا، وهو كثير في المحاورات إلا أن الاستفهام في الآية إنكاريّ وهو لإنكار السببية. وقوله تعالى بل أولئك هم الظالمون تعيين للسبب بعد إبطال سببية جميع ما تقدّم. ففيه تأكيد لما يفيد الاستفهام كأنه قيل ليس شيء ممّا ذكر سببا لذلك الإعراض. أمّا الأولان فلاّنه لو كان شيء منهما سببا له لأعرضوا عن المحاكمة إليه صلى الله تعالى عليه وسلم عند كون الحقّ لهم، ولما أتوا إليه عليه الصلاة والسلام مذعنين لحكمه لتحقيق نفاقهم وارتيابهم حينئذ أيضا. وأمّا الثالث فلاّنتفائه رأسا حيث كانوا لا يخافون الحيف أصلا لمعرفتهم بتفاصيل أحواله عليه الصّلاة والسّلام في الأمانة والثبات على الحقّ، بل سبب ذلك أنهم هم الظالمون يريدون أن يظلموا من الحقّ له عليهم، ولا يتأتّى مرامهم مع الانقياد إلى المحاكمة إليه عليه الصلاة والسلام فيعرضون عنها لأنّه صلى الله تعالى عليه وسلم يقضي بالحقّ عليهم. فمناطق النفي المستفاد من الاستفهام الإنكاريّ والإضراب الإبطاليّ في الأوّلين هو وصف سببّيتهما للإعراض فقط مع تحقيقهما في نفسهما؛ وفي الثالث هو الأصل والوصف جميعا. وإذا خصّ الارتياب بما له جهة مصحّحة لعروضه

لهم في الجملة كما فعل البعض حيث جعل المعنى أم ارتابوا بأن رأوا منه صلى الله تعالى عليه وسلم تهمة فزالت ثقتهم وبقينهم به عليه الصلاة والسلام كان مناط النفي في الثاني كما في الثالث. كذا قرره بعض الأجلة. وأم عليه متصلة. وقد ذهب إلى أنها كذلك الزمخشري والبيضاوي حيث جعلوا ما تقدم تقسيما لسبب الإعراض إلا أن الأول جعل الإضراب عن الآخرين من الأمور الثلاثة، ووجه بأنه أدل علي ما كانوا عليه وأدخل في الإنكار من حيث أنه يناقض تسرعهم إليه صلى الله تعالى عليه وسلم إذا كان الحق لهم على الغير. والثاني جعله إضرابا عن الآخرين منها لتحقيق القسم الأول، وقال وجه التقسيم أن امتناعهم عن المحاكمة إليه صلى الله تعالى عليه وسلم إما أن يكون خلل فيهم أو في الحاكم والثاني إما أن يكون محققا أو متوقعا. وفسر الارتياب برؤية مثل تهمة تزيل يقينهم. ثم قال وكلاهما باطلان فتعين الأول. أما الأول فظاهر وأما الثاني فلأن منصب النبوة وفرط أمانته عليه الصلاة والسلام يمنعه وظلمهم يعم خلل عقيدتهم وميل نفوسهم إلى الحيف. وقال العلامة الطيبي: الحق أن (بل) إضراب عن نفس التقسيم وهو إضراب انتقالي كأنه قيل دع التقسيم فإنهم هم الكاملون في الظلم الجامعون لتلك الأوصاف، فلذلك صدوا عن حكومتك. يدل عليه الإتيان باسم الإشارة والخطاب وتعريف الخبر بلام الجنس وتوسيط ضمير الفصل. ونقل عن الإمام ما يدل على أن (أم) منقطعة؛ قال أثبتهم على كل واحد من هذه الأوصاف فكان في قلوبهم مرض وهو النفاق، فكان فيها ارتياب فكانوا يخافون الحيف. ووجه الإضراب أن كلاً مسبب عن الآخر علم علي وجوده وزيادة. واعتراض بأنه لا يجب التسبب إلا أن يدعي في هذه المادة خصوصا. وصرح أبو حيان بأنها منقطعة، وبأن الاستفهام للتوقيف والتوبيخ ليقروا بأحد هذه الأوجه التي

عليهم في الإقرار بها ما عليهم. ويستعمل في الذم والمدح كما في قوله ألسنت من القوم الذين تعاهدوا على اللؤم والفحشاء في سالف الدهر؟ وقوله ألسنت خير من ركب المطايا* وأندى العالمين بطون راح؟ ولا يخفى أن الأظهر أنها متصلة والتلازم بين الأمور الثلاثة ممنوع؛ على أنه لا يضر وأن معنى الآية ما ذكرناه أولاً وتقديم عليهم على الرسول لتأكيد أن حكمه عليه الصلاة والسلام هو حكم الله تعالى ووجه اختلاف أساليب الجمل يظهر بأدنى تأمل^(١).

قال الآلوسي: "و(الذين قلوبهم مرض) ظاهر العطف أنهم قوم لم يكونوا منافقين فقليل هم قوم كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبهة عليهم. وقيل قوم كانوا ضعفاء الاعتقاد لقرب عهدهم بالإسلام. وجوز أن يكون المراد بهم المنافقين أنفسهم والعطف لتغاير الوصف كقوله إلى الملك القرم وابن الهمام"^(٢).

وهذا الكلام من الآلوسي محل نظر، فإن قوله "قوم لم يكونوا منافقين" يُلقى ظلالاً من الشك على عباراته السابقة، إذ أنه دافع فيها جميعاً عن ثبوت عنوان النفاق للذين في قلوبهم مرض. ثم إنه أورد أقوالاً ثلاثة بالبناء للمجهول، ولا ريب أن مجهول القائل ضعيف لا يُحتج به. وورود ثلاثة احتمالات يقطع الطريق على الآلوسي فلا يسوغ له بعد ذلك أن يعتبر (الذين في قلوبهم مرض) المنافقين وأن يرسل ذلك إرسال المسلمات. وفي قوله "والعطف لتغاير الوصف" مغالطة لا تنطلي على الحصيف، لأن الحديث عن الموصوف لا عن الوصف؛ لأن المنافقين مصطلح قرآني معلوم لا يدفعه

١ - روح المعاني، ج ١٨، ص ١٩٦-١٩٧.

٢ - روح المعاني، ج ٢١، ص ١٥٨.

أحد، وكذلك الشأن بالنسبة لأهل الكتاب والذين كفروا والذين آمنوا. ولو صح ما يذهب إليه الألوسي من تصرف في السياق لجاز أن يكون العطف لتغاير الوصف في قوله تعالى (إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصّابئين...) فيكون الذين آمنوا هم اليهود وهم النصارى وهم الصّابئين!.. على أنّ العطف في ما استشهد به من الشعر لا يقوّي حجّته، فإنّ ابن الهمام معطوف على القرم، وقد جنح إليه الشاعر ضرورة كي لا يقع اختلال في الوزن، والبيت من المتقارب، ولا يستشهد بموضع الضّرورة، إذ ضرورة الشعر هي عين تجاوز قواعد اللّغة للمحافظة على الوزن. والقرآن الكريم يراعي قواعد اللّغة على أعلى وأكمل مستوى.

قال الألوسي: "لئن لم يتته المنافقون عمّا هم عليه من التفّاق وأحكامه الموجبة للإيذاء، والذين في قلوبهم مرض وهم قوم كان فيهم ضعف إيمان وقلة ثبات عليه، عمّا هم عليه من التزلزل وما يستتبعه ممّا لا خير فيه، والمرجعون في المدينة من اليهود المجاورين لها عمّا هم عليه من نشر أخبار السوء عن سرايا المسلمين وغير ذلك من الأراجيف الملققة المستتبعة للأذية، وأصل الإرجاف التحريك من الرّجفة التي هي الزّلزلة وصفت به الأخبار الكاذبة لكونها في نفسها متزلزلة غير ثابتة أو لتزلزل قلوب المؤمنين واضطرابها منها. والتّغاير بين المتعاطفات على ما ذكرنا بالذّات، وهو الذي يقتضيه ظاهر العطف. وأخرج ابن المنذر وغيره عن مالك بن دينار قال سألت عكرمة عن الذين في قلوبهم مرض فقال هم أصحاب الفواحش. وعن عطاء أنّه فسّرهم بذلك أيضا. وفي رواية أخرى عنه أنّه قال: هم قوم مؤمنون كان في أنفسهم أن يزنوا فالمرض حبّ الزنى. وإذا فسّر المرجفون على ذلك بما سمعت يكون التّغاير بين المتعاطفات بالذّات أيضا. وأخرج ابن سعد عن

محمّد بن كعب أنّ الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون، وهو المعروف في وصفهم. وأخرج هو أيضا عن عبيد بن حنين أنّ الذين في قلوبهم مرض والمرجفون جميعا هم المنافقون؛ فيكون العطف مع الاتحاد بالذات لتغاير الصّفات علي حدّ هو الملك القرم وابن الهمام. فكأنّه قيل لأنّ لم ينته الجامعون^(١).

وقد فرّق الألوسيّ ههنا بين المنافقين والذين في قلوبهم مرض فقال عن الذين في قلوبهم مرض أنّهم قوم كان فيهم ضعف إيمان وقلة ثبات عليه... لكنّه أضاف إلى ذلك أقوالاً تُبطله أو على أقلّ تقدير تُخالفه بما يُضعف ما يذهب إليه، وإن كان يريد من ورائه توحيد المنافقين والذين في قلوبهم مرض. قال الألوسيّ: "أخرج ابن أبي حاتم عنه أنّه قال فيها: كان النفاق على ثلاثة أوجه، نفاق مثل نفاق عبد الله بن سلول ونظائره، كانوا وجوها من وجوه الأنصار فكانوا يستحيون أن يأتوا الزّنا، يصونون بذلك أنفسهم؛ وهم المنافقون في الآية. ونفاق الذين في قلوبهم مرض وهم منافقون إن تيسّر لهم الزّنا عملوه وإن لم يتيسّر لم يتبعوه ويهتمّوا بأمره. ونفاق المرجفين وهم منافقون يكابرون النّساء يقتصّون أثرهنّ فيغلبوهنّ على أنفسهنّ فيفجرون بهنّ، وهؤلاء الذين يكابرون النّساء لغريبتك بهم يقول سبحانه لنعلمنك بهم. ثمّ قال تعالى ملعونين ثمّ فصلت الآية أينما ثقفوا يعملون هذا العمل مكابرة النّساء أخذوا وقتلوا تقتيلا. قال السّديّ هذا حكم في القرآن ليس يعمل به. لو أنّ رجلا وما فوقه اقتصّوا أثر امرأة فغلبوها على نفسها ففجروا

بها كان الحكم فيها غير الجلد والرّجم وهو أن يؤخذوا فتضرب أعناقهم. سنّة الله في الذين خلوا من قبل كذلك كان يفعل بمن مضى من الأمم ولن تجد لسنة الله تبديلاً. فمن كابر امرأة على نفسها فغلبها فقتل فليس على قاتله دية لأنّه يكابر (انتهى كلام السّديّ). والظاهر أنّه قد وقع الانتهاء من المنافقين والذين في قلوبهم مرض عمّا هو المقصود بالنّهي وهو ما يستتبعه حالهم من الإيذاء ولم يقع من المرجفين أعني اليهود فوق القتال والإجلاء لهم^(١). والمعنى الذي يذهب إليه الألوسيّ هو أنّ النّفاق ثلاثة أقسام، ولم يُشر المتقدّمون إلى شيء بهذا المعنى، لأنّ النّفاق عندهم يتعلّق بالاعتقاد، فالرّجل الذي يُبطن الكُفْر ويظهر الإيمان هو المنافق، وأمّا الزّنا فقضيّة أخلاقية؛ وقد وقع الزّنا في زمن النّبيّ ﷺ وأقيمت الحدود على مرتكبيه، ولم يقل عنهم إنّهم منافقون، والذي عليه جمهور المسلمين أنّ المعصية لا تخرج من الإيمان، وقد ثبتت في كتب الحديث والفقه والأصول الصّلاة على أموات أقيم عليهم حدّ الرّجم في زمن النّبيّ ﷺ، وأثرت عبارات من بينها "لقد تابت توبة لو قُسمت على أهل المدينة لو سعتهم".

قال الألوسيّ في تفسيره: "رأيت الذين في قلوبهم مرض أي نفاق وقيل ضعف في الدّين ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت، أي نظر المحتضر الذي لا يطرف بصره. والمراد تشخص أبصارهم جنباً وهلعاً، وقيل يفعلون ذلك من شدّة العداوة له عليه الصّلاة والسّلام، وقيل من خشية الفضيحة فإنّهم إن تخلّوا عن القتال افتضحوا وبان نفاقهم. وقال الزّمخشريّ كانوا

يدعون الحرص على الجهاد ويتمنونه بألستهم ويقولون لولا أنزلت سورة في معنى الجهاد، فإذا أنزلت وأمر فيها بما تمنّوا وحرصوا عليه كاعوا وشقّ عليهم وسقط في أيديهم، كقوله تعالى فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس. والظاهر ما ذكرناه أولاً من أنّ القائلين هم الذين أخلصوا في إيمانهم وإنّما عرا المنافقين ما عرا عند نزول أمر المؤمنين بالجهاد لدخولهم فيهم بحسب ظاهر حالهم. وقد جوّز هو أيضاً إرادة الخلص من الذين آمنوا لكن كلامه ظاهر في ترجيح ما ذكره أولاً عنده. والظاهر أنّ في الكلام عليه إقامة الظاهر مقام المضمّر. وجوّز أن يكون المطلوب في قوله تعالى لولا أنزلت سورة إنزال سورة مطلقاً حيث كانوا يستأنسون بالوحي ويستوحشون إذا أبطأ. وروي نحوه عن ابن جريج؛ أخرج ابن المنذر عنه أنّه قال في الآية: كان المؤمنون يشتاقون إلى كتاب الله تعالى وإلى بيان ما ينزل عليهم فيه، فإذا نزلت السورة يذكر فيها القتال رأيت يا محمد المنافقين ينظرون إليك الخ.. فأولى لهم^(١).

يقول الآلوسي "نفاق وقيل ضعف دين"، والفرق بينهما كبير؛ فإنّ المنافق لا دين له وإن كان في الظاهر معدوداً من المسلمين، وقد أخبر القرآن الكريم أنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار. لكنّه^(٢) في الأخير رجّح المنافقين "رأيت يا محمد المنافقين ينظرون إليك" مع أنّ الآية تقول صريحاً ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، ومن عادة القرآن الكريم الدقة في التعبير؛ وقد ذكر المنافقين في مواضع كثيرة ولا مانع من ذلك هنا إن كانوا هم المقصودين، فلماذا ينجح إلى التعبير بمفردة لا تدلّ بشكل قطعيّ على المنافقين؟ وللتذكير

١ - روح المعاني، ج ٢٦ ص ٦٧.

٢ - الضمير يعود على الآلوسي.

فإن عبارة الذين في قلوبهم مرض ذكرت في مكة في بداية الدعوة، وهو ما يقدر في الاستشهاد بها بمعنى المنافقين إذ لا نفاق في مكة.

قال: "وأياً ما كان، فالمراد فلو صدقوا الله فيما زعموا من الحرص على الجهاد ولعلمهم أظهروا الحرص عليه كالمؤمنين الصادقين. وقيل في قولهم طاعة وقول معروف. وقيل في إيمانهم. لكان أي الصدق خيراً لهم مما ارتكبوه، وهذا مبني على ما في زعمهم من أن فيه خيراً وإلا فهو في نفس الأمر لا خير فيه. فهل عسيتم خطاب لأولئك (الذين قلوبهم مرض) بطريق الالتفات لتأكيد التوبيخ وتشديد التقرع. وهل للاستفهام والأصل فيه أن يدخل الخبر للسؤال عن مضمونه والإنشاء الموضوع له عسى ما دل عليه بالخبر، أي فهل يتوقع منكم ويُنْتَظَر إن توليتم أمور الناس وتأمرتم عليهم فهو من الولاية والمفعول به محذوف. وروي ذلك عن محمد بن كعب وأبي العالية والكلبي. أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم تناحروا على الولاية، وتكالبوا على جيفة الدنيا. والمتوقع كل من يقف على حالهم إلا الله عز وجل إذ لا يصح منه سبحانه ذلك. والاستفهام أيضاً بالنسبة إلى غيره جلّ وعلا. فالمعنى أنكم لما عهد منكم من الأحوال الدالة على الحرص على الدنيا حيث أمرتهم بالجهاد الذي هو وسيلة إلى ثواب الله تعالى العظيم فكرهتموه، وظهر عليكم ما ظهر أحقَاء بأن يقول لكم كل من ذاقكم وعرف حالكم ياهؤلاء ما ترون هل يتوقع منكم إن توليتم أن^(١) تفسدوا في الأرض"^(٢).

لم يفسر الآلوسي هنا المقصود بالذين في قلوبهم مرض بالمعنى المعهود

١ - الصواب: هل يتوقع منكم سوى أن تفسدوا في الأرض .

٢ - روح المعاني، ج ٢٦ ص ٦٨ .

لديه، لكنّه ذكر أوصافهم، فهم أهل تناحر على الولاية^١ وتكالب على جيفة الدّنيا وأحوالهم دالّة على الحرص على الدّنيا وكرّه الجهاد.

قال الآلوسيّ: "أم حسب الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون الذين فصلت أحوالهم الشّنيعة وصفوا بوصفهم السّابق لكونه مدارا لما نعي عليهم بقوله تعالى أن لن يخرج الله أضغانهم. فأم منقطعة وأن مخفّفة من أن واسمها ضمير الشّأن، والجملة بعدها خبرها والأضغان جمع ضغن وهو الحقد، وقيدته الرّاغب بالشّديد. وقد ضغن بالكسر وتضاغن القوم واضطغنوا أبطنوا الأحقاد. ويقال اضطغنت الصّبيّ إذا أخذته تحت حضنك"^(١).

إذا، يكون الذين في قلوبهم مرض "هم المنافقون الذين فصلت أحوالهم الشّنيعة وصفوا بوصفهم السّابق".

قال الآلوسيّ: "وحمل الذين أوتوا الكتاب على أهل الكتابين ممّا ذهب إليه جمع. وقيل المراد بهم اليهود، فقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقيّ في البعث عن البراء أنّ رهطا من اليهود سألوا رجلا من أصحاب النّبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم عن خزنة جهنّم فقال: الله تعالى ورسوله أعلم. فجاء فأخبر النّبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم فنزل عليه ساعتئذ عليها تسعة عشر. وأخرج الترمذيّ وابن مردويه عن جابر قال: قال ناس من اليهود لأناسٍ من أصحاب النّبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم هل يعلم نيّكم عدد خزنة جهنّم؟ فأخبروا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال هكذا وهكذا في مرّة عشرة وفي مرّة تسعة. واستشعر من هذا أنّ الآية مدنيّة لأنّ اليهود إنّما كانوا

١ - بناء على هذا القول لا يبعد أن يكون التناحر الذي جرى يوم السقيفة من مصاديق ذلك .

فيها وهو استشعار ضعيف لأنّ السؤال لصحابيّ فلعلّه كان مسافراً فاحتجّ
 بيهوديّ حيث كان، وأيضاً لا مانع إذ ذاك من إثبات اليهود نحو مكّة المكرّمة.
 ثمّ إنّ الخبرين لا يعينان حمل الموصوف على اليهود كما لا يخفى، فالأولى إبقاء
 التعريف على الجنس وشمول الموصوف للفريقين. أي ليستيقن أهل الكتاب
 من اليهود والنّصارى، ويزداد الذين آمنوا إيماناً أي يزداد إيمانهم كميّة بما
 رأوا من تسليمهم أهل الكتاب وتصديقهم أنّه كذلك، أو كميّة بانضمام
 إيمانهم بذلك إلى إيمانهم بسائر ما أنزل. ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب
 والمؤمنون تأكيد لما قبله من الاستيقان وازدياد الإيثار ونفي لما قد يعتل أي
 المستيقن من شبهة ما للغفلة عن بعض المقدّمات أو طريان ما توهم كونه
 معارضا في أوّل وهلة، ولما فيه من هذه الزيادة جاز عطفه على المؤكّد بالواو
 لتغايرهما في الجملة. وإنّما لم ينظم المؤمن ونفى سلك أهل الكتاب في نفي
 الارتباب حيث لم يقل ولا يرتابوا للتنبية على تباين النّفيين حالا، فإنّ انتفاء
 الارتباب من أهل الكتاب مقارن لما ينافيه من الجحود، ومن المؤمنين مقارن لما
 يقتضيه من الإيمان وكم بينهما. وقيل إنّما لم يقل ولا يرتابوا بل قيل ولا يرتاب
 الخ للتّنصيص على تأكيد الأمرين لاحتمال عود الضمير في ذلك على المؤمنين
 فقط، والتعبير عن المؤمنين باسم الفاعل بعد ذكرهم بالموصول والصّلة
 الفعلية المنبئة عن الحدوث للإيذان بشأتهن على الإيمان بعد ازديادهن
 ورسوخهم في ذلك. وليقول الذين في قلوبهم مرض أي شكّ أو نفاق فيكون
 بناء على أنّ السّورة بتمامها مكّيّة، والنّفاق إنّما حدث بالمدينة إخباراً عمّا
 سيحدث من المغيبيات بعد الهجرة، والكافرون المصّرون على التّكذيب، ماذا

أراد الله بهذا مثلاً أي شيء أراد تعالى أو ما الذي أَراده الله تعالى بهذا العدد المستغرب استغراب المثل..^(١)

مرة يقول الألوسي: "واستشعر من هذا أن الآية مدنيّة لأن اليهود إنما كانوا فيها وهو استشعار ضعيف لأن السؤال لصحابي فلعله كان مسافراً فاحتجّ بيهوديّ حيث كان؛ وأيضاً لا مانع إذ ذاك من إتيان اليهود نحو مكّة المكرّمة".

ومرة أخرى يقول: "وليقول الذين في قلوبهم مرض أي شكّ أو نفاق، فيكون بناء على أن السّورة بتمامها مكّيّة والتّفاق إنّما حدث بالمدينة إخباراً عما سيحدث من المغيّبات بعد الهجرة". ولا يخفى ما بين القولين من الاضطراب، فكان من المفروض ألا يأتي الألوسيّ بما جاء به من قوله "إخباراً عما سيحدث من المغيّبات بعد الهجرة" بعد أن حكم هو نفسه على الاستشعار بالضعف، إضافة إلى أن حمل ذلك على ما يحدث في المدينة يحتاج إلى قرينة، وما من قرينة في نفس العبارة، فلماذا جاء الألوسيّ بهذا القول بعد أن اعتبره ضعيفاً؟

ويبقى القارئ في حيرة لأنّه لا يرى للألوسيّ بتّاً في المسألة، وربّما توهم أنّه يتبنّى الرأي الثاني لقوله "فيكون بناء على أن السّورة بتمامها مكّيّة". ومعنى ذلك أنّه سواء كانت السّورة مكّيّة أم مدنيّة فإنّ (الذين في قلوبهم مرض) لا تعدو المنافقين. وهو تهافت عجيب من مثل الألوسيّ، لكنّه ليس أوّل متهافت في القضية ومتعلّقها على درجة من الخطورة، فلا بأس بالمناورة من باب ما

لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وقد أوجب مفسّرو الجمهور على أنفسهم وأتباعهم الدّفاع عن عدالة جميع الصّحابة برّهم وفاجرهم، ولا يتمّ تصحيح ذلك وتصويبه إلاّ بدفع وإبطال كل ما من شأنه أن يشكّك فيه ويجعله محلّ نظر ولو كان في القرآن الكريم!

تبيّن مما سبق أن عبارة الذين في قلوبهم مرض عند الآلوسي يُراد بها:

(١) المنافقون (باعتبار قوله ولا شكّ أنّ قلوب المنافقين كانت ملأى من تلك الخبائث) فإنّه يدلّ على أنّه يفهم من الذين في قلوبهم مرض المنافقين لا غير. (٢) الذين لم تطمئنّ قلوبهم بالإيمان بعد وبقي فيها شبهة. (٣) هم فتية من قريش أسلموا بمكّة وحبسهم آباؤهم حتّى خرجوا معهم إلى بدر منهم قيس بن الوليد بن المغيرة والعاص بن منبه بن الحجاج والحرث بن زمعة وأبو قيس بن الفاكه. (٤) المراد بهم المنافقون سواء جعل العطف تفسيراً أو فسّر مرض القلوب بالإحن والعداوات والشكّ مما هو غير النّفاق. (٥) الجامعون بين النّفاق ومرض القلوب وقيل يجوز أن يكون الموصول صفة المنافقين. (٦) روي عن الحسن أنّ هؤلاء المنافقين لم يشهدوا القتال يوم بدر. (٧) وأمّا الذين في قلوبهم مرض أي نفاق. (٨) الذين في قلوبهم مرض أي نفاق. (٩) الذين في قلوبهم مرض أي شك ونفاق. (١٠) قيل المراد من الأولين (الذين في قلوبهم مرض) عامّة الكفّار. (١١) ظاهر العطف أنّهم قوم لم يكونوا منافقين. (١٢) هم قوم كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبهة عليهم. (١٣) قيل قوم كانوا ضعفاء الاعتقاد لقرب عهدهم بالإسلام. (١٤) هم قوم كان فيهم ضعف إيمان وقلة ثبات عليه. (١٥) هم أصحاب الفواحش. (١٦) هم قوم مؤمنون كان في أنفسهم أن يزنوا فالمرض حبّ الزنى. (١٧) الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون وهو المعروف في وصفهم. (١٨) الذين في قلوبهم مرض

والمرجعون جميعا هم المنافقون. (١٩) هم منافقون إن تيسر لهم الزنا عملوه وإن لم يتيسر لم يتبعوه ويهتموا بأمره. (٢٠) في قلوبهم مرض أي نفاق وقيل ضعف في الدين.

الذين في قلوبهم مرض في كتاب "التحرير والتنوير"

قال ابن عاشور في تفسير الآية من سورة البقرة^(١):
والمراد بالمرض في هاته الآية هو معناه المجازي لا محالة، لأنه هو الذي
اتّصف به المنافقون وهو المقصود من مذمتهم وبيان منشا مساوي أفعالهم.
ومعنى ﴿فزادهم الله مرضاً﴾ أن تلك الأخلاق الذميمة الناشئة عن النفاق
والملازمة له كانت تتزايد فيهم بتزايد الأيام، لأن من شأن الأخلاق إذا تمكنت
أن تتزايد بتزايد الأيام حتى تصبح ملكات.

وقال في تفسير الآية من سورة المائدة^(٢): وقوله: ﴿فترى الذين في قلوبهم
مرض يسارعون فيهم﴾ تفريع لحالة من موالاتهم أريد وصفها للنبي ﷺ لأنها
وقعت في حضرته. والمرض هنا أطلق على النفاق كما تقدّم في قوله تعالى ﴿في
قلوبهم مرض﴾ في سورة البقرة (١٠). أطلق عليه مرض لأنه كفر مفسد
للإيمان، والمسارعة تقدّم شرحها في قوله تعالى ﴿لا يحزنك الذين يسارعون في
الكفر﴾ (المائدة ٤١).....

قال: ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ قولاً نفسياً، أي
يقولون في أنفسهم. فالدائرة المخشّية هي خشية انتقاص المسلمين على
المنافقين، فيكون هذا القول من المرض الذي في قلوبهم، وعن السدي: أنه لما
وقع انهماك يوم أحد فرع المسلمون وقال بعضهم: نأخذ من اليهود حلفاً

١ - التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، ج ١ ص ٢٧٥.

٢ - نفس المصدر، ج ٥ ص ١٣١ - ١٣٢.

ليعاضدونا إن أَلَمْتُ بنا قاصمة من قريش. وقال رجل: إني ذاهب إلى اليهودي فلان فأوي إليه وأتهود معه. وقال آخر: إني ذاهب إلى فلان النصراني بالشَّام فأوي إليه وأنتصر معه، فنزلت الآية. فيكون المرض هنا ضعف الإيمان وقلة الثقة بنصر الله، وعلى هذا فهذه الآية تقدّم نزولها قبل نزول هذه السّورة، فإمّا أعيد نزولها، وإمّا أمر بوضعها في هذا الموضع.

وقال في تفسير الآية من سورة الأنفال^(١): و(القول) هنا مستعمل في حقيقته ومجازه الشّامل لحديث النّفس، لأنّ المنافقين يقولون ذلك بألسنتهم، وأمّا الذين في قلوبهم مرض وهم طائفة غير المنافقين^(٢)، بل هم من لم يتمكّن الإيمان من قلوبهم، فيقولونه في أنفسهم لما هم من الشكّ في صدق وعد النّبي ﷺ لأنهم غير موالين للمنافقين ويجوز أن يتحدّثوا به في جماعتهم. و(المرض) هنا مجاز في اختلال الاعتقاد، شبه بالمرض بوجه سوء عاقبته عليهم. وقد تقدّم في قوله تعالى ﴿في قلوبهم مرض﴾ في أول البقرة [١٠].

قال ابن عاشور: "فالقسم الأوّل المؤمنون زادتهم إيماناً وأكسبتهم بشرى فحصل من السّورة لهم نفعان عظيمان، والقسم الثّاني الذين في قلوبهم مرض زادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون"^(٣).

١ - نفس المصدر السابق، ج ٩ ص ١٢٩.

٢ - هذا اعتراف صريح منه بأنّ المنافقين شيء والذين في قلوبهم شيء آخر، وحدّدهم بقوله بَلْ هُمْ مَنْ لَمْ يَمَكُنْ الْإِيمَانُ مِنْ قُلُوبِهِمْ، لكنّه لن يثبت عليه كما سترى لاحقاً.

٣ - التحرير والتنوير، ج ١٠ ص ٢٣٣.

وقال - في تفسير الآية من سورة الحجّ -: "و﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ هم المترّدون في قبول الإيمان. و﴿الفاضية قلوبهم﴾ هم الكافرون المصّمون على الكُفر. والفريقان هم المراد ب﴿الظّالين﴾ في قوله ﴿وَإِنَّ الظّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾"^(١).

قال ابن عاشور في تفسير الآية من سورة النّور: "والقلوب: العقول. والمرض مستعار للفساد أو للكفر قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ (البقرة ١٠) أو للتناق. وأتى في جانب هذا الاستفهام بالجملة الاسميّة للدّلالة على ثبات المرض في قلوبهم وتأصّله فيها بحيث لم يدخل الإيمان في قلوبهم. والارتباب: الشكّ. والمراد ارتابوا في حقّية الإسلام، أي حدث لهم ارتياب بعد أن آمنوا إيماناً غير راسخ"^(٢).

قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ...﴾ من سورة الأحزاب: وقول المنافقين هذا يحتمل أن يكونوا قالوه علناً بين المسلمين قصدوا به إدخال الشكّ في قلوب المؤمنين لعلّهم يردّونهم عن دينهم... إلى أن قال: و﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ هم الذين كانوا متردّين بين الإيمان والكفر فأخلصوا يومئذ النّفاق وصمّموا عليه".

قال: "والمرض حقيقته اختلال نظام المزاج البدنيّ من ضعف القوّة، وهو هنا مستعار لاختلال الوازع الدّينيّ مثل المنافقين ومن كان في أوّل الإيمان من

١ - نفس المصدر السابق، ج ١٧ ص ٢١٨.

٢ - نفس المصدر، ج ١٨ ص ٢١٧.

الأعراب ممن لم ترسخ فيهم أخلاق الإسلام، وكذلك من تخلّقوا بسوء الظّنّ فيرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، وقضية إفك المنافقين على عائشة رضي الله عنها شاهد لذلك. وتقدّم في قوله تعالى ﴿في قلوبهم مرض﴾ [البقرة ١٠] "١".

قال: " فالمرجفون قوم يتلقّون الأخبار فيحدّثون بها في مجالس ونوادٍ ويخبرون بها من يسأل ومن لا يسأل. ومعنى الإرجاف هنا: أنهم يرجفون بما يؤذي النّبي ﷺ، والمسلمين والمسلمات، ويتحدّثون عن سرايا المسلمين فيقولون: هزموا أو أسرع فيهم القتل أو نحو ذلك لإيقاع الشكّ في نفوس الناس والخوف وسوء ظنّ بعضهم ببعض. وهم من المنافقين والذين في قلوبهم مرض وأتباعهم وهم الذين قال الله فيهم ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمر أو الخوف أذاعوا به﴾ [النساء ٨٣]. فهذه الأوصاف لأصناف من الناس. وكان أكثر المرجفين من اليهود وليسوا من المؤمنين لأنّ قوله عقبه ﴿لنغرّينك بهم﴾ لا يساعد أنّ فيهم مؤمنين "٢".

قال ابن عاشور: "و﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ هم المبطنون للكفر" فجعل الكفر الخفيّ كالمرض الذي مقرّه القلب لا يبدو منه شيء على ظاهر الجسد، أي رأيت المنافقين على طريق الاستعارة. وقد غلب إطلاق هذه الصّلة على

١ - نفس المصدر السابق، ج ٢١ ص ٢٤١.

٢ - نفس المصدر، ج ٢١ ص ٣٣٠.

٣ - أليس قد قال في تفسير الآية من سورة الأنفال: هم طائفة غير المنافقين؟! وهو الآن يقول هم المبطنون للكفر، ويؤكد بقوله وقد غلب إطلاق هذه الصّلة على المنافقين.

المنافقين، وأنّ التّفاق مرض نفسانيّ معضل لأنّه يتفرّع منه فروع بيّناها في قوله تعالى ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ في سورة البقرة [١٠] "١".

قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾: "انتقال من التهديد والوعيد إلى الإنذار بأنّ الله مطلع رسوله ﷺ على ما يضمّره المنافقون من الكفر والمكر والكيد، ليعلموا أنّ أسرارهم غير خافية فيوقنوا أنّهم يكذّبون عقولهم في ترتيب المكائد بلا طائل وذلك خيبة لآمالهم" "٢".

قال ابن عاشور في تفسير الآية من سورة المدثر ﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾: "أي ليقولوا هذا القول إعراباً عمّا في نفوسهم من الطّعن في القرآن غير عالمين بتصديق الذين أوتوا الكتاب. واللام لام العاقبة مثل التي في قوله تعالى ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾ [القصص ٨]. والمرض في القلوب: هو سوء النية في القرآن والرسول ﷺ، وهؤلاء هم الذين لم يزالوا في تردّد بين أن يسلموا وأن يبقوا على الشّرك مثل الأخنس بن شريق والوليد بن المغيرة، وليس المراد بالذين في قلوبهم مرض "المنافقين" لأنّ المنافقين ما ظهرُوا إلّا في المدينة بعد الهجرة والآية مكّيّة" "٣".

١ - نفس المصدر السابق، ج ٢٦ ص ٩١.

٢ - نفس المصدر، ج ٢٦ ص ١٠١.

٣ - نفس المصدر، ج ٢٩ ص ٢٩٤.

يقول ابن عاشور في تفسير المرض في سورة البقرة " والمراد بالمرض في هاته الآية هو معناه المجازي لا محالة، لأنّه هو الذي اتّصف به المنافقون "وعليه يكون الذين في قلوبهم مرض - هم - المنافقين، لكنّه يغيّر رأيه فيما بعد ويقول "هم طائفة غير المنافقين"، ثمّ يعود ثانية فيقول "وقد غلب إطلاق هذه الصّلة" على المنافقين"، ثمّ يعود بعدها فيقول: "وليس المراد بالذين في قلوبهم مرض (المنافقون)، لأنّ المنافقين ما ظهرُوا إلّا في المدينة بعد الهجرة والآية مكّيّة"! أربعة أقوال يضرب بعضها بعضاً، فسبحان مقلّب الأحوال!

وبناء على ما سبق يكون معنى الذين في قلوبهم مرض عند ابن عاشور :

(١) أصحاب تلك الأخلاق الذميمة الناشئة عن النفاق والملازمة له.

(٢) المرض أطلق على النفاق كما تقدّم في قوله تعالى ﴿في قلوبهم مرض﴾ في سورة البقرة ١٠. (٣) الذين في قلوبهم مرض وهم طائفة غير المنافقين، بل هم من لم يتمكّن الإيمان من قلوبهم، فيقولونه في أنفسهم لما لهم من الشكّ في صدق وعد النبي ﷺ لأنّهم غير موالين للمنافقين ويجوز أن يتحدثوا به في جماعتهم. (٤) ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ هم المتردّدون في قبول الإيمان. (٥) ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ هم الذين كانوا متردّدين بين الإيمان والكفر فأخلصوا يومئذ النفاق وصمّوا عليه. (٦) ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ هم المبطنون للكفر. (٧) والمرض في القلوب: هو سوء النية في القرآن

والرسول ﷺ، وهؤلاء هم الذين لم يزالوا في تردد بين أن يسلموا وأن يبقوا على الشرك مثل الأخنس بن شريق والوليد بن المغيرة، وليس المراد بالذين في قلوبهم مرض " المنافقين " لأنّ المنافقين ما ظهروا إلّا في المدينة بعد الهجرة والآية مكيّة .

الذين في قلوبهم مرض في تفسير (أضواء البيان)

قال الشنقيطي في أضواء البيان في تفسير (في قلوبهم مرض):
"﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لم يذكر هنا بيانا عن هؤلاء المنافقين، وصرّح بذكر بعضهم بقوله: ﴿وَمَن حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ الْإِنْفَاقِ﴾^(١).

ومعنى هذا أنّه يعتبر الذين قلوبهم مرض - هم - المنافقين ويؤكدّه التصريح المزعوم، لأنّ العبارة لا تصرّح كما يقول، وإنّما تشير إلى وجود منافقين من الأعراب، وعليه فهي تتضمّن علما إجماليا لا أكثر.

و العلم المنفيّ في الآية هو العلم التفصيلي، أي معرفتهم بأعيانهم لا مجرد العلم بوجودهم. وكيف يجتمع التصريح مع قوله تعالى في نفس السياق " لا تعلمهم نحن نعلمهم "؟! فإنّ الذي لا يُعلم غير مصرّح به، إذ التصريح منتهى البيان، ولا بيان مع عدم العلم. ومع ذلك فهو يقصد بالذين في قلوبهم مرض المنافقين.

الذين في قلوبهم مرض: تعني المنافقين.

وقال: " قوله تعالى: ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة﴾ إلى قوله: ﴿ما تحذرون﴾. صرّح في هذه الآية الكريمة بأنّ المنافقين يحذرون أن ينزل الله سورة

تفضحهم وتبين ما تنطوي عليه ضمائرهم من الخبث. ثم يبين أنه مخرج ما كانوا يحذرونه، وذكر في موضع آخر أنه فاعل ذلك، وهو قوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ ويبين في موضع آخر شدة خوفهم، وهو قوله ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾^(١). وهذا معناه أنه يسلم بكون المنافقين هم الذين في قلوبهم مرض وهو غير مسلم لمكان العطف المقتضي التغاير، فإن عطف الشيء على نفسه قبيح في لغة العرب، والقرآن أفصح وأبلغ ما تكلم به العرب.

وقال: "في تفسير قوله تعالى ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تَصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾: ذكر في هذه الآية الكريمة أن الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون، يعتذرون عن موالاته الكفار من اليهود بأنهم يخشون أن تدور عليهم الدوائر، أي دول الدهر الدائرة من قوم إلى قوم، كما قال الشاعر:

إذا ما الدهر جرّ على أناس كلاكلة أناخ بآخرينا

يعنون إما بخطط فلا يميرونا، ولا يتفضلوا علينا، وإما بظفر الكفار بالمسلمين فلا يدوم الأمر للنبي ﷺ، وأصحابه، زعماء منهم أتهم عند تقلب الدهر بنحو ما ذكر يكون لهم أصدقاء كانوا محافظين على صداقتهم، فينالون منهم ما يؤمل

الصديق من صديقه، وأنّ المسلمين يتعجّبون من كذبهم في إقسامهم بالله جهد أيمانهم، إنهم لمع المسلمين: ويبيّن في هذه الآية أنّ تلك الدوائر التي حافظوا من أجلها على صداقة اليهود، أنّها لا تدور إلّا على اليهود والكفار، ولا تدور على المسلمين، بقوله: ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ وعسى من الله نافذة، لأنّه الكريم العظيم الذي لا يُطمع إلّا فيما يعطي. والفتح المذكور قيل: هو فتح المسلمين لبلاد المشركين، وقيل: الفتح الحكم، كقوله ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾، وعليه فهو حكم الله بقتل مقاتلة بني قريظة، وسبي ذراريهم، وإجلاء بني النضير، وقيل: هو فتح مكّة، وهو راجع إلى الأوّل. ويبيّن تعالى في موضع آخر أنّ سبب حلفهم بالكذب للمسلمين أنّهم منهم، إنّما هو الفرق أي الخوف وأنّهم لو وجدوا محلاً يستترون فيه عن المسلمين لسارعوا إليه لشدة بغضهم للمسلمين، وهو قوله: ﴿وَيَجْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِمَنكُم وَمَا هُمْ بِمَنكُم وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ. لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ ففي هذه الآية بيان سبب أيمان المنافقين^(١).

وقال: "قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةً مِّمَّكَامٍ فِيهَا أَلْقَتْ رَأْيَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾. ذكر جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة أنّه إذا أنزل سورة محكمة، أي متقنة الألفاظ والمعاني،

١ - أضواء البيان - الشنقيطي، ج ٢ ص ٣١٣.

واضحة الدلالة لا نسخّ فيها وذكر فيها وجوب قتال الكفار، تسبّب عن ذلك كون الذين في قلوبهم مرض أي شكّ ونفاق، ينظرون كنظر الإنسان الذي يغشى عليه لآته في سياق الموت، لأنّ نظر من كان كذلك تدور فيه عينه ويزيغ بصره. وهذا إنّما وقع لهم من شدّة الخوف من بأس الكفار المأمور بقتالهم^(١).

هذه المرّة لم يعودوا المنافقين الذين في قلوبهم النفاق وإنّما هم الذين في قلوبهم (شكّ ونفاق)، فهل هو النفاق وحده أم النفاق مع الشكّ؟! الذين في قلوبهم مرض: الذين في قلوبهم شكّ ونفاق.

الذين في قلوبهم مرض يعني المنافقين.

الحصيلة

هذا ما جاء في تفاسير جمهور المفسرين بخصوص الذين في قلوبهم مرض، ويصعب على المتتبّع أن يجد له مبنّى عقلائيّا أو لغويّا معتبرا. وما ذهب إليه بعضهم من الاستشهاد بالشعر لإثبات المعنى المراد أو هن من بيت العنكبوت؛ وخير دليل على ذلك ما أورده بعضهم بخصوص الواو الواقعة بين (المنافقون) و(الذين في قلوبهم مرض) ليجعل ذلك معنى واحدا فسّمى الواو مقحمة، ولا وجود للواو المقحمة في كتب اللّغة والنحو المعتمدة. وقول قائلهم

(المنافقون) و(الذين في قلوبهم مرض) و(المرجعون في المدينة) شيء واحد، مما يبعث على الاستغراب. ولا شك أن هذه التضاربات مما يشكك في مباني هؤلاء المفسرين، ويدعو إلى إعادة النظر في مصداقيتهم من حيث الموضوعية، وإلى إخضاع تفاسيرهم للتحقيق العلميّ التزيه البعيد عن الانتماء المذهبيّ، للوصول إلى ما يعذر صاحبه. ولأنّ القرآن الكريم ذكر للذين في قلوبهم مرض أعمالا وصفات لم ينفع معها وعظ الرسول إليّاهم، ولا وجوده الشريف بين أظهرهم، فإنّه ينبغي تتبّع تلك الصّفات بعين الدّراسة والبحث لتمييز المتصفين بها، ووضعهم حيث وضعهم القرآن؛ إذ لا ينبغي أن يغيب عنا أنّ خاتمهم كانت سيّئة بدليل قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة ١٢٥). فالذين في قلوبهم مرض ماتوا على الكفر، وهذا بشهادة صريح القرآن في سورة التّوبة، وهي آخر أو من آخر ما نزل من القرآن كما سبق بيانه.

وبناء على ما سبق، يكون معنى الذين في قلوبهم مرض عند المفسرين كما يلي:

عند الصنعانيّ:

(١) قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فُسّموا منافقين. (٢) هم قوم كانوا أقروا بالإسلام بمكّة ثمّ خرجوا مع المشركين يوم بدر فلما رأوا المسلمين قالوا غرّ هؤلاء دينهم (٣) الذين في قلوبهم مرض قال الزّناة.

وعند الطبري:

(١) في قلوبهم شكّ في الإيمان، وضعف في اعتقادهم إيّاه. (٢) معتب بن قشير، إذ قال ما قال يوم الخندق (٣) الذي في قلبه ضعف فهو لضعف إيمانه في قلبه، إمّا شكّ في الإسلام منافق، فهو لذلك من أمره يستخفّ بحدود الله، وإمّا متهاون بإتيان الفواحش. (٤) وصفه بأنّ في قلبه مرضاً، لأنّه منافق. (٥) عن قتادة فيطمع الذي في قلبه مرض قال: نفاق. (٦) وقال آخرون: بل وصفه بذلك لأنّهم يشتهون إتيان الفواحش. (٧) عن قتادة فيطمع الذي في قلبه مرض قال قال عكرمة: شهوة الزّنا (٨) الذين في قلوبهم شكّ في دين الله وضعف هم أهل النّفاق. (٩) هؤلاء المنافقون. (١٠) المشركون الذين جاءوا لمحاربة النّبّي في بدر. (١١) الذين في قلوبهم ريبة من شهوة الزّنا وحبّ الفجور. (١٢) الذين في قلوبهم مرض: هم المنافقون!

وهم عند النّحاس:

(١) الذين في قلوبهم الشكّ والرّياء والنّفاق. (٢) (الذين قلوبهم مرض) أي نفاق. (٣) قال قوم من المنافقين. (٤) الذي في قلبه شهوة الزّنى. (٥) الذين في قلوبهم ريب وشكّ.

وهم عند الثعلبي:

(١) في قلوبهم مرض: شكّ ونفاق. (٢) يعني عبد الله بن أبيّ وصحبه من المنافقين الذين كانوا يوالون اليهود ويصانعونهم ويناصحونهم. (٣) مرض شكّ ونفاق. (٤) في قلوبهم مرض شكّ وضعف اعتقاد. (٥) يعني

المنافقين. (٦) الذين في قلوبهم مرض فجور، يعني الزّناة. (٧) الذين في قلوبهم مرض شكّ ونفاق قاله أكثر المفسّرين.

وهم عند الواحدي:

(١) أهل الشكّ والنفاق. (٢) هم عبد الله بن أبيّ وأصحابه. (٣) هم قوم أسلموا بمكّة ولم يهاجروا فلما خرجت قريش لحرب رسول الله خرجوا معهم وقالوا: نكون مع أكثر الفتتين. فلما رأوا قلة المسلمين قالوا غرّ هؤلاء دينهم إذ خرجوا مع قلتهم يقاتلون الجمع الكثير. ثمّ قتلوا جميعا مع المشركين. (٤) الذين في قلوبهم مرض شكّ ونفاق. (٥) هم الذين في قلوبهم شكّ ونفاق. (٦) هم أهل النفاق. (٧) الذين في قلوبهم شكّ ونفاق. (٨) الذين في قلوبهم مرض: يعني الزّناة. (٩) المنافقون (١٠) الذين في قلوبهم شكّ..

وهم عند البغوي:

(١) الذين في قلوبهم مرض شكّ ونفاق. (٢) يعني عبد الله بن أبيّ وأصحابه من المنافقين الذين يوالون اليهود. (٣) الذين في قلوبهم شكّ ونفاق. (٤) (الذين في قلوبهم مرض) يعني المنافقين.

وهم عند ابن الجوزي:

(١) الذين في قلوبهم مرض هم: المرض هنا هو الشكّ. إذا هم الشاكّون. (٢) هم المنافقون (٣) قوم كانوا قد تكلموا بالإسلام بمكّة فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر كرها، فلما رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين ارتابوا ونافقوا

وقالوا غرّ هؤلاء دينهم؛ وعدّهم مقاتل فقال: كانوا سبعة قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة، وعليّ بن أميّة بن خلف، والعاص بن منية بن الحجاج، والوليد بن الوليد بن المغيرة والوليد بن عتبة ابن ربيعة. رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين ارتابوا وناقضوا وقالوا غرّ هؤلاء دينهم؛ وعدّهم مقاتل فقال: كانوا سبعة قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة، وعليّ بن أميّة بن خلف، والعاص بن منية بن الحجاج، والوليد بن الوليد بن المغيرة، والوليد بن عتبة بن ربيعة. (٤) المشركون لما رأوا قلة المسلمين قالوا غرّ هؤلاء دينهم (٥) قوم مرتابون لم يظهروا عداوة النَّبِيِّ ﷺ ذكره الماوردي (٦) الذين في قلوبهم شكّ ونفاق (٧) هم الذين في قلوبهم شكّ ونفاق (٨) الذين في قلوبهم كفر (٩) فيه قولان أحدهما أنّه الشُّرك قاله الحسن والثاني التّفاق قاله قتادة. إذا فالذين في قلوبهم مرض هم المشركون. الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون. (١٠) الذي في قلبه مرض أي فجور. (١١) الذين في قلوبهم مرض أي فجور وهم الزّناة. (١٢) فالذين في قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم التّفاق (المنافقون). (١٣) والذين في قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم شكّ. (١٤) الذين في قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم نفاق.. (١٥) الذين في قلوبهم التّفاق. (١٦) الذين في قلوبهم الشكّ. (١٧) الذين في قلوبهم الخلاف.

وهم عند النسفي:

(١) الذين في قلوبهم مرض نفاق (٢) الذين في قلوبهم نفاق.

وهم عند الرازي:

(١) إشارة إلى المنافقين. (٢) جمهور المفسرين قالوا في تفسير قوله: ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ أنهم الكافرون. (٣) يكون الذين في قلوبهم مرض هم المنافقين. (٤) ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾ يعني المنافقين. (٥) الذين في قلوبهم مرض هم قوم من قريش أسلموا وما قوي إسلامهم في قلوبهم ولم يهاجروا. (٦) الذين في قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم الشك والشبهة وهم المنافقون (٧) الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون. (٨) السؤال الثاني: ما مرض القلب؟ الجواب أنه الشك والشبهة وهم المنافقون. (٩) الذين في قلوبهم مرض: هم المنافقون مثل عبدالله بن أبي وأصحابه. (١٠) الذين في قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم الشك والكفر.

وهم عند القرطبي:

(١) المرض عبارة مستعارة للفساد الذي في عقائدهم. وذلك أما أن يكون شكاً ونفاقاً، وأما جحداً وتكديباً. والمعنى: قلوبهم مرضى لخلوها عن العصمة والتوفيق والرعاية والتأييد. (٢) (الذين قلوبهم مرض) شك ونفاق والمراد ابن أبي وأصحابه. (٣) الشاكّون، وهم دون المنافقين، لأنهم حديثو عهد بالإسلام، وفيهم بعض ضعف نيّة (٤) هم الذين في قلوبهم شك وريب ونفاق. (٥) هم الذين في قلوبهم شرك ونفاق^(١). (٦) في قلبه مرض:

١ - كيف يجتمع الشرك والنفاق والمنافق معدود في ظاهره من المسلمين والمشرک ليس معدوداً منهم !؟

في قلبه شكّ ونفاق (٧) في قلبه مرض: في قلبه تشوّق الفجور - وهو الفسق والغزل (٨) (الذين في قلوبهم مرض): هم الذين في قلوبهم شكّ ونفاق. (٩) هم الذين في قلوبهم نفاق وشكّ. (١٠) الذين في صدورهم شكّ ونفاق من منافقي أهل المدينة، الذين ينجمون في مستقبل الزّمان بعد الهجرة [!!].

وهم عند أبي حيّان؛

(١) الذين في قلوبهم هم المنافقون. (٢) الذين في قلوبهم مرض عبد الله بن أبيّ ومن تبعه من المنافقين، أو من مؤمني الخزرج. (٣) المنافقون هم من الأوس والخزرج. (٤) الذين في قلوبهم مرض قوم أسلموا ومنعهم أقرباؤهم من الهجرة فأخرجتهم قريش معها كرها. (٥) منهم قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والحرث بن زمعة بن الأسود وعليّ بن أمية والعاصي بن منبه بن الحجاج. (٦) وقيل والذين في قلوبهم مرض هو من عطف الصفات وهي لموصوف واحد وصفوا بالنّفاق وهو إظهار ما يخفيه من المرض كما قال تعالى في قلوبهم مرض وهم منافقو المدينة. (٧) هم من أهل عسكر الكفّار. (٨) الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون. (٩) الذين في قلوبهم مرض عامة الكفار. (١٠) الذين في قلوبهم المنافقون والشّاكّون. (١١) الذين في قلوبهم مرض: هم ضعفاء الإيمان الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، فهم على حرف (١٢) المرض هو العزل وحبّ الزّنا، ومنه فيطمع الذي في قلبه مرض. فالذين في قلوبهم مرض هم الذين في قلوبهم حبّ الزّنا.

وعند ابن كثير:

(١) (في قلوبهم مرض) قال شكّ أي في قلوبهم شكّ. (٢) (في قلوبهم مرض) يعني الرّياء أي في قلوبهم الرّياء. (٣) (في قلوبهم مرض) نفاق أي في قلوبهم النّفاق (٤) (في قلوبهم مرض) هذا مرض في الدّين وليس مرضاً في الأجساد وهم المنافقون. (٥) هذا الضّرب من النّاس هم المنافقون. (٦) (الذين في قلوبهم مرض) أي شكّ وريب. (٧) (الذين في قلوبهم مرض): المشركون. (٨) هم قوم كانوا من المنافقين بمكّة قالوه يوم بدر. (٩) ناس من أهل مكّة قد تكلموا بالإسلام فخرجوا مع المشركين يوم بدر. (١٠) فئة من قريش قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب وعليّ بن أميّة بن خلف والعاص بن منبه بن الحجاج خرجوا مع قريش من مكّة وهم على الارتباب (١١) هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسُموا منافقين (١٢) الذين في قلوبهم مرض "أي شكّ وشرك وكفر ونفاق"^(١). (١٣) أن يكون في القلوب مرض لازم لها أو قد عرض لها شكّ في الدين (١٤) والذي في قلبه شبهة أو حسكة لضعف حاله فتنفس بها يجده من الوسواس في نفسه لضعف إيمانه وشدة ما هو فيه من ضيق الحال..

١ - هذا من أعجب ما يصادفه الباحث، فإن العبارة الواحدة هنا فسّرت بإربع مفردات متباينة غير مترادفة، إذ

الشكّ غير الشرك والشرك غير النفاق...

وهم عند الثعالبي:

(١) (في قلوبهم مرض) أي في عقائدهم فساد وهم المنافقون (٢) المرض غمهم بظهوره ﷺ (٣) (الذين في قلوبهم مرض) إشارة إلى عبد الله بن أبي ومن تبعه من المنافقين على مذهبه في حماية بني قينقاع. (٤) هم من أهل عسكر الكفار ممن كان الإسلام داخل قلوبهم خرجوا مع المشركين إلى بدر، منهم مكره وغير مكره، فلما أشرفوا على المسلمين ورأوا قلتهم ارتابوا وقالوا مشيرين إلى المسلمين غر هؤلاء دينهم. (٥) يحتمل أن يكون منافقو المدينة لما وصلهم خروج قريش في قوة عظيمة (٦) الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون (٧) هم عامة الكفار (٨) المرض هنا هو الغزل وحب الزنا (٩) (الذين في قلوبهم مرض) هم المنافقون (١٠) الذين في قلوبهم مرض هنا: الصنف المنافق أو الكافر، والمرض الاضطراب وضعف الإيثار.

وعند السيوطي:

(١) يعني المنافقين (٢) الذين في قلوبهم ريبة وشك في أمر الله (٣) هذا مرض في الدين وليس مرضا في الأجساد (٤) هم المنافقون والمرض الشك (٥) عبد الله بن أبي (٦) أناس من المنافقين كانوا يوادون اليهود ويناصحونهم دون المؤمنين (٧) الفئة الذين خرجوا مع قريش احتبسهم أبائهم فخرجوا وهم على الارتياب وهم فئة من قريش مسنون خمسة قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة المخزوميان والحارث بن زمة وعلي بن أمية بن خلف والعاصي بن منه (٨) الذي في قلبه مرض يقول فجور (٩) أصحاب

الفواحش (١٠) كانوا مؤمنين وكان في أنفسهم أن يزنوا (١١) الزنا إن وجدوه عملوه وإن لم يجدوه لم يبتغوه.

وهم عند أبي السعود:

(١) المراد بهم عبد الله بن أبي وأضرابه الذين كانوا يسارعون في موادة اليهود ونصارى نجران (٢) (الذين في قلوبهم مرض): الذين في قلوبهم كفر وسوء عقيدة. (٣) (الذين في قلوبهم مرض): الذين في قلوبهم ضعف في الدين وقيل نفاق وهو الأظهر !! (٤) (الذين قلوبهم مرض): هم المنافقون الذين فصلت أحوالهم الشنيعة. (٥) (الذين في قلوبهم مرض): الذين في قلوبهم شك أو نفاق.

وهم عند الألويسي:

(١) المنافقون (باعتبار قوله ولا شك أن قلوب المنافقين كانت ملاءى من تلك الخبائث) فإنه يدل على أنه يفهم من الذين في قلوبهم مرض المنافقين لا غير. (٢) الذين لم تطمئن قلوبهم بالإيمان بعد وبقي فيها شبهة. (٣) هم فتية من قريش أسلموا بمكة وحبسهم آبائهم حتى خرجوا معهم إلى بدر منهم قيس بن الوليد بن المغيرة والعاص بن منبه بن الحجاج والحرث بن زمعة وأبو قيس بن الفاكه. (٤) المراد بهم المنافقون سواء جعل العطف تفسيراً أو فسر مرض القلوب بالإحـن والعداوات والشك مما هو غير النفاق. (٥) الجامعون بين النفاق ومرض القلوب وقيل يجوز أن يكون الموصول صفة المنافقين. (٦) روي عن الحسن أن هؤلاء المنافقين لم يشهدوا القتال يوم بدر. (٧) وأما الذين

في قلوبهم مرض أي نفاق. (٨) الذين في قلوبهم مرض أي نفاق. (٩) الذين في قلوبهم مرض أي شك ونفاق. (١٠) قيل المراد من الأولين (الذين في قلوبهم مرض) عامة الكفار. (١١) ظاهر العطف أنهم قوم لم يكونوا منافقين. (١٢) هم قوم كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبهة عليهم. (١٣) قيل قوم كانوا ضعفاء الاعتقاد لقرب عهدهم بالإسلام. (١٤) هم قوم كان فيهم ضعف إيمان وقلة ثبات عليه. (١٥) هم أصحاب الفواحش. (١٦) هم قوم مؤمنون كان في أنفسهم أن يزنوا فالمرض حب الزنى. (١٧) الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون وهو المعروف في وصفهم. (١٨) الذين في قلوبهم مرض والمرجعون جميعا هم المنافقون. (١٩) هم منافقون إن تيسر لهم الزنا عملوه وإن لم يتيسر لم يتبعوه ويهتموا بأمره. (٢٠) في قلوبهم مرض أي نفاق وقيل ضعف في الدين.

وهم عند الشنقيطي:

(١) الذين في قلوبهم شك ونفاق. (٢) الذين في قلوبهم مرض: يعني المنافقين.

وهم عند ابن عاشور:

(١) أصحاب تلك الأخلاق الذميمة الناشئة عن النفاق والملازمة له.

(٢) المرض أطلق على النفاق كما تقدّم في قوله تعالى ﴿في قلوبهم مرض﴾ في سورة البقرة [١٠]. (٣) الذين في قلوبهم مرض وهم طائفة غير المنافقين، بل هم من لم يتمكّن الإيمان من قلوبهم، فيقولونه في أنفسهم لما لهم من الشك في

صدق وعد النَّبِيِّ ﷺ لأنهم غير موالين للمنافقين ويجوز أن يتحدثوا به في جماعتهم. (٤) ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ هم المترددون في قبول الإيمان. (٥) ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ هم الذين كانوا مترددين بين الإيمان والكفر فأخلصوا يومئذ النفاق وصمموا عليه". (٦) ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾ هم المبطنون للكفر. (٧) والمرض في القلوب: هو سوء النية في القرآن والرسول ﷺ، وهؤلاء هم الذين لم يزالوا في تردد بين أن يسلموا وأن يبقوا على الشرك مثل الأخنس بن شريق والوليد بن المغيرة، وليس المراد بالذين في قلوبهم مرض "المنافقين" لأن المنافقين ما ظهروا إلا في المدينة بعد الهجرة والآية مكية.

وبجمع هذه التعابير وحذف المكرر منها يكون معنى الذين في قلوبهم مرض ما يلي:

(١) المنافقون - (٢) في قلوبهم ريبة وشك في أمر الله - (٣) عبد الله بن أبي وأصحابه - (٤) في قلوبهم شك.. في قلوبهم نفاق - (٥) في قلوبهم مرض في الدين - (٦) الذين في قلوبهم شك وشرك وكفر ونفاق - (٧) أناس من المنافقين كانوا يوادون اليهود ويناصحونهم دون المؤمنين - (٨) الفئة الذين خرجوا مع قريش - (٩) قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة المخزوميان والحارث بن زمعة وعلي بن أمية بن خلف والعاصي بن منبه - (١٠) الذين في قلوبهم حبّ الفجور - (١١) أصحاب الفواحش - (١٢) كانوا

مؤمنين وكان في أنفسهم أن يزنوا - (١٣) الزناة - شك في الإيـان، وضعف في اعتقادهم إياه. وفصل الطبري فقال: الذي في قلبه ضعف فهو لضعف إيمانه في قلبه إمّا شك في الإسلام منافق، فهو لذلك من أمره يستخفّ بحدود الله، وإمّا متهاون بإتيان الفواحش - (١٤) معتب بن قشير، إذ قال ما قال يوم الخندق - (١٥) المشركون الذين جاءوا لمحاربة النبي ﷺ في بدر - (١٦) يعني الرياء أي في قلوبهم الرياء - (١٧) ناس من أهل مكة - (١٨) منافقو المدينة (١٩) هم من الأوس والخزرج - (٢٠) هم من أهل عسكر الكفار ممن كان الإسلام داخل قلوبهم خرجوا مع المشركين إلى بدر - (٢١) هم عامة الكفار - (٢٢) هم الشاكّون - (٢٣) قوم مُرتابون لم يظهروا عداوة النبي ﷺ ذكره الماوردي - (٢٤) الذين في قلوبهم كفر - (٢٥) الذين في قلوبهم الخلاف - (٢٦) المرض عبارة مستعارة للفساد الذي في عقائدهم - (٢٧) هم دون المنافقين، لأنهم حديثو عهد بالإسلام، وفيهم بعض ضعف نيّة - (٢٨) الذين قلوبهم الفسق والغزل - (٢٩) الذين في صدورهم شك ونفاق من منافقي أهل المدينة، الذين ينجمون في مستقبل الزمان بعد الهجرة [!!] - (٣٠) الذين كانوا يسارعون في موادة اليهود ونصارى نجران - (٣١) الذين في قلوبهم كفر وسوء عقيدة - (٣٢) الذين لم تطمئن قلوبهم بالإيـان بعد وبقي فيها شبهة - (٣٣) عامة الكفار - (٣٤) قوم لم يكونوا منافقين - (٣٥) هم قوم كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبهة عليهم - (٣٦) هم قوم كان فيهم ضعف إيمان وقلة ثبات عليه - (٣٧) هم قوم من قريش أسلموا وما قوي إسلامهم في قلوبهم ولم يهاجروا - (٣٨)

الذين كانوا يوالون اليهود ويصانعونهم ويناصحونهم - (٣٩) الذين في قلوبهم شكّ وضعف اعتقاد - (٤٠) الذي في قلبه شبهة أو حسكة لضعف حاله - (٤١) هم ضعفاء الإيمان الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، فهم على حرف. (٤٢) هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسُمّوا منافقين. (٤٣) هم طائفة غير المنافقين، بل هم من لم يتمكن الإيمان من قلوبهم. (٤٤) هم المترددون في قبول الإيمان. (٤٥) هم الذين لم يزالوا في تردد بين أن يسلموا وأن يبقوا على الشرك مثل الأخنس بن شريق والوليد بن المغيرة، وليس المراد بالذين في قلوبهم مرض "المنافقين" لأنّ المنافقين ما ظهروا إلّا في المدينة بعد الهجرة والآية مكيّة .

وأذكر أنّ الأمر يتعلّق بمصطلح قرآني قسيم لـ (الذين آمنوا) و(الذين أوتوا الكتاب) و(الذين كفروا) كما هو واضح في سورة المدّثر. وبالمناسبة فإنّ قسماً معتبراً من المسلمين - وهم بالملايين - لا يقبلون نظريّة عدالة جميع الصحابة ولا يرتّبون عليها أثراً، بل يعدّونها ممّا افتري على الله تعالى وأُفحم في الدّين إقحاماً استجابة لرغبات الحاكمين من الفقهاء والسلاطين. هؤلاء الرّافضون لنظريّة عدالة جميع الصحابة لا يسمحون لأنفسهم بتجاوز وصيّة رسول الله ﷺ في الثّقيلين، كتاب الله والعترة النبويّة الشّريفة المطهّرة بنصّ الكتاب الكريم، وإنّما يعملون بهما ويعتبرون ما عداهما لا محلّ له من الإعراب؛ ولهذا ليس غريباً أن يكون لهم موقف مخالف من طائفة الذين في قلوبهم مرض، مستوحى من القرآن الكريم وأقوال الأئمّة من أهل بيت النبي ﷺ، ومن ذلك على سبيل

المثال ما جاء في كتاب إلزام الناصب في حديث طويل للإمام الصادق عليه السلام منه : "(فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) * على الحق وهو النداء الأول ، ويرتاب يومئذ الذين في قلوبهم مرض ، والمرض والله عداوتنا، فعند ذلك يتبرؤون منا ويتناولوننا ويقولون : إن المنادي الأول سحر من سحر أهل هذا البيت ، ثم تلا أبو عبد الله (عليه السلام) * (وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر)"^(١). وبناء عليه يكون الذين في قلوبهم مرض هم أعداء أهل البيت النبوي لا غير، ولا بد لنا من تتبع صفات وأعمال الذين في قلوبهم مرض كما جاءت في القرآن الكريم في حياة النبي ﷺ قبل ظهور القول بعدالة جميع الصحابة وقبل ظهور المذاهب الفقهية والكلامية، كيما يكون الحديث عنهم بعيدا عن كل تأثر أو تأثير.

١- إلزام الناصب في إثبات الحجة الغائب - الشيخ علي الزيدي الحائري - ج ١ - ص ٧٥. ومكيال المكارم - ميرزا

محمد تقي الأصفهاني، ص ٢٥٦

الفصل العاشر

صفات وأعمال
الذين في قلوبهم مرض

صفات وأعمال الذين في قلوبهم مرض

لعلَّ أهمَّ ما يلفت انتباه المتمعن في آيات الذكر الحكيم حين الحديث عن الذين في قلوبهم مرض، هو الحسم في أمرهم واليأس من استقامتهم، فلم يترك المولى سبحانه وتعالى للباحث في أمرهم ذرة من الشك والتردد، مع أنه ترك بصيصاً للمنافقين في قوله تعالى (ليعذب المنافقين والمنافقات أو يتوب عليهم). مثل هذا البصيص من الأمل يفهم منه أنَّ من المنافقين والمنافقات من يوفق إلى التوبة إذا صحَّ عزمه وصدقت نيته، وهذا لا يوجد عند الحديث عن (الذين في قلوبهم مرض)، فإنَّ القرآن الكريم حسم أمرهم بألفاظ صريحة، معانيها مقصودة واضحة لا يشك فيها أولو الألباب. ويكفي أنه يقول عنهم إنَّهم أهل رجس وازدادوا رجساً إلى رجسهم وماتوا على الكفر. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾. هذا تصريح من القرآن الكريم أنَّهم ماتوا على الكُفْرِ^(١)، وسورة التوبة آخر ما نزل. فكيف يقول عاقل بعد ذلك إنَّ الصحابة كلَّهم عدول؟ أليس في ذلك تكذيب للقرآن الكريم؟

يقول القرآن الكريم عن الذين في قلوبهم مرض:

١- قال الفخر الرَّازي بخصوص الآية: اعلم أنَّ الله تعالى لما بيَّن أنَّ الذين في قلوبهم مرض يموتون وهم كافرون، وذلك يدلُّ على عذاب الآخرة، بيَّن أنَّهم لا يتخلَّصون في كلِّ عام مرَّة أو مرَّتين عن عذاب الدنيا. (تفسير الرَّازي ج ١٦ ص ١٧٦).

ومن النَّاس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين: فينفي عنهم الإيمان، وهذا يناسب قوله (ماتوا وهم كافرون) ويغني اللَّيْب عن الإطالة في التَّفَحُّص.

ويقول عنهم: يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون: وقد تبيّنت مهارتهم في المخادعة والمراوغة من خلال مناوراتهم، فإتّهم بدأوا أولاً بالطّعن في إمارة أسامة للجيش، فلما فند النبيّ صلى الله عليه وآله زعمهم انتقلوا إلى المرحلة الثانية من المناورة، حيث عسكروا خارج المدينة ورفضوا أن يتقدّموا، وتعلّلوا بأمور لا وزن لها قبال أوامر النبيّ صلى الله عليه وآله عليه وآله عند من يحترم أوامر النبيّ ﷺ.

ويقول عنهم سبحانه وتعالى: في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون. فأثبت لهم الكذب وأتّهم استحقّقوا زيادة المرض إلى مرضهم سواء كانت الجملة - فزادهم الله مرضاً - دعاء أم غيره.

وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون:

وهنا يدّعي الذين في قلوبهم مرض أنّهم مصلحون لا غير، مع أنّهم يدعون إلى ترك الإفساد في الأرض، والمفسدون في الأرض ملعونون في سورة محمد كما سيأتي إن شاء الله تعالى. وقد قصد بهم في سورة محمد الذين في قلوبهم مرض أيضاً. وهذا ممّا يثبت أفئدة المهتدين ويذر المرتابين في ريبهم يتردّدون.

ألا إنّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون: وهذا تفنيد آخر لزعمهم الفاسد، وتأكيد لنسبة الفساد إليهم وأتّهم أهله.

وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء إلا إثمهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون.

يحكمون على المؤمنين بالسفه وهم أهل السفه بشهادة الحق عليهم. وإذا كان السفه لا يستحق أن يستقل بالمال، فكيف يصح أن يستقل بالأمور المهمة في الإسلام كالقضاء، ونقل العلم، والخلافة التي هي عهد الله سبحانه وتعالى؟! وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون:

هؤلاء كان لهم شياطين يتعاملون معهم ويتظاهرون بالصلاح بين المؤمنين، وسواء كان شياطينهم من الجن أو الإنس فإن ذلك لا يغير شيئا، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿شياطين الجن والإنس يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا﴾. ويقول ﴿ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا﴾. الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون: يمدّهم في طغيانهم ويذرهم وما اختاروه من العتو حتى لا يكون لهم حجة يوم القيامة ولا يؤذن لهم فيعتذرون. أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين (البقرة ١٦).

ومن صفاتهم:

فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين [المائدة ٥٢].

وهذه المسارعة إلى الدفاع عن أعداء الله كاشفة عن انتفاء الولاية الإلهية عندهم، لأنّه لا يمكن الجمع بين ولاية أولياء الله تعالى وولاية أعدائه. والقرآن الكريم صريح في الدّعوة إلى البراءة من أعداء الدّين حتى يؤمنوا. فما داموا على كفرهم لا يحقّ لمؤمن أن يتّخذهم أولياء. وما تعلّل به الذين في قلوبهم مرض يؤكد أنّ الإيمان لم يلامس قلوبهم، لأنّهم يخشون الدّوائر، وكأنّ هذه الدّوائر تجاوزت سلطان الله تعالى وقدرته. والذي يخاف الدّوائر إنّما أتى من خلوّ قلبه من التقوى وإلا فإنّ الله تعالى بيده ملكوت كل شيء، ولا بدّ من الابتلاء ليحصل التّمييز والتمحيص وتمييز الصّادق من الكاذب. وقد أخبر الله سبحانه وتعالى المؤمنين أنّه مبتليهم ﴿ولنبلوكنم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثّمرات﴾ فلا مفرّ من البلاء. والبلاء هو الذي يزيد المؤمن إيماناً وتمسّكاً بدينه وتعلّقاً بمولاه سبحانه وتعالى. أمّا الذي يحرص على الرّخاء ويريد اجتناب البلاء على طول خطّ السّير فإنّما هو من الذين رضوا بالحياة الدّنيا واطمأنّوا بها، يبحث عن راحة نفسه لا عن مجاهدتها. وقد بشرّ الله تعالى الصّابرين في مواطن عديدة من القرآن الكريم، وإنّما يكون الصّبر مع البلاء. وفي السّيرة النّبويّة صور واضحة عن أولئك الذين كانوا يبحثون عن راحة أنفسهم حتى بلغ بهم الأمر أن يفروا من المعارك ويتركوا النّبىّ ﷺ بين الأعداء، فراراً من القتل في سبيل الله، بعد أن سمعوا قول الله تعالى ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا﴾، فلو كانوا صادقين في طلب الشّهادة لما فروا منها حينما تيسّرت، ولو صدقوا الله لكان خيراً لهم.

وقد كانت المسارعة في الدفاع عن أعداء الله في زمان النَّبِيِّ ﷺ، وبقيت بعده، ومورست بأشكال لا يشك فيها منصف. فهذا عثمان يشفع في أعداء الله تعالى من أمثال عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي ارتدَّ والتحق بالمشركين، ووشى ببعض الصحابة فنالهم من الأذى مانالهم، وأهدر النَّبِيُّ ﷺ دمه يوم فتح مكة حتى لو وُجد متعلقاً بأستار الكعبة. لكنَّ عثمان غيَّبه عن جيش المسلمين بعد أن علم حرص النَّبِيِّ ﷺ على قتله، ثمَّ جاء به بعد استتباب الأمر، وشفع فيه بكلِّ وقاحة عند من أهدر دمه!. وقد حاول نفس الأمر أيضاً بخصوص الحكم بن أبي العاص الأموي الذي نفاه النَّبِيُّ ﷺ، فحيل بينه وبين ما يشتهي؛ فلما آل أمر الخلافة إليه كان من أوَّل ما فعل أنَّه أعاد الطَّريد الملعون^(١) إلى المدينة وأغدق عليه الأموال.

١ - حديث لعن الحكم بن أبي العاص أشهر من نار على علم، وقال ابن حجر المهيتمي في الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة (ج ٢/ ص ٥٢٧): ومن أشدَّ الناس بغضاً لأهل البيت مروان بن الحكم وكأنَّ هذا هو سرَّ الحديث الذي صحَّحه الحاكم أنَّ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال كان لا يولد لأحد مولود إلا أتى به = النبي صلى الله عليه وسلم فيدعو له فأدخل عليه مروان بن الحكم فقال هذا الوزغ ابن الوزغ الملعون ابن الملعون. وروى بعده بسير عن محمد بن زيد قال لما بايع معاوية رضي الله عنه لابنه يزيد قال مروان سنة أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما فقال عبد الرحمن بن أبي بكر بل سنة هرقل وقيصر فقال له مروان أنت الذي أنزل الله فيك والذي قال لوالديه أفَّ لكما (الأحقاف ١٧) فبلغ ذلك عائشة رضي الله عنها فقالت كذب والله ما هو به ولكنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أبا مروان ومروان في صلبه. ثم روى عن عمرو بن مرة الجهني وكانت له صحبة رضي الله تعالى عنه أنَّ الحكم بن أبي العاص استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرف صوته فقال " انظروا له عليه لعنة الله وعلى من يخرج من صلبه إلا المؤمن منهم وقليل ما هم، يشرفون في الدنيا ويصغرون في الآخرة، ذوو مكر وخديعة يعطون في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق". وعلَّق ابن حجر على ذلك بكلام يدافع فيه عن الحكم كما تقتضيه عدالة جميع الصحابة.

وقال زيني دحلان في السيرة الحلبية (ج ١/ ص ٥٠٩) نقلاً عن ابن عبد البر :

ومن صفات الذين في قلوبهم مرض أنهم لا يتورعون عن ممارسة الإحباط وتثبيط العزائم:

إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم [الأ نفال ٤٩]. وهذا القول منهم مناف للتوكل كما تدل عليه تنمة الآية. ولو كانوا صادقين لقالوا مثل ما قال الذين يظنون أنهم ملأوا الله "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله". فالذي قاله الذين في

" ومن استهزاء الحكم بن العاص أنه كان صلى الله عليه وسلم يمشى ذات يوم وهو خلفه يخلج بغمه وأنه يسخر بالنبي صلى الله عليه وسلم فالتفت إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال له كن كذلك فكان كذلك أي كما تقدم نظير ذلك لأبي جهل. واستمر الحكم بن العاص يخلج بأنفه وغمه بعد أن مكث شهرا مغشيا عليه حتى مات. أسلم يوم فتح مكة وكان في إسلامه شيء. أطلع على رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب بيته وهو عند بعض نساائه بالمدينة [!] فخرج إليه صلى الله عليه وسلم بالعنزة أي وقيل بمدرى في يده والمدرى كالمسلة يفرق به شعر الرأس وقال من عذيري من هذه الوزغة لو أدركته لفقات عينه ولعنه وما ولد وغزبه عن المدينة إلى الطائف فلم يزل حتى ولي ابن أخيه عثمان رضي الله تعالى عنه الخلافة فدخل المدينة بعد أن سأل عثمان أبا بكر في ذلك فقال لا أحل عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم سأل عمر لما ولي الخلافة فقال له مثل ذلك ولما أدخله عثمان نعم عليه الصحابة بسبب ذلك فقال أنا كنت شفعت فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعدني برده أي أني أردته ولا ينافي ذلك سؤال عثمان لأبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهم في ذلك كما لا يخفى لأنه يحتمل أن يرده عثمان إما بنفسه أو بسؤاله وسيأتي ذلك في جملة أمور نقيها عليه الصحابة. وعن هند بن خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بالحكم فجعل يغمز بالنبي صلى الله عليه وسلم فرآه فقال اللهم اجعل به وزعا فرجف وأرتعش مكانه والوزغ الارتعاش وفي رواية فما قام حتى ارتعش وعن الواقدي استأذن الحكم بن العاص على رسول الله صلى الله عليه وسلم فغفر صوته فقال ائذنوا له لعنه الله ومن يخرج من صلبه إلا المؤمنين منهم وقليل ما هم، ذو مكر وخديعة، يعطون الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق. وكان لا يولد لأحد ولد بالمدينة إلا أتى به النبي صلى الله عليه وسلم فأتي إليه بمروان لما ولد فقال هو الوزغ ابن الوزغ الملعون ابن الملعون وعلى هذا فهو صحابي إن ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم رآه لأنه يحتمل أنه أتى به إليه صلى الله عليه وسلم فلم يأذن بإدخاله عليه وربها يدل ذلك قوله هو الوزغ إلى آخره

قلوبهم مرض لا يكون ناشئاً عن جهل، لأن المقام لا يحتمل ذلك، والإنسان في حالة الحرب يحتاج إلى تشجيع وتأييد ومساندة، والكلمة سلاح في الميدان، لذلك كان الأبطال يرتجزون في المعارك، وكان الخطباء يشدون همم المقاتلين بالخطب الحماسية التي تلهب الوجدان وتحرك في الإنسان الإحساس بالعزة والكرامة. وسياسة الدعايات والأراجيف في الحرب أمر معلوم، فكم جيش هددت أركانه وفتت في أعضاده فانهزموا في الوجدان قبل أن ينهزموا في الميدان، ولذلك كان موقف القرآن الكريم من ظاهرة الإرجاف حاسماً حازماً "لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم".

ومن صفاتهم وعلاماتهم أنهم أصحاب رجس وأنهم أصحاب سوء خاتمة يموتون على الكفر:

وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون [النوبة ١٢٥].

ومن صفاتهم وعلاماتهم أنهم لا يتوبون ولا تنفع معهم الموعظة: أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون. [النوبة ١٢٦].

ومن صفاتهم وعلاماتهم أنهم يتعجبون إذا نزل قرآن يتحدث عن تفاصيل دقيقة لم يحضرها غيرهم، وينظر بعضهم إلى بعض يتساءلون كأنها لا ارتباط

لِلنَّبِيِّ ﷺ بالغيب، ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ .
 ومن صفاتهم وعلاماتهم أَنَّ قُلُوبَهُمْ حُلَّتْ لَمَّا يَلْقَى الشَّيْطَانُ:
 ﴿لِيَجْعَلَ مَا يَلْقَى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [الحج ٥٣] .

ومن صفاتهم وعلاماتهم أَنَّهُمْ يَقْبَلُونَ الْحَقَّ إِذَا كَانَ فِي صَالِحِهِمْ وَيَرْفُضُونَهُ إِذَا كَانَ عَلَيْهِمْ لَا لَهُمْ، وَإِنْ كَانَتِ الشَّرُوطُ وَاحِدَةً، عَلِمَ أَنَّ حُكْمَ الْأَمْثَالِ فِي مَا يَجُوزُ وَمَا لَا يَجُوزُ وَاحِدٌ ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ . وَإِذَا دَعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيُحْكَمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ . وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَخِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٠﴾ . وَمَنْ أَعْجَبَ مَا تَتَجَلَّى فِيهِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ قَضِيَّةَ الْكِتَابِ الَّذِي أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ كِتَابَتَهُ لِلْأُمَّةِ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ عَلَى فِرَاشِ الْمَوْتِ، وَكَانَ يُسْأَلُ عَنْ جَيْشِ أَسَامَةِ الْمَرَّةِ بَعْدَ الْمَرَّةِ، وَأَمَرَ أَنْ يُؤْتَى لَهُ بِكِتْفٍ وَدَوَاةٍ لِيَكْتُبَ لِلْأُمَّةِ كِتَاباً يَعِصِمُهَا مِنَ الضَّلَالِ، فَرَعَمُوا أَنَّهُ يَهْجُرُ . لَكِنْ حِينَمَا كَانَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى فِرَاشِ الْمَوْتِ وَأَمَرَ أَنْ يُؤْتَى لَهُ كَيْ يَكْتُبَ حَصْلَ الْأَنْصِياعِ التَّامِّ وَلَمْ يَعْتَرِضْ أَحَدٌ . بَلْ إِنَّ الشَّخْصَ الَّذِي زَعَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَهْجُرُ هُوَ نَفْسُهُ طَلَبَ مِنَ النَّاسِ الْإِنْصَاتَ لِقِرَاءَةِ الْكِتَابِ لِأَنَّهُ كَتَابَ مَنْ طَرَفَ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَئِنْ

الخليفة أخبر أنّه لا يألوهم نصحا. هذه المرّة لم يقولوا حسبنا كتاب الله ، مع أنّ الظروف واحدة، بل صار كتاب أبي بكر ضروريّاً إلى جنب كتاب الله تعالى. لقد حيرت هذه الواقعة كثيراً من المسلمين، وتمحّل لها الكلاميون والمفسّرون وجوها من القول لا تستحقّ الذّكر، وانتصروا للباطل فتابعوا مرضى القلوب، واقتدوا بهم فكانوا هم أيضاً من الذين إن يكن لهم الحقّ يأتوا إليه مذعنين. والعجب كلّ العجب من الذين يذكرون ما حدث ولا يعلّقون عليه بكلمة واحدة؛ وهذه أمثلة لذلك:

روى البخاري في صحيحه ما يلي: "عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال لما اشتدّ بالنبيّ ﷺ وجعه قال اتّوني بكتاب اكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده. قال عمر إنّ النبيّ ﷺ غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا. فاختلفوا وكثر اللّغط قال قوموا عني ولا ينبغي عندي التّنازع. فخرج ابن عبّاس يقول إنّ الرّزئة كلّ الرّزئة ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتابة الكتاب"^(١).

وفي رواية: "بكى ابن عبّاس حتّى خضب دمه الحصباء فقال: اشتدّ برسول الله ﷺ وجعه فقال: اتّوني بكتاب اكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده أبداً. فتنازعوا ولا ينبغي عند نبيّ التّنازع فقالوا هجر رسول الله ﷺ"^(٢).

١ - صحيح البخاري ج ١ ص ٣٦-٣٧: (كتاب العلم - باب كتابة العلم) .

٢ - صحيح البخاري ج ٥ ص ١٣٧. ورواه مسلم أيضاً في كتاب الوصيّة - باب ترك الوصيّة.

ولا يخفى على المتأمل تلاعب البخاريّ بالعبارات محافظة منه على وجهة الخليفة ومنزلته، فإنّه في كلا الحديثين تجنّب أن يصرّح بقول عمر على الوجه الذي ينبغي، ويقول في الحديث الأوّل قال عمر إنّ النّبيّ ﷺ غلب عليه الوجد وعندنا كتاب الله، ثمّ يتبعه بقوله فاختلفوا وكثر اللّغط.. وهذه مساهمة واضحة من البخاريّ في التّحريف والتّزييف وإخفاء الحقائق وكتماها؛ وإلّا فإنّ من دواعي الأمانة العلميّة أن يذكر البخاريّ سبب الاختلاف ونتيجة الاختلاف وموقف الشّرع من القولة التي قالها عمر. ولكنّ البخاريّ يعلم أنّ السّكوت أفضل وأسلم، وإلا تعرّض لما تعرّض له الحاكم والنّسائيّ والحسكافي وغيرهم. والبخاريّ يعلم أنّ مروان بن الحكم ملعون على لسان رسول الله ﷺ، ولكنّه لا يرى بأساً في الرواية عنه^(١).

وفي تاريخ الطبريّ: "... ابن يحيى عن عثمان القرقيسانيّ قال حدّثنا سفيان بن عيينة عن إسماعيل عن قيس قال رأيت عمر بن الخطّاب وهو يجلس والنّاس معه ويده جريدة وهو يقول أيّها النّاس اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله ﷺ إنّهُ يقول إنّّي لم ألكم نصحاً. قال ومعه مولى لأبي بكر يقال له شديد معه الصحيفة التي فيها استخلاف عمر"^(٢).

١ - حديث لعن مروان ذكره الحاكم في المُستدرك (مستدرك الحاكم ج ٤ ص ٤٧٩) وابن حجر الهيتمي (في الصواعق المحرقة ص ١٠٨) وغيرهما، وإنّما تركه الشّيخان البخاريّ ومسلم كما تركا كثيراً مما يقدح في الحاكمين من بني أميّة وبني العبّاس.

٢ - تاريخ الطبريّ ج ٢ ص ٦١٨.

فهل كان رسول الله يألو الأُمَّة نصحاً؟!

لماذا لم يقل عمر بن الخطاب "إنَّ أبا بكر غلب عليه الوجع وعندنا كتاب الله . حسبنا كتاب الله "؟!

وقال ابن قتيبة : "[...] قال : فخرجوا من عنده ، ثم أرسل إلى عمر فقال : يا عمر ، أحبك محبّ ، وأبغضك مبغض ، وقديما يحبّ الشرّ ، ويبغض الخير . فقال عمر : لا حاجة لي بها!! ، فقال أبو بكر : لكن بها إليك حاجة ، والله ما حبوتك بها ، ولكن حبوتك بك . ثم قال : خذ هذا الكتاب واخرج به إلى الناس!!] ، واخبرهم أنّه عهدي ، وسلهم عن سمعهم وطاعتهم . فخرج عمر بالكتاب وأعلمهم ، فقالوا : سمعا وطاعة ، فقال له رجل : ما في الكتاب يا أبا حفص ؟ قال : لا أدري ، ولكنّي أوّل من سمع وأطاع . قال : لكنّي والله أدري ما فيه : أمّرتُهُ عام أوّل ، وأمّرك العام^(١)!

يقول عمر "لا أدري ما في الكتاب" فهل هذا صحيح؟!

أوّل من أطاع أبا بكر هو أوّل من عصى رسول الله ﷺ ، مع أنّ ظروف كتابة الكتاب واحدة، والنبي ﷺ يوحى إليه وأبو بكر لا يوحى إليه، والنبي ﷺ لم

١ - الإمامة والسياسة - ابن قتيبة الدينوري ج ١ ص ٢٥ . وهذا ينسجم تماما مع قول الإمام علي عليه السلام لعمر يوم السقيفة "احلب حلبا يا عمر لك شطره اشد له اليوم أمره ليرد إليك غدا" كما في الإمامة والسياسة لابن قتيبة - تحقيق الشيري - (ج ١ ص ٢٩) ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج ٢ ص ٥) والسقيفة وفدك للجوهرى (ص ٦٢) .

يسجد لصنم قطّ وأبو بكر عبد الصّنم أربعين سنة! لكن عمر متيقّن من مضمون كتاب أبي بكر، وغيره أيضا يعرف مضمونه كما يشير إليه كلام الرّجل الذي قال له " أمّرتَه عام أوّل وأمرَك العام ". وكتاب رسول الله صلّى الله عليه وآله ليس فيه تأمير لعمر ولا لأبي بكر، وكيف يتصوّر عاقل ذلك والنبيّ صلّى الله عليه وآله قد عينهما جنديّين بسيطين في جيش على رأسه أسامة؟ لو كان رسول الله ﷺ يؤهّل أحدهما للخلافة لما أمّر عليهما جميعا أسامة بن زيد. فعمر يذعن ويسمع ويطيع للكتاب الذي فيه تأميره على المسلمين، وأمّا الكتاب الذي ليس فيه تأميره فصاحبه يهجر حتّى لو كان رسول الله ﷺ الذي ما ينطق عن الهوى.

ومن صفات الذين في قلوبهم مرض وعلاماتهم:

* التكذيب بوعد الله ورسوله: يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلّا غورا. [الأحزاب ١٢]

* الكذب لتبرير الفرار من الجهاد: وإذا قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبيّ يقولون إنّ بيوتنا عورة وما هي بعورة إنّ يريدون إلّا فرارا. [الأحزاب ١٣].

* طلب الفتنة: ولو دخلت عليهم من أقطارها ثمّ سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلّا يسيرا. [الأحزاب ١٤].

* عدم الوفاء بالعهد: ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار وكان عهد الله مسئولا. [الأحزاب ١٥].

﴿التَّعْوِيقَ وَالْجَبْنَ فِي مَوَاطِنِ الْبَأْسِ: قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْوِقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلْمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب ١٨]

﴿ غِيبة المؤمنين باللسنة حداد: أشحّة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم باللسنة حداد أشحّة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا﴾ [الأحزاب ١٩].

﴿ تجنب القتال: وإن يأت الأحزاب يودّوا لو أتهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا﴾ [أحزاب ٢٠].

ومن صفاتهم وعلاماتهم :

﴿ الجبن والخور: فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر الغشيّ عليه من الموت فأولى لهم.

﴿ الإفساد في الأرض وقطيعة الرحم: فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم. أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم.

﴿ عدم تدبّر القرآن: أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها .

﴿ التواطؤ والتآمر على المؤمنين مع الذين كرهوا ما أنزل الله : ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم .

﴿ اتّباع ما يسخط الله تعالى: ذلك بأنهم اتّبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم .

* في صدورهم أضغان على المؤمنين: أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم .

* يتكلمون بملحون القول : ولتعرفنهم في لحن القول .
ومن صفاتهم وعلاماتهم أنهم :

* يرتابون ويدومون على ارتيابهم، حتى في ما يتيقنه أهل الكتاب . ومع أن القرآن الكريم نبّه إلى ضلال أهل الكتاب وبُعدهم عن الحقّ وممارستهم لفنون التضليل، إلّا أنّه في الآية من سورة المدّثر جعل الهدف من المثل المضروب بخصوص خزنة النّار من الملائكة أن لا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون، هذا وقد زعم بعض المفسّرين أنّهم المؤمنون منهم الذين أسلموا وهو كما ترى ينمّ عن جهل أو تجاهل، وليس ذلك منه إلّا فراراً من الحقّ ومحاولة يائسة للمحافظة على عدالة جميع الصّحابة المستلزمة لتكذيب القرآن الكريم الشّاهد على عدد كبير منهم أنّهم " ماتوا وهم كافرون" .

﴿وما جعلنا أصحاب النّار إلّا ملائكة وما جعلنا عدّتهم إلّا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضللّ الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربّك إلّا هو وما هي إلّا ذكرى للبشر﴾ [المدّثر ٣١] .

حرب لله ورسوله

سبق ذكر الحديث الذي رواه الطبراني، والذي يقول فيه عمار بن ياسر رضي الله عنهما عن جماعة من الصحابة، إنهم اثنا عشر^(١) وإنهم حرب لله ورسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. هذا الحديث^(٢) إذا ضُمَّ إليه الحديث التالي تنكشف حقيقة طالما عتم عليها المحدثون والمفسرون، واختلفوا في ما اختلفوا مصالحت وهمة، محاولين بذلك التعتيم والاختلاق لإصلاح ما أفسد الدهر. والحديث المقصود هو حديث "حربكم حربي وسلمكم سلمي"^(٣). قال الطبراني: "حدثنا محمد بن راشد حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا حسين بن محمد حدثنا سليمان بن قرم عن أبي الجحاف عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن صبيح مولى أم سلمة رضي الله عنها عن جدّه عن زيد بن أرقم قال مرّ النبي ﷺ على بيت فيه فاطمة وعليّ وحسن وحسين رضي الله عنهم فقال أنا حرب لمن حاربتهم وسلم لمن سالمتم. والحديث رقم ٢٦٢١: - حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثني أبي حدثنا تليد بن سليمان عن أبي الجحاف عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال نظر النبي ﷺ إلى عليّ والحسن والحسين وفاطمة رضي الله عنهم وقال "أنا حرب لمن

١ - للتأمل: ذكر (الذين في قلوبهم مرض) في القرآن الكريم اثنا عشرة مرة (١٢) وهو ما يطابق العدد المذكور في حديث عمار عن جماعة العقبة الذين قال عنهم حرب لله ورسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

٢ - الحديث في المعجم الكبير، الطبراني، ج ٣ ص ١٦٦.

٣ - الحديث مروى أيضاً بلفظ "أنا حرب لمن حاربتهم وسلم لمن سالمتم".

حاربكم وسلم لمن سالمكم" (١).

فالذين هجموا على بيت فاطمة عليها السلام، والذين حاربوا عليًا عليه السلام، والذين حاربوا الحسن والحسين عليهما السلام، كلهم داخلون في الحديث السابق، وهم بمقتضى ذلك محاربون للنبي ﷺ بعد إسلامهم، ولا ينفعهم اضطراب المبررين والمعدّرين والمصوّبين، لأن الله تعالى لا ينتمي إلى أية فرقة من الفرق، ولا تُضرب له الأمثال، وإنما هو مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون، ولا تبديل لكلمات الله.



أحاديث في أذى النبي صلى الله عليه وآله

في المعجم الكبير (تحت رقم ٢٦٢٧): "حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن صالح الأسدي حدثنا نافع بن هرم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال بينا رسول الله ﷺ راقد في بعض بيوته على قفاه إذ جاء الحسن يدرج حتى قعد على صدر النبي ﷺ، ثم بال على صدره، فجئت أميطة عنه فاستنبه رسول الله ﷺ فقال: ويحك يا أنس دع ثمرة فؤادي فإن من أذى هذا فقد آذاني ومن آذاني فقد أذى الله، ثم دعا رسول الله ﷺ بقاء فصبّه على البول صبا فقال: يصبّ على بول الغلام ويغسل بول الجارية" (٢).

١ - المعجم الكبير، الطبراني، ج ٣ ص ٤٠.

٢ - المعجم الكبير، الطبراني، ج ٣ ص ٤٢.

وفي المستدرک: "حدّثنا أبو العباس محمّد بن يعقوب حدّثنا أبو زرعة الدمشقيّ حدّثنا محمّد بن خالد الوهبيّ حدّثنا محمد بن إسحاق وأخبرناه أحمد بن جعفر البزار حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدّثني أبي حدّثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد حدّثنا أبي عن محمد بن إسحاق عن إبان بن صالح عن الفضل بن معقل بن يسار عن عبد الله بن نيار الأسلميّ عن عمرو بن شاس الأسلميّ وكان من أصحاب الحديبية قال خرجنا مع عليّ رضي الله عنه إلى اليمن فجفاني في سفره ذلك حتّى وجدت في نفسي، فلمّا قدمت أظهرت شكايته في المسجد حتّى بلغ ذلك رسول الله ﷺ. قال فدخلت المسجد ذات غداة ورسول الله ﷺ في ناس من أصحابه فلمّا رأيّ أبدي عينيّه قال يقول حدّد إليّ النظر حتّى إذا جلست قال يا عمرو أما والله لقد آذيتني. فقلت أعوذ بالله أن أؤذيك يا رسول الله. قال بلى من آذى عليّاً فقد آذاني. هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" (١).

وحديث من آذى عليّاً موجود في مسند أحمد، ج ٣ ص ٤٨٣، ومسند البزار ج ٣ ص ٣٦٦، والأحاديث المختارة، ج ٣ ص ٢٦٧ و ٢٦٨، وصحيح ابن حبان ج ١٥ ص ٣٦٥، وموارد الظمان، ج ١ ص ٥٤٣، ومصنّف ابن أبي شيبة، ج ٦ ص ٣٧١، ومسند أبي يعلى، ج ٢ ص ١٠٩، ومسند الحارث (زوائد الهيثمي)، ج ٢ ص ٩٠٤، ومسند الروياني، ج ٢ ص ٤٥١، والمطالب العالية، ج ١٦

١- المستدرک على الصحيحين، ج ٣ ص ١٣١، لحديث رقم ٤٦١٩.

ص ١٢٩ و ص ١٣٩ ، و مجمع الزوائد ج ٩ / ص ١٢٩ .

تصريح صحابة وتابعين ببغض الحسن والحسين

الحديث رقم ٢٦٥٦ في المعجم الكبير^(١): حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ إِسْحَاقَ التَّسْتَرِيِّ حَدَّثَنَا يَوْسُفُ بْنُ سَلْمَانَ الْمَازِنِيَّ حَدَّثَنَا حَاتِمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا سَعْدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ كَعْبِ بْنِ عَجْرَةَ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ أَبِي حَبِيبَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ مَرْوَانَ بِالْحَكَمِ أَتَى أَبَا هُرَيْرَةَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ فَقَالَ مَرْوَانُ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: مَا وَجَدْتَ عَلَيْكَ فِي شَيْءٍ مِنْذُ أَصْطَحَبْنَا إِلَّا فِي حَبِّكَ لِلْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ [!] قَالَ فَتَحَفَّزَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَجَلَسَ فَقَالَ أَشْهَدُ لَخُرْجَانَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَوْتَ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ وَهُمَا يَبْكِيَانِ وَهُمَا مَعَ أُمَّهُمَا فَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أَتَاهُمَا، فَسَمِعْتَهُ يَقُولُ لَهَا: مَا شَأْنُ ابْنَيْ فَقَالَتْ: الْعَطَشُ. قَالَ فَاخْلَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى شَنْةٍ يَبْتَغِي فِيهَا مَاءً وَكَانَ الْمَاءُ يَوْمَئِذٍ أَغْدَارًا وَالنَّاسُ يَرِيدُونَ الْمَاءَ، فَنَادَى هَلْ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَعَهُ مَاءٌ؟ فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إِلَّا أَخْلَفَ بِيَدِهِ يَبْتَغِي الْمَاءَ فِي شَنْةٍ فَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا مِنْهُمْ قِطْرَةً. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَاوِلْنِي أَحَدَهُمَا؛ فَنَاولْتُهُ إِيَّاهُ مِنْ تَحْتِ الْخَدْرِ، فَرَأَيْتُ بَيَاضَ ذِرَاعَيْهَا حِينَ نَاولْتُهُ، فَأَخَذَهُ فَضَمَّهُ إِلَى صَدْرِهِ وَهُوَ يَطْغُو مَا يَسْكُتُ، فَأَدْلَعَ لَهُ لِسَانَهُ فَجَعَلَ يَمصُّهُ حَتَّى هَدَأَ أَوْ سَكَنَ، فَلَمْ أَسْمَعْ لَهُ بَكَاءَ

١ - المعجم الكبير، الطبراني، ج ٣ ص ٥٠.

والآخر يبكي كما هو ما يسكت. فقال: ناوليني الآخر فناولته إيّاه. ففعل به كذلك، فسكتا، فما أسمع لهما صوتا، ثم قال سيروا؛ فصدعنا يمينا وشمالا عن الطعائن حتّى لقيناه على قارعة الطريق. فأنا لا أحبّ هذين وقد رأيت هذا من رسول الله ﷺ؟! ^(١).

ومروان هذا، الذي يعتب على أبي هريرة في حبه للحسن والحسين ^(٢) قد صار خليفة فيما بعد، بيده مقاليد الأمور في دولة طويلة عريضة، وهو يصّرّح ببغض من يصليّ عليهما في صلاته إن كان صلى في عمره مرّة واحدة، يقول ما قال عن سيدي شباب أهل الجنة بكلّ وقاحة، مع أنّ الله تعالى يقول (قل لا أسألكم عليه أجرا إلاّ المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور).



الضغائن

الأضغان و الضغائن بمعنى. قال ابن منظور في اللسان: " ضغن الضغن

١ - الحديث أيضاً في مجمع الزوائد للهيتمي، ج ٩ ص ١٨٠، وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، ج ٢ ص ٢٥٨، وتهذيب الكمال للمزّي، ج ٦ ص ٢٣١، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، ج ١٣ ص ٢٢٢، والخصائص الكبرى للسيوطي، ج ١ ص ١٠٦.

٢ - لم يكن أبو هريرة صادقا في ما يدعيه من حبّ الحسنين، فإنه كان يلعن عليّاً عليه السلام وهو أميرٌ لمعاوية على المدينة. فلو كان يحبّها لما فعل ما يؤذيها. ومات أبو هريرة مصرّاً على لعن علي بن أبي طالب عليه السلام، لم يثبت أنّه تاب منه أو اعتذر.

و الضَّغْنُ الحقد، والجمع أضغان، وكذلك الضغينة، وجمعها الضغائن، ومنه حديث العباس إنا لنعرف الضَّغائن في وجوه أقوام^(١).

قال الجوهري: "ثم قالت [أي فاطمة عليها السلام] أنا فاطمة بنت محمد أقول عودا على بدء، وما أقول ذلك سرفا ولا شططا، فاسمعوا إليّ بأسماع واعية وقلوب راعية؛ (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) فإن تعزوه تجدوه أبي دون نسائكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم، فبلغ الرسالة صادعا بالرسالة ناكبا عن سنن مدرجة المشركين، ضاربا لشجهم آخذا بأكظامهم، داعيا إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة. يجزّ الأَصنام، وينكت المهام حتى انهزم الجمع وولّوا الدّبر، وحتى تفرّى الليل عن صبحه، وأسفر الحقّ عن محصنه، ونطق زعيم الدّين وخرست شقاشق الشّياطين، وفهتّم بكلمة الإخلاص مع النّفر البيض الخماص (الذين اذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيرا) وكتمت على شفا حفرة من النّار فأنقذكم منها مذقة الشّارب^(٢) ولهزة الطّامع، دقة العجلان، وموطأة الأقدام، تشربون الطّراق وتقتاتون القدّ، أذلة خاشعين تخافون أن يتخطّفكم النّاس من حولكم، فأنقذكم الله بنبيّه ﷺ بعد اللّتيا والتي، وبعد أن مني بهم الرّجال وذؤبان العرب كلّما حشوا نارا للحرب أطفأها الله، ونجم قرن الضّلالة ونفر فاغر من المشركين قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفى حتى يطأ

١ - لسان العرب، ج ١٣ ص ٢٥٥.

٢ - في لسان العرب، ج ٤ ص ٣٩١: المذقات جمع مذقة اللبن المخلوط بالماء.

صماخها بأخصه، ويخمد لهبها بسيفه، مكدودا دؤبا في ذات الله، وأنتم في رفهينة ورفغينة وادعون آمنون تتوَكَّفون الأخبار وتنكصون عن النزال، فلما اختار الله لنبيه ﷺ دار أنبيائه وأتمّ عليه ما وعده، ظهرت حسيكة النفاق^(١)، وسمل جلباب الإسلام فنطق كاظم، ونبغ خامل، وهدر فينق الكفر، يخطر في عرصاتكم، فأطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفا بكم فوجدكم لدعائه مستجيبين، وللغرة فيه ملاحظين، واستنهضكم فوجدكم خفافا، واحثكم فوجدكم غضابا، هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لما يندمل فوسمتم غير إيلكم، وأوردتموها شربا ليس لكم، والرّسول لما يقبر بدار، أزعمتم خوف الفتنة (ألا في الفتنة سقطوا وإنّ جهنّم لمحيطة بالكافرين)^(٢).

وجاء في مسند أبي يعلى: "[...] حدثنا الفضل بن عميرة أبو قتيبة القيسي قال حدثني ميمون الكردي أبو نصير عن أبي عثمان عن عليّ بن أبي طالب قال بينما رسول الله ﷺ أخذ بيدي، ونحن نمشي في بعض سكك المدينة، إذ أتينا على حديقة فقلت: يا رسول الله ما أحسنها من حديقة! قال لك في الجنة أحسن منها. ثم مررنا بأخرى فقلت: يا رسول الله ما أحسنها من حديقة، قال لك في الجنة أحسن منها، حتى مررنا بسبع حدائق، كلّ ذلك أقول ما أحسنها ويقول لك في الجنة أحسن منها. فلما خلا له الطّريق اعتنقني ثمّ أجهدش باكيا، قال

١ - قال الجوهرى في صحاحه (مادة حسك ١٤٠٥) ... قولهم في صدره عليّ حساكة و حسيكة أي ضغن وعداوة.

٢ - السقيفة وفدك، الجوهرى، ص ١٤٢.

قلت يا رسول الله ما يبكيك؟ قال: ضغائن في صدور أقوام لا يدونها لك إلا من بعدي. قال قلت: يا رسول الله في سلامة من ديني؟ قال في سلامة من دينك^(١).

والحديث أيضاً في تفسير القرطبي ج ٧ / ص ٣١٢ (دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤٠٥)، وتاريخ مدينة دمشق (ابن عساكر) ج ٤٢ ص ٢٢٣ (دار الفكر ١٤١٥ هـ)، ومجمع الزوائد (الهيثمي) ج ٩ / ص ١١٨ (دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٨)، والمعجم الكبير (الطبراني) ج ١١ / ص ٦١ (مكتبة ابن تيمية / القاهرة)، والكمال (ابن عدي) ج ٧ / ص ١٧٣ (دار الفكر بيروت) وتهذيب الكمال (المزي) ج ٢٣ / ص ٢٤٠ (مؤسسة الرسالة ١٤١٢ هـ) وميزان الاعتدال (الذهبي) ج ٣ / ص ٣٥٥ وج ٤ ص ٤٨٠ (دار المعرفة بيروت) والمناقب للخوارزمي ص ٦٥ (مؤسسة النشر الإسلامي قم ١٤١١ هـ) وكنز العمال (المتقي الهندي) ج ١٣ / ص ١٥٦ وج ١٤ ص ٢٤٢ (مؤسسة الرسالة بيروت).

وللسيد علي الميلاني كلمة بخصوص الحديث المذكور أحبذ للقارئ أن يتأمل فيها، قال السيد: "أخرج أبو يعلى والبزار - بسند صححه الحاكم، والذهبي، وابن حبان وغيرهم - عن علي عليه السلام [وذكر الحديث إلى قوله في سلامة من دينك] ثم قال: "هذا اللفظ في: مجمع الزوائد عن: أبي يعلى والبزار، ونفس السند موجود في المستدرک، وقد صححه الحاكم والذهبي، فيكون سنده صحيحاً يقيناً؛ لكن اللفظ في المستدرک مختصر وذيله غير مذكور،

١ - مسند أبي يعلى الموصلي، ج ١ ص ٤٢٦.

والله أعلم بمن هذا التصرف، هل هو من الحاكم أو من الناسخين أو من النّاشرين ؟ فراجعوا. السند نفس السند عند أبي يعلى وعند البزار وعند الحاكم، والحاكم يصحّحه والذهبي يوافقه، إلا أن الحديث في المستدرک أوتر مقطوع الذيل، لأنّه إلى حدّ " إنّ لك في الجنّة أحسن منها " لا أكثر. وهناك أحاديث أيضا صريحة في أنّ " الأقوام " المراد منهم في هذا الحديث هم " قريش " وفي المطلب السادس أيضا بعض الأحاديث تدلّ على ذلك، فلاحظوا..^(١).

قلتُ: والحديث يتناول ضغائن في صدور أقوام، ومحلّ القلوب الصدور، وقد عبّر القرآن بالصدور يريد بها القلوب^(٢). والمتأمل في ما حدث في السقيفة، وما تبعه من هجوم على بيت فاطمة، وتهديد بإحراقه بالنار، يُدرك أنّ القضية قضية أحقاد وضغائن لا غير؛ لأنّه لا يمكن تصوّر أن يصل الأمر بصدور نقيّة من الضغائن والأحقاد أن تنقلب وتبلغ تلك الدرجة من القساوة والفظاظة والغلظة في أقلّ من أسبوع. فالأمزجة والطّباع البشريّة لا يمكنها التحوّل بهذه السرعة من الخير إلى الشرّ دون استعداد كامن، خصوصا عند من تجاوز الأربعين حيث تستقرّ الأخلاق والملكات. وقد كان ما أقدم عليه حزب السقيفة

١ - مظلومية الزهراء عليها السلام، السيد علي الميلاني، ص ٢٥.

٢ - قال تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) وقال (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ) وقال (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَشِيرَةٌ لِّمَنْ هَدَىٰ وَنَذِيرَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) وقال (يَعْلَمُ مَا يُبْشِرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) وقال (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ) وقال (مَعَكُمْ أَوْلَىٰ اللَّهُ بِالْعَلَمِ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ) وقال (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) وقال (قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْثَرُ)..

قمة الشرّ التي ليس بعدها شرّ، إذ لا شرّ أكبر من الهجوم على بيت كان يجمع رسول الله وجبريل وأهل الكساء المطهّرين بنصّ الكتاب العزيز في نفس الأسبوع الذي تُوفّي فيه رسول الله ﷺ. وكيف يجتمع حبّ النبي ﷺ والهجوم على أحبّ الخلق إليه؟! فالأحقّاد كانت تغلي في صدور الأقوام من زمان، وقد جاء وقت ظهورها بغياب شخص النبيّ الكريم؛ وليس هناك وحي بعده يفضح من يستحقّ الفضح، لكن قد أخبر ﷺ بأمور تحصل بعده يرتدّ فيها أقوام ويشكّ فيها آخرون، ويثبت فيها من امتحن الله قلوبهم للتقوى، وجعل ﷺ رضا فاطمة وسخطها علامةً على ذلك، فمن سخطت عليه فاطمة عليها السلام فإنّ معنى ذلك أنّ الله تعالى ساخط عليه، وهذا الحديث ثابت في محلّه، ذكره الطبرانيّ في المعجم الكبير قال: "حدّثنا محمد بن عبد الله الحضرميّ حدّثنا عبد الله بن محمد بن سالم القزّاز حدّثنا حسين بن زيد بن عليّ عن عليّ بن عمر بن عليّ عن جعفر بن محمد عن أبيه عن عليّ بن الحسين عن الحسين بن عليّ رضي الله تعالى عنه عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم لفاطمة رضي الله تعالى عنها إنّ الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك" (١).

وفي المعجم الكبير أيضاً: "حدّثنا بشر بن موسى ومحمد بن عبد الله الحضرميّ قالا حدّثنا عبد الله بن محمد بن سالم القزّاز قال حدّثنا حسين بن زيد بن عليّ وعليّ بن عمر بن عليّ عن جعفر بن محمد عن أبيه عن عليّ بن الحسين

عن الحسين بن عليّ عن عليّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة: إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك^(١).

وفيه أيضا: "...الليث حدّثني عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة القرشيّ أنّ المسور بن مخرمة أخبره أنّه سمع النّبيّ ﷺ على المنبر يقول إنّما ابنتي بضعة مني يربيني ما أراهها ويؤذيني ما آذاها^(٢). حدّثنا موسى بن هارون حدّثنا قتيبة بن سعيد حدّثنا ابن لهيعة حدّثنا بن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة أنّ رسول الله ﷺ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال إنّما ابنتي يعني فاطمة بضعة مني يربيني ما أراهها ويؤذيني ما آذاها. حدّثنا أحمد بن محمد المهدي الأصبهانيّ حدّثنا أبو الوليد الطيالسيّ حدّثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن بن أبي مليكة عن المسور بن مخرمة قال: قال رسول الله ﷺ فاطمة بضعة مني من أغضبها أغضبني^(٣)".

وقد عبّرت فاطمة عن تلك الضغائن بقولها^(٤):

أبدت رجالاً لنا فحوى صدورهم لما قضيت وحالت دونك التّربُّ

وقد كان النّبيّ ﷺ يُري الأمّة ما ينبغي أن تعامل به فاطمة عليها السّلام،

١- المعجم الكبير، الطبراني، ج ٢٢ ص ٤٠١.

٢- وقد أراد أقوام من النواصب تحريف الحديث ليجعلوا فاطمة غاضبة على علي والعباد بالله، ويكفي لإبطال ما راموه الحديث الصحيح الذي يصف عليا بقوله (يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله).

٣- نفس المصدر ج ٢٢ ص ٤٠٤.

٤- السقيفة وفدك، الجوهرى، ص ١٤٥.

ومن ذلك ما رواه الطَّبْرَانِيُّ في المعجم الأوسط: حَدَّثَنَا عَلِيٌّ قَالَ أَخْبَرَنَا الْحَسَنُ بْنُ شَوْكِرٍ قَالَ أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ عَنْ إِسْرَائِيلَ عَنْ مَيْسَرَةَ بْنِ حَبِيبٍ عَنْ الْمُنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ أَشْبَهَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ دِينًا وَلَا جَلْسَةً وَلَا مَشْيَةً مِنْ فَاطِمَةَ، وَكَانَتْ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَحَّبَتْ بِهِ وَقَامَتْ مِنْ مَجْلِسِهَا وَقَبَّلَتْ يَدَهُ وَاجْلَسَتْهُ فِي مَجْلِسِهَا، وَكَانَتْ إِذَا دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَحَّبَ بِهَا وَقَامَ إِلَيْهَا وَقَبَّلَ يَدَهَا وَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ^(١). وَأَيْضًا مَا رَوَاهُ فِي الْأَوْسَطِ: "حَدَّثَنَا عَلِيٌّ قَالَ أَخْبَرَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَمْرِو بْنِ شَقِيقٍ قَالَ أَخْبَرَنَا أَسْوَدُ بْنُ حَفْصٍ الْمُرُوزِيُّ قَالَ أَخْبَرَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ حَكِيمٍ عَنْ يَزِيدَ النَّحْوِيِّ عَنْ عِكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ قَبَّلَ ابْنَتَهُ فَاطِمَةَ^(٢)".

وَكَانَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ تَصْرَحُ أَتَاهَا تَخْشَى الضَّيْعَةَ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ. فَفِي الْمَعْجَمِ الْأَوْسَطِ: "حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ رَزِيقٍ بْنُ جَامِعٍ حَدَّثَنَا الْهَيْثَمُ بْنُ حَبِيبٍ أَخْبَرَنَا سَفْيَانُ بْنُ عَيِّنَةَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَلِيٍّ الْهَلَالِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي شَكَاتِهِ الَّتِي قَبِضَ فِيهَا فَإِذَا فَاطِمَةُ عِنْدَ رَأْسِهِ قَالَ فَبَكَتْ حَتَّى ارْتَفَعَ صَوْتُهَا، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ طَرَفَهُ إِلَيْهَا فَقَالَ: حَبِيبَتِي فَاطِمَةُ مَا الَّذِي يَبْكِيكَ؟ قَالَتْ: أَخْشَى الضَّيْعَةَ مِنْ بَعْدِكَ. قَالَ: يَا حَبِيبَتِي أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ عَلَى الْأَرْضِ أَطْلَاعَةً فَاخْتَارَ مِنْهَا أَبَاكَ فَبَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ ثُمَّ أَطَّلَعَ عَلَى الْأَرْضِ أَطْلَاعَةً

١ - المعجم الأوسط، الطَّبْرَانِيُّ، ج ٤ ص ٢٤٢ [دار الحرمين].

٢ - نفس المصدر، ج ٤ ص ٢٤٨.

فاختار منها بَعْلَكَ وأوحى إِلَيَّ أَنْ أَكْحَكَ إِيَّاهُ. يا فاطمة ونحن أهل بيت قد أعطانا الله سبع خصال لم يعط أحداً قبلنا ولا تعطى أحداً بعدنا، أنا خاتم النبيين وأكرم النبيين على الله وأحبّ المخلوقين إلى الله وأنا أبوك، ووصيي خير الأوصياء وأحبّهم إلى الله وهو بعلك. وشهيدنا خير الشهداء وأحبّهم إلى الله وهو حمزة بن عبد المطلب وهو عمّ أبيك وعمّ بعلك. ومنا من له جناحان أخضران يطير في الجنة مع الملائكة حيث يشاء وهو ابن عمّ أبيك وأخو بعلك. ومنا سبطا هذه الأمة وهما ابنك الحسن والحسين وهما سيّدا شباب أهل الجنة، وأبوهما والذي بعثني بالحقّ خير منهما. يا فاطمة والذي بعثني بالحقّ إنّ منهما مهديّ هذه الأمة إذا صارت الدنيا هرج ومرج^(١) وتظاهرت الفتن، وتقطّعت السبل، وأغار بعضهم على بعض، فلا كبير يرحم الصّغير ولا صغير يوقّر الكبير، فيبعث الله عند ذلك منهما من يفتح حصون الضلالة وقلوبا غلفاً يهدمها هدماً، يقوم بالدين في آخر الزمان كما قمتُ به في أوّل الزمان، يملأ الدنيا عدلاً كما مُلئت جوراً. يا فاطمة لا تحزني ولا تبكي فإنّ الله أرحم بك وأرأف عليك منّي، وذلك لمكانك منّي وموقعك من قلبي وزوجك الله وزوجك وهو أشرف أهل بيتي حسباً، وأكرمهم منصباً، وأرحمهم بالرعيّة، وأعدلهم بالسّويّة، وأبصرهم بالقضيّة. وقد سألت ربّي أن تكوني أوّل من يلحقني من أهل بيتي. قال عليّ بن أبي طالب فلما قبض النبي ﷺ لم تبق فاطمة

١ - كذا. ويحتمل أن يكون منصوباً (هرجاً ومرجاً) باعتبار أنّه خبر صار وذلك يقتضي النصب.

بعده إلا خمسة وسبعين يوماً حتى لحقها الله به صلى الله عليه وسلم" (١).
 إذاً، كانت فاطمة تحشى الضيعة بعد النبي ﷺ، وهي ابنته وسيدة نساء أهل الجنة، ولها حرمتها بنص الكتاب العزيز، وهي في مقتبل العمر، فما معنى هذا التخوف؟ لعله يكشف مُعانة كانت تكتُمها في حياته، لأن من نسائه مَنْ كُنَّ يبغضن علياً عليه السلام ويرين فيه منافساً لأبائهن؛ ومنهن من أرسلت قميص عثمان فيما بعد إلى معاوية يستدرّ به دموع السّدج بكاء على الخليفة المظلوم! وربّما لحق فاطمة عليها السلام أذى كبيرٌ داخل البيت النبوي الشريف لأنها كانت تُذكر بالضرّة الغائبة الحاضرة خديجة أم المؤمنين عليها السلام، أفضل أزواج النبي ﷺ على الإطلاق. وربّما لحقها الأذى داخل البيت النبوي الشريف لأن ذرية النبي ﷺ انحصرت فيها، فلا أحد يرجع نسبه إلى النبي ﷺ إلا عن طريق ولديها الحسن والحسين! وربّما كانت هناك أسباب أخرى لم تبلغنا. المهم أن فاطمة عليها السلام لم تكن ترغب في الحياة بعد رسول الله ﷺ، وتصرّح بأنها تحشى الضيعة!! بنت رسول الله تحشى الضيعة في أمة رسول الله!!، وتلك الأمثال نُضربها للناس لعلّهم يتفكّرون. وقد بقيت فاطمة عليها السلام مدّة قصيرة بعد النبي ﷺ حزينّة متظلّمة، باكية ليلها ونهارها، تارةً عند قبر أبيها ﷺ، وتارةً عند قبر عمّ أبيها حمزة عليه السلام. قال الجوهرى في كتاب (السقيفة وفدك): "ثم التفتت الى قبر أبيها صلى الله عليه وسلم متمثلة بقول هند ابنة أئانة:

قَدْ كَانَ بَعْدَكَ أَنْبَاءٌ وَهَنْبَةٌ لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهَا لَمْ تَكُنْ خُطْبُ
إِنَّا فَقَدْ نَاكَ فَقَدْ الْأَرْضَ وَابِلَهَا وَاخْتَلَّ قَوْمُكَ لَمَّا غَبَتْ وَانْقَلَبُوا^(١)

وخطبتها مذكورة أيضا في شرح نهج البلاغة ج ١٦ ص ٢٥١ (دار إحياء
الكتب العربية) وكشف الغمة للأربلي ج ٢/ ص ١١١ (دار الأضواء بيروت ١٤٠٥
هـ) وجواهر المطالب في مناقب الإمام علي عليه السلام لابن الدمشقي
ج ١ ص ١٥٦ (مجمع إحياء الثقافة الإسلامية ١٤١٥ هـ).

عاقبة مُبْغِضِي عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَام

قال الطبراني في المعجم الكبير: "حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي حدثنا
جندل بن والي حدثنا محمد بن عمر المازني عن عباد الكلبي عن جعفر بن محمد
عن أبيه عن علي بن حسين عن فاطمة الصغرى عن حسين بن علي عن أمه
فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت خرج علينا رسول الله صلى
الله عليه وسلم عشية عرفة فقال إِنَّ اللَّهَ بَاهِي بِكُمْ وَغَفَرَ لَكُمْ عَاصِيَ وَلَعَلِّي
خَاصَّةٌ. وَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ غَيْرَ مُحَابٍ لِقَرَابَتِي. هذا جبريل يخبرني أَنَّ السَّعِيدَ

١ - السقيفة وفدك - الجوهري - ص ١٤٥.

حَقَّ السَّعِيدِ مِنْ أَحَبِّ عَلِيًّا فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَوْتِهِ وَأَنَّ الشَّقِيَّ كُلَّ الشَّقِيَّ مِنْ أَبْغَضِ عَلِيًّا فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَوْتِهِ"^(١).

وإذا كان الأمرُ كذلك، فمن حقِّ المسلم أن يطالع في كتب التاريخ والرجال والتراجم، وينظر بعين البصيرة ليرى إن كان هناك مَنْ أَبْغَضَ عَلِيًّا فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ، لِيُجَرِّيَ عَلَيْهِ الْحُكْمَ الَّذِي أَجْرَاهُ النَّبِيُّ ﷺ بِإِخْبَارِ مَنْ جَبْرِيلُ، وَهَذَا الْحُكْمُ هُوَ الشَّقَاءُ؛ وَلَيْسَ الشَّقِيَّ مِنْ أَهْلِ النَّجَاةِ، بِدَلِيلِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾. وَبَضَمَ مَعْنَى آيَةِ إِلَى مَعْنَى الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ يَكُونُ مُبْغَضٌ عَلِيٍّ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. وَعَلَيْهِ فُبْغُضَ عَلِيٍّ مِمَّا يُدْخِلُ النَّارَ. وَمَا يَدْخُلُ الْإِنْسَانُ بِسَبَبِهِ النَّارَ الْكِبَائِرُ وَالْمَوْبِقَاتُ إِذَا مَاتَ مُصْرًّا عَلَيْهَا. فَبُغْضَ عَلِيٍّ كَبِيرَةٌ مِنَ الْكِبَائِرِ الَّتِي مَنْ تَلَبَّسَ بِهَا وَأَصْرَّ عَلَيْهَا حَتَّى مَاتَ دَخَلَ النَّارَ. وَعِنْدَنَا فِي كُتُبِ التَّارِيخِ وَالتَّرَاجِمِ قَائِمَةٌ طَوِيلَةٌ لِرِجَالٍ وَنِسَاءٍ عَاشُوا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَسَمِعُوا مِنْهُ النَّهْيَ عَنْ بَغْضِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَعَ ذَلِكَ أَبْغَضُوهُ وَحَارَبُوهُ وَسَبُّوهُ وَلَعَنُوهُ وَشَتَمُوهُ وَافْتَرَوْا عَلَيْهِ، وَمَاتُوا مُصْرِّينَ عَلَى ذَلِكَ. فَإِذَا اقْتَدَى مُسْلِمٌ بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي الْحُكْمِ عَلَيْهِمُ بِالشَّقَاءِ فَإِنَّهُ لَنْ يَكُونَ ظَالِمًا لَهُمْ، وَلَا مُتَعَدِّيًا عَلَى حَقُّوقِهِمْ؛ بَلْ عَلَى عَكْسِ ذَلِكَ تَمَامًا، لَوْ حَكَمَ بِنَجَاتِهِمْ فَإِنَّهُ يَكُونُ مُكَذِّبًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَلَجَبْرِيلَ، وَلِلَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ الْحَدِيثَ السَّابِقَ يَقُولُ: (هَذَا جَبْرِيلُ يُخْبِرُنِي أَنَّ السَّعِيدَ حَقَّ السَّعِيدِ مِنْ أَحَبِّ عَلِيًّا فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَوْتِهِ وَأَنَّ الشَّقِيَّ كُلَّ الشَّقِيَّ مِنْ أَبْغَضِ عَلِيًّا فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَوْتِهِ). وَجَبْرِيلُ لَا

يقول هذا من تلقاء نفسه، وإِنَّمَا يُخْبِرُ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى. فَحُكِّمَ مَنْ يَبْغِضُ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ شَقِيٌّ. وَالْأَشْقِيَاءُ فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهْقٌ. وَفِي الْحَقِيقَةِ لَا يَحْتَاجُ الْمُتَدَيِّنُ الْعَامِلُ بِكَلَامِهِ تَعَالَى وَكَلَامِ رَسُولِهِ الْمُصْطَفَى ﷺ إِلَى تَنْبِيهِ بِخُصُوصِ الْمَوْقِفِ مِنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَنْ ثَبَتَ فِي الصَّحَاحِ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْهُ "يَحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ"؛ قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي الْحَدِيثِ رَقْم ٣٩٧٢ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُسْلِمَةَ حَدَّثَنَا حَاتِمٌ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ عَنْ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَخْلَفُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي خَيْرٍ وَكَانَ رَمَدًا فَقَالَ أَنَا أَتَخْلَفُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَحِقَ بِهِ. فَلَمَّا بَتْنَا اللَّيْلَةَ قَالَ لِأَعْطَيْنَ الرَّايَةَ غَدًا أَوْ لِيَأْخُذَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلٌ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَنَحْنُ نَرْجُوهَا فَقِيلَ هَذَا عَلِيٌّ فَأَعْطَاهُ فَفَتَحَ عَلَيْهِ. وَفِي الْحَدِيثِ رَقْم ٣٩٧٣ حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي حَازِمٍ قَالَ أَخْبَرَنِي سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ لِأَعْطَيْنَ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ يَحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. قَالَ فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُنَّ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلَّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ أَيْنَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟ فَقِيلَ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. قَالَ فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَن لَمْ يَكُنْ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ عَلِيٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقَاتَلَهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ انْفِذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يُجِبُّ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ،

فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم^(١).
فهذا كلام لم يقله النبي ﷺ أمام شخص أو اثنين حتى يمكن التشكيك فيه
والطعن في إسناده، وإنما قاله أمام جيش كامل ليلة فتح خيبر؛ ولقد بلغت أهمية
هذا الكلام أن بات الناس يدوكونه كُلُّ يَرجو أن يكون هو، فلا سبيل إلى
التماس الأعداء لمبغض عليّ بعدها.

وجاءت بعد شهادة عليّ عليه السلام دولةٌ جعلت من بغضه شعاراً لها
تنادي به جهاراً، وفرضت سبّه ولعنه وشتمه على المنابر، وعلموا ذلك الصبيان
في الكتائب، مع علمهم أنه حبيب الله تعالى ورسوله الكريم كما في الحديث
الصحيح السابق، وجعلوا حبه عليه السلام جريمة يستحقّ صاحبها القتل!
فلو كان لهم إلى الله تعالى سبيل وكان يجوز عليه القتل لقتلوه، لأنّه جلّ شأنه
يحبّ عليّاً، ومحبّ عليّ في قانون تلك الدولة يستحقّ القتل. ومن أركان تلك
الدولة: عمرو بن العاص، وأبو الأعور السلمي، والمغيرة بن شعبة الثقفي، وأبو
هريرة الدوسي، والوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي، وعتبة بن أبي سفيان،
وأبان بن عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد بن المغيرة
المخزومي، وبشر بن أرطاة، وسمرة بن جندب، ومسلم بن عقبة المرّي (الذي

١ - صحيح البخاري ج ٤ ص ١٥٤٢. والحديث أيضاً في صحيح البخاري ج ٣ ص ١٠٩٦ وصحيح مسلم ج ٣
ص ١٤٤٠ و ج ٤ ص ١٨٧١ وص ١٨٧٢ وصحيح ابن حبان ج ١٥ ص ٣٧٩ وص ٣٨٢ ومستدرك الحاكم
ج ٣ ص ٤٠ وص ١١٧ ومستدرك أبي عوانة ج ٤ ص ١٠٦ وص ٣١٠ وسنن الترمذي ج ٥ ص ٦٣٨ ومجمع الزوائد ج ٦
ص ١٥٠ وسنن البيهقي الكبرى ج ٩ ص ١٣١ والسنن الكبرى (النسائي) ج ٥ ص ١٠٧ و ١٠٦ و ١٠٧ و ١٠٨ و ١٠٩
و ١١٠ و ١١١ و ١١٢ و ١١٣ و ١٢٢ و ١٤٤ و ١٧٣ وسنن ابن ماجه ج ١ ص ٤٣ ومصنف ابن أبي شيبة ج ٦
ص ٣٦٦ و ٣٦٧ و ٣٦٩.

استباح المدينة بأمر يزيد بن معاوية)، وعبد الله بن عمرو بن العاص (تلميذ كعب الأحبار) وحبيب بن مسلمة الفهري (المتهم بالهجوم على بيت فاطمة عليها السلام) ومروان بن الحكم، وزيد بن أبيه، وعبد الله بن عامر بن كرز، ويعلى بن منية، وذوالكلاع، وزفر بن الحارث، ومسلمة بن مخلد، وجماعة كثيرة كانت تتقرب إلى الله تعالى بلعن أوليائه وأحب الخلق إليه!

* * *

ختاماً، لا يسعني إلا أن أذكر بما قلته في أول الكتاب من إشارة إلى فائدة التدبر، ودوره في توضيح المعاني والمفاهيم القرآنية، إذا أخذ في الاعتبار مقام النبوة وما يليق به، ورعاية حرمة الله تعالى في الحديث عن كلامه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ولئن كنت أستبعد أن يكون هؤلاء المفسرون الذين سبقت عباراتهم مغرضين متعمدين ما وقعوا فيه من التضارب والخلط في مصطلح واحد بدأ ذكره ببداية نزول القرآن وانتهى بنهايته، فإنني لا أستبعد أن تكون أسطورة عدالة جميع الصحابة قد أثرت في تفكيرهم وغسلت أدمغتهم وصاغت تعابيرهم إلى أن أصبحوا لا يدرون ما يقولون ولا ما يفعلون. ولو أنهم عملوا بوصية رسول الله ﷺ في الثقلين، الكتاب والعترة، وطلبوا الأمر في مظانه، لأكلوا من ثمار المعرفة من فوقهم ومن تحت أرجلهم! لكنهم لم يكتفوا بدعوى صعب عليهم منالها، بل أمعنوا في البعد عن خزان

العلم وسمحوا لأنفسهم بالخوض في أحواض حَفَرَهَا كعب الأخبار وتميم الدَّاري ووهب بن منبه ومن اقتدى بهم، فكان ما كان ولا يزال.

كان على المفسرين أن يحترموا كلام رسول الله ﷺ حين قال: "أنا مدينة العلم وعليّ بابها" لا أن يسعوا إلى الطعن في الحديث ونسبته إلى الوضع. وكان عليهم أن يستفيدوا من نعمة حضور أئمة أهل البيت عليهم السلام وينهلوا من علمهم الموروث عن جدّهم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، لا أن يهَمْشَوْهم ويتفادوا النّقل عنهم في كلّ كبير وصغير.

كان على المفسرين أن يتدبروا كلام رسول الله ﷺ كما يتدبرون القرآن الكريم، وأن يتمعنوا جيّداً في قوله تعالى ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ ويسألوا أنفسهم لم لا يكون آل محمد ﷺ كآل إبراهيم وآل عمران وآل يعقوب وآل داوود؟! لم لا يكون وصيّ رسول الله ﷺ كوصيّ موسى ووصيّ سليمان وأوصياء غيرهما من الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين؟! أليس من العمى أن يُصَلِّيَ المرءُ على آل محمد ﷺ في صلاته ثم يهَمْشَوْهم خارج صلاته كأن لم ينزل في بيتهم آية واحدة؟! أليس من الضلال أن يُقال لرسول الله ﷺ - ضَمْناً لا صراحةً - أمّا أنت فنعمّ وأمّا أهل بيتك فلا؟!

١ - وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُجِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارًا عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (الأنعام ١٢٤).

هذا حديث من أحاديث النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِيهِ عِبْرَةٌ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ
أَوْ أَرَادَ شُكُورًا :

أَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنِّي
لَكُمْ فَرَطٌ وَإِنْ كُمْ وَارِدُونَ عَلَيَّ الْحَوْضَ فَانظُرُوا كَيْفَ تَخْلِفُونِي فِي الثَّقَلَيْنِ قِيلَ
وَمَا الثَّقَلَانِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الْأَكْبَرُ كِتَابُ اللَّهِ عِزُّ وَجَلُّ سَبَبُ طَرَفِهِ بِيَدِ اللَّهِ
وِطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ لَنْ تَزَالُوا وَلَا تَضِلُّوا وَالْأَصْغَرُ عِترتي وإِنَّهُمَا لَنْ
يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ وَسَأَلْتُ لَهَا ذَاكَ رَبِّي فَلَا تَقْدُمُوهُمَا لَتَهْلِكُوا وَلَا
تَعْلَمُوهُمَا فَإِنَّهُمَا أَعْلَمُ مِنْكُمْ.

قال ابن حجر الهيتمي: "وفي رواية وإِنَّهُمَا لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ
سَأَلْتُ رَبِّي ذَلِكَ لَهَا فَلَا تَقْدُمُوهُمَا فَتَهْلِكُوا وَلَا تَقْصُرُوا عَنْهُمَا فَتَهْلِكُوا وَلَا
تَعْلَمُوهُمَا فَإِنَّهُمْ أَعْلَمُ مِنْكُمْ . ولهذا الحديث طرق كثيرة عن بضع وعشرين
صحابيا لا حاجة لنا إلى بسطها..."^(١)

الحديث في المعجم الكبير للطبراني ج ٣/ ص ٦٦ وج ٥ ص ١٦٦ والدرر
المنثور - للسيوطي ج ٢/ ص ٢٨٥ و مجمع الزوائد للهيتمي ج ٩/ ص ١٦٤
وسمط النجوم العوالي ج ٤ ص ١٦٠.

١ - الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة ج ٢/ ص ٦٥٣.

ومع بالغ الأسف، لم نجد لأئمة أهل البيت عليهم السلام الذين شهد لهم النبي ﷺ بالأعلميّة - لم نجد لهم - كلمة واحدة في التّفسير السّابقة بخصوص طائفة الذين في قلوبهم مرض، ولعلّ ذلك راجع إلى كونهم لا يؤمنون بعدالة جميع الصّحابة التي فرضتها ثقافة الكرسيّ.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

مصادر الكتاب

• القرآن الكريم

١. أسباب نزول الآيات/ الواحدي النيسابوري / مؤسسة الحلبي وشركائه ١٣٨٨
٢. أسباب نزول الآيات/ الواحدي النيسابوري /
٣. الإنتقان في علوم القرآن/ السيوطي، دار النشر: دار الفكر - لبنان - ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى، تحقيق: سعيد المندوب.
٤. أحكام القرآن/ الجصاص - دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥
٥. أحكام القرآن/ الجصاص / دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٤٠٥، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي.
٦. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم/ لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت
٧. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم/ أبو السعود - دار إحياء التراث العربي - بيروت
٨. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن/ الشنقيطي/ دار الفكر للطباعة والنشر/ بيروت. ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات.
٩. أضواء على السنة المحمدية/ محمود أبو ريّة/ نشر البطحاء/ ١٣٨٥ / الطبعة الخامسة، مزينة محققة.

١٠. الإكتفاء بما تضمنته من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، / أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، دار النشر: عالم الكتب - بيروت - ١٤١٧هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد كمال الدين عز الدين علي
١١. البرهان في علوم القرآن / الزركشي / دار المعرفة - بيروت - ١٣٩١، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
١٢. البرهان في علوم القرآن / الزركشي أبو عبد الله، دار النشر: دار المعرفة - بيروت - ١٣٩١، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
١٣. التبيان في آداب حملة القرآن / النووي / الوكالة العامة للتوزيع - دمشق - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، الطبعة: الأولى.
١٤. التبيان في تفسير غريب القرآن / شهاب الدين المصري / دار الصحابة للتراث بطنطا - مصر - ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، الطبعة: الأولى، تحقيق: فتحي أنور الدابلوي.
١٥. الكتاب : التبيان في أقسام القرآن / ابن القيم - الناشر : دار الفكر
١٦. تفسير القرآن العظيم / ابن كثير الدمشقي دار النشر: دار الفكر - بيروت - ١٤٠١
١٧. تفسير القرآن العظيم / ابن كثير - دار المعرفة بيروت ١٤١٢
١٨. تفسير القرآن العظيم / ابن كثير / دار الفكر بيروت ١٤٠١
١٩. تفسير الثعالبي / دار إحياء التراث العربي ١٤١٨
٢٠. تفسير الثعالبي / مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت

٢١. تفسير البغوي/ دار المعرفة - بيروت، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك.
٢٢. تفسير البضاوي/ البضاوي،: دار الفكر - بيروت
٢٣. التفسير الكبير الفخر الرازي/ دار الكتب العلمية/ بيروت/ -١٤٢١ (الطبعة الأولى).
٢٤. تفسير القرآن / السمعاني/ دار الوطن - الرياض - السعودية - ١٤١٨هـ -
١٩٩٧م، الطبعة: الأولى، تحقيق: ياسر بن إبراهيم و غنيم بن عباس بن غنيم
٢٥. تفسير ابن عربي/: دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - ١٤٢٢هـ/ -٢٠٠١م،
الطبعة: الأولى، تحقيق: ضبطه وصححه وقدم له الشيخ عبد الوارث محمد علي.
٢٦. تفسير الجلالين/ محمد بن أحمد - عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي/ دار الحديث -
القاهرة، الطبعة: الأولى.
٢٧. تفسير البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي/ دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت -
١٤٢٢هـ/ الطبعة: الأولى، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي
محمد معوض، شارك في التحقيق (١) د. زكريا عبد المجيد النوقي (٢) د. أحمد النجولي
الجميل.
٢٨. تفسير الثعلبي/ دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.
مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي.
٢٩. تفسير القرآن/ عبد الرزاق بن همام الصنعاني/ مكتبة الرشد - الرياض - ١٤١٠،
الطبعة: الأولى، تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد.

٣٠. تفسير البحر المحيط / لأبي حيان الأندلسي، دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت - ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، الطبعة: الأولى، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق (١) د. زكريا عبد المجيد النوقي (٢) د. أحمد النجولي الجمل.

٣١. الجامع لأحكام القرآن / القرطبي / دار الشعب القاهرة

٣٢. تنزيل القرآن / ابن شهاب الزهري: دار الكتاب الجديد - بيروت - ١٩٨٠، الطبعة: الثانية، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد.

٣٣. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان / عبد الرحمن السعدي مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، تحقيق: ابن عثيمين.

٣٤. جامع العلوم والحكم دار المعرفة / ابن رجب الحنبلي بيروت الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ

٣٥. جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم / ابن شهاب الدين البغدادي / مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، الطبعة: السابعة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط / إبراهيم باجس.

٣٦. تهذيب الكمال ، المزيّ، (مؤسسة الرسالة ١٤١٢هـ)

٣٧. الجواهر الحسان في تفسير القرآن / الثعالبي / مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.

٣٨. الجامع الصحيح / محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي / دار ابن كثير / اليمامة - بيروت - ١٤٠٧ - ١٩٨٧، الطبعة: الثالثة، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا. الجامع لأحكام القرآن / القرطبي / دار الشعب - القاهرة.
٣٩. جامع البيان / الطبري / دار الفكر ١٤١٥
٤٠. جامع البيان عن تأويل آي القرآن / الطبري / دار الفكر - بيروت - ١٤٠٥ الدر المنثور / السيوطي / مطبعة الفتح - جدة ١٣٦٥
٤١. حقائق التفسير / محمد بن الحسين السلمي / دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت - ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م، الطبعة: الأولى، تحقيق: سيد عمران. الجامع لأحكام القرآن / القرطبي / دار إحياء التراث العربي ١٤٠٥
٤٢. الدر المنثور / جلال الدين السيوطي / دار الفكر - بيروت - ١٩٩٣ م
٤٣. زاد المسير في علم التفسير / ابن الجوزي / دار الفكر بيروت ١٤٠٧ هـ
٤٤. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني محمود الألوسي أبو الفضل دار إحياء التراث العربي - بيروت.
٤٥. زاد المسير في علم التفسير / ابن الجوزي / المكتب الإسلامي - بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٤ هـ.
٤٦. شواهد التنزيل / الحاكم الحسكاني / مجمع إحياء الثقافة الإسلامية إيران ١٤١١.
٤٧. شواهد التنزيل / الحاكم الحسكاني.

٤٨. شفاء العليل / ابن القيم / الناشر : دار الفكر - بيروت ، ١٣٩٨ - ١٩٧٨ تحقيق : محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي.
٤٩. صحيح ابن حبان البستي، مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٤ - ١٩٩٣، الطبعة: الثانية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط.
٥٠. صحيح البخاري/ البخاري/ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت/ ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م طبعة بالأوفست عن طبعة دار الطباعة العامة بإستانبول.
٥١. صحيح مسلم: / مسلم النيسابوري/ دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
٥٢. طبقات المفسرين / أحمد بن محمد الأندروني الناشر : مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة الطبعة الأولى، ١٩٩٧ تحقيق : سليمان بن صالح الحزري.
٥٣. فتح القدير / الشوكاني/ دار الفكر بيروت
٥٤. فتح الباري/ ابن حجر/ دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت - لبنان/ دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت - لبنان.
٥٥. قلاند المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن/ الكرمي/ دار القرآن الكريم - الكويت - ١٤٠٠، تحقيق: سامي عطا حسن.
٥٦. كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، تأليف: محمد الغرناطي الكلبي، دار الكتاب العربي - لبنان - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، الطبعة: الرابعة.

٥٧. الكامل في ضعفاء الرجال، ابن عدي الجرجاني، دار الفكر - بيروت - ١٤٠٩ -
١٩٨٨، الطبعة: الثالثة، تحقيق: يحيى مختار غزاوي.
٥٨. الكشف عن حقائق التنزيل / الزمخشري / دار إحياء التراث العربي - بيروت،
تحقيق: عبد الرزاق المهدي. فتح القدير / الشوكاني / عالم الكتب / دار الكتب
/ بيروت
٥٩. كنز العمال / المتقي الهندي / مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م
ضبط وتفسير: الشيخ بكري حياني / تصحيح وفهرسة: الشيخ صفوة السقا.
٦٠. لباب النقول في أسباب النزول / السيوطي أبو الفضل / دار إحياء العلوم - بيروت.
٦١. معاني القرآن / النحاس / جامعة أم القرى / السعودية ١٤٠٩
٦٢. المستدرک على الصحيحين / الحاكم النيسابوري / دار الكتب العلمية - بيروت -
١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.
٦٣. مسند ابن أبي شيبه، دار الوطن - الرياض - ١٩٩٧ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عادل
بن يوسف العزازي و أحمد بن فريد المزيدي
٦٤. مسند أبي يعلى - الموصلي - دار المأمون للتراث - دمشق - ١٤٠٤ - ١٩٨٤، الطبعة:
الأولى، تحقيق: حسين سليم أسد.

٦٥. مسند الحارث (زوائد الهيثمي)، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية - المدينة المنورة - ١٤١٣ - ١٩٩٢، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. حسين أحمد صالح الباكري
٦٦. مسند الرّوياني، دار النشر: مؤسسة قرطبة - القاهرة - ١٤١٦، الطبعة: الأولى، تحقيق: أيمن علي أبو يمان.
٦٧. المطالب العالية ابن حجر العسقلاني، دار العاصمة/ دار الغيث - السعودية - ١٤١٩هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشثري
٦٨. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد| علي بن أبي بكر الهيثمي، دار النشر: دار الريان للتراث/ دار الكتاب العربي - القاهرة| بيروت - ١٤٠٧
٦٩. ميزان الاعتدال، الذهبي، (دار المعرفة بيروت).
٧٠. المناقب، لخوارزمي (مؤسسة النشر الإسلامي قم ١٤١١هـ).
٧١. مسند أحمد، أحمد بن حنبل - مؤسسة قرطبة - مصر
٧٢. مسند البزار، مؤسسة علوم القرآن - مكتبة العلوم والحكم - بيروت| المدينة - ١٤٠٩، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محفوظ الرحمن زين الله
٧٣. موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان، تأليف: علي بن أبي بكر الهيثمي أبو الحسن، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت، تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة
٧٤. مقدمة فتح الباري/ ابن حجر/ دار إحياء التراث العربي- بيروت/ لبنان ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م. الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الميرية ببولاق مصر المحمية سنة ١٣٠١ هـ

٧٥. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/ ابن عطية الأندلسي/ دار الكتب العلمية - لبنان - ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد.
٧٦. مناهل العرفان في علوم القرآن/ الزرقاني، دار النشر: دار الفكر - لبنان - ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، الطبعة: الأولى
٧٧. مفردات غريب القرآن / الراغب الأصفهاني / دار نشر الكتاب ١٤٠٤ الطبعة الثانية
٧٨. مختار الصحاح/ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي/ مكتبة لبنان ناشرون - بيروت - ١٤١٥ - ١٩٩٥ / طبعة جديدة، تحقيق: محمود خاطر
٧٩. الناسخ والمنسوخ/ النحاس / مكتبة الفلاح - الكويت - ١٤٠٨، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. محمد عبد السلام محمد.
٨٠. نواسخ القرآن/ ابن الجوزي دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠٥، الطبعة: الأولى.
٨١. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/ : علي بن أحمد الواحدي / دار القلم - الدار الشامية - دمشق - بيروت - ١٤١٥، الطبعة: الأولى، تحقيق: صفوان عدنان داوودي.

محتويات الكتاب

المقدمة: ٥

المدخل

كلام في التدبّر ٩

الفصل الأول

ال (قُلُوب) و ال (قُلُوب) في القرآن الكريم ٢٥

الفصل الثاني

(الذين قلوبهم مرض) في تفسير الصنعاني ٦٣

(الذين قلوبهم مرض) في تفسير الطبري ٦٧

(الذين قلوبهم مرض) في معاني القرآن (النّحاس) ٨٦

الفصل الثالث

(الذين قلوبهم مرض) في تفسير الثعلبي ٩٣

(الذين قلوبهم مرض) في تفسير الواحدي ٩٦

الفصل الرابع

(الذين قلوبهم مرض) في تفسير البغوي ١٠٥

(الذين قلوبهم مرض) في تفسير ابن الجوزي ١١٢

(الذين قلوبهم مرض) في تفسير النسفي: ١١٩

الفصل الخامس

- الذين في قلوبهم مرض في تفسير الرّازي ١٢٥
- (الذين في قلوبهم مرض) في تفسير القرطبي ١٤٦
- [بحث حول الواو المقحمة] ١٥٠
- عودة إلى تفسير القرطبي ١٥٢

الفصل السادس

- الذين في قلوبهم مرض في تفسير البحر المحيط ١٥٧
- الذين في قلوبهم مرض في تفسير ابن كثير ١٦٥

الفصل السابع

- الذين في قلوبهم مرض في تفسير الجلالين ١٨٠
- الذين في قلوبهم مرض في تفسير الثعالبي ١٨٢

الفصل الثامن

- الذين في قلوبهم مرض في الدّر المنثور ١٩٢
- الذين في قلوبهم مرض في تفسير أبي السعود ١٩٨

الفصل التاسع

- (الذين قلوبهم مرض) في تفسير الآلوسي (روح المعاني) ٢٠٨
- الذين في قلوبهم مرض في كتاب "التحرير و التّنوير" ٢٣٨
- الذين في قلوبهم مرض في تفسير (أضواء البيان) ٢٤٤
- الحصيلة ٢٤١

٢٤١	عند الصنعانيّ:
٢٤٢	وعند الطبريّ:
٢٤٢	وهم عند النّحاس:
٢٤٢	وهم عند الثعلبيّ:
٢٤٣	وهم عند الواحديّ:
٢٤٣	وهم عند البغويّ:
٢٤٣	وهم عند ابن الجوزيّ:
٢٤٤	وهم عند النسفيّ:
٢٤٥	وهم عند الرّازيّ:
٢٤٥	وهم عند القرطبيّ:
٢٤٦	وهم عند أبي حيّان:
٢٤٧	و عند ابن كثير:
٢٤٨	وهم عند الثعلبيّ:
٢٤٨	وعند السيوطيّ:
٢٤٩	وهم عند أبي السعود:
٢٤٩	وهم عند الألويسيّ:
٢٥٠	وهم عند الشّنقيطيّ:

وهم عند ابن عاشور: ٢٥٠

الفصل العاشر

صفات و أعمال الذين في قلوبهم مرض ٢٥٧

حربٌ لله ورسوله ٢٧١

أحاديث في أذى النبي صلى الله عليه وآله ٢٧٢

تصريح صحابة وتابعين ب بغض الحسن والحسين ٢٧٤

الضعائن ٢٧٥

عاقبة مُبْغِضِي عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَام ٢٨٥

خاتمة ٢٨٩

مصادر الكتاب ٢٩٣

فهرست المحتويات ٣٠٣